روّاد الفلسفة البرجماتِية

تأليف

تشارلز موريس

ترجمة وتعليق

الدكتــور

إبراهيم مصطفى إبراهيم

٢٠١١



عدد الصفحات :- ٣٣٨

المؤلف : ابراهيم مصطفي ابراهيم

عنوان الكتاب : رواد الفلسفة البرجماتية

رقم الايداع :-

حقوق النشر والتوزيع



الاداره :- ٣٦ ش سوتير - الازريطة - أمام كلية الحقوق – جامعة
الاسكندرية – جمهورية مصر العربيه
تليفاكس :- ٠٠٢٠٣٤٨٧٠١٦٣
محمول :- ٠٠٢٠١٢١٦٦٦٩١٣
الفرع الثاني :- ٣٨٧ ش قنال السويس – الشاطبي – الاسكندريه
Email: -
darelmaarefa@gmail.com,d_maarefa@yahoo.com
Web site: - www.darelmaarefa.com

الإهداء

إلى أستاذي الفاضل ... وأخي الكريم ... الذي جمعني به الحب في الله ... والعمل على إرضاء الله ... الذي أعطى ولم ينتظر الشكر ... فأوفى ... ومنح دون أن ينتظر الجزاء ... فزاد.

جزاه الله تعالى عني خير الجزاء ... وجعله كما كان دائماً قدوة حب ووفاء وعلم وخلق ... إنه نعم العبد الصالح ... رضيَّ الله عنه وأرضاه ... وشمله وأسرته الكريمة بعنايته ورحمته ومغفرته ورضاه.

إلى الأخ الحبيب :

الأستاذ الدكتور / محمد محمد قاسم

(رحمه الله تعالى)

إهداء وفاء وود وتقدير



مقدمة بقلم المترجم

لم يكن مصطلح البرجماتية Pragmatism(*) يستخدم كثيراً في اللغة الإنجليزية وبخاصة في النصوص الفلسفية حتى قدمه الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce (١٨٣٩-١٩١٤) أخذاً عن الفيلسوف الألماني إيمانويل كنط الذي أورده في كتابه «نقد العقل الخالص» Critique of Pure Reason لكي يعبّر به عن علاقة تحديد بعض الأهداف الإنسانية بعضها بالبعض الآخر.

وقد بدأ بيرس استخدام المصطلح اعتباراً من عام ١٨٧٨ كمصطلح يعبّر به عن القضية المنطقية لكي يحدد عن طريقه معاني الكلمات التي يستخدمها.

وقدّم بيرس قاعدته الأساسية التي جاء فيها: «لنأخذ في اعتبارنا المؤثرات التي يجب أن تكون لها نتائج عملية واضحة، فنحن نقتنع بموضوع إدراكنا، ثم يتكون لدينا تصور أو مفهوم عن هذه المؤثرات والتي تكون في مجموعها تصورنا عن الموضوع».

ثم أضاف بيرس قوله: «إنها النظرية التي تقول لنا إن التصور يجب أن يكون له هدف عقلي (منطقي) للكلمة التي نقولها أو التعبير الآخر الذي نقصده، والذي يوجد في النتيجة التي توجه سلوكنا في الحياة، وطالما أن النظرية التي قد لا ينتج عنها نتيجة تتولد عن التجربة، إذاً يجب أن تكون قادرة على توجيه سلوكنا في الحياة، وإذا كان هناك من يستطيع أن يعرف

(*) من الفعل اليوناني Pragma بمعنى الفعل أو العمل أو النشاط.

بدقة كل الظواهر التجريبية التي تثبت أو تنفي هذا التصور، فالتعريف هنا سيكون تعريفاً كاملا للتصور، وبالتالي فلن يكون هناك مطلقاً أكثر من ذلك بداخله»(١).

وفي المقال المشهور الذي نشره بيرس بعنوان «كيف نجعل أفكارنا واضحة؟ والذي نشره في عدد يناير ١٨٧٨ في مجلة Popular Science Monthly، ذكر بيرس - بعد أن أشار إلى أن عقائدنا هي في الواقع قواعد للعمل والأداء - أننا لكي ننشيء معنى فكرة، فكل ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أي سلوك تصلح لإنتاجه: إن المسلك بالنسبة لنا هو مغزاها الوحيد الذي يعول عليه، وإن الحقيقة الملموسة البينة التي هي المنشأ الأصلي الجذري لكل تمايزاتنا بين الأفكار، مهما تكن خفية ومستورة، فلا توجد فكرة واحدة منها على سبيل الحصر تبلغ حداً من الدقة والرقة بحيث لا تتألف من شيء سوى تمايز ممكن في المزاولة العملية»(٢).

فالطريقة البرجماتية هي محاولة تفسير كل فكرة بتتبع واقتفاء أثر نتائجها العملية كلاً على حدة.(٣)

وبناءً عليه فالبرجماتية هي الفلسفة أو الفلسفات أو الاتجاهات القائلة بأن الفكرة التي هي عبارة عن الفحوى العقلي للكلمة أو لأي تعبير آخر إنما تنحصر فيما نتصوره لها من أثر على مسلك الحياة لأنه من البدهي أن ما لاينتج عن التجربة يستحيل أن يكون ذا أثر مباشر على السلوك، وعلى

---

(1) Urmson J.O., Pragmatism, in the Concise Encyclopedia of Western Philosophy and Philosophers, edited by: J.O. Urmson and Jonathan Ree, Routledge, London and New York, 1989, p. 256.

(٢) وليم جيمس، البرجماتية، ترجمة د. محمد علي العريان، دار النهضة العربية، القاهرة، نيويورك، يونيو ١٩٦٥، ص٦٥.

(٣) نفس المصدر، ص٦٤.

ذلك فإذا استطعنا أن نعرف بدقة جميع ظواهر التجربة الممكن حدوثها والتي يترتب على إثباتنا أو على إنكارنا لفكرة ما استطعنا بذلك أن نحصل على تعريف كامل للفكرة لأنه من المحال أن يكون في مضمونها شيء أكثر من تلك الظواهر التجريبية التي ذكرتها.(٤)

وسرعان ما بدأ فلاسفة آخرون يستخدمون المصطلح مما أعطاه أبعاداً أخرى، ومعاني جديدة قد تكون غامضة أحياناً، مما دعا بيرس إلى أن يكتب مرة أخرى: إنه من أجل أن يؤدي المصطلح الغرض الدقيق الذي يعبر عن التعريف الأصلي للكلمة فإنه يعلن عن مولد المصطلح الجديد البرجماطيقية Pragmaticism. وهي كلمة قبيحة بدرجة كافية لكي تأمن من سطو اللصوص الخطافين لها Kidnappers.(٥)

وحوَّل وليم جيمس William James (١٨٤٢-١٩١٠) البرجماتية إلى نظرية في الصدق Truth فقال: «إن الأفكار تكون صادقة إذا منحتنا علاقة مرضية في مجالات الخبرة والصدق هو الاسم الذي أعطيه لأية موقف يبرهن على أنه جيد فاعتقد فيه». والبرجماتية كما يرى جيمس تطرح تساؤلاً معتاداً مؤداه" كيف يمكن منح الصدق لأية فكرة أو اعتقاد "أو" ما الفرق الأساسي الذي يمكن على أساسه أن ندرك الصدق؟ وما الفرق بين خبرات نحصل عليها فنصف بعضها بالصدق وبعضها الآخر بالكذب؟

وباختصار: ما القيمة الفورية Cash - Value لمصطلح الخبرة؟

لقد اختلف الفلاسفة بإزاء الإجابة عن تلك التساؤلات ولكنهم اتفقوا في أشياء أخرى، مثل اتفاق البرجماتية مع المذهب الاسمي في كونها تلجأ

---

(٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة د. زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت، ص٣٠٤.

(5) Urmson, Pragmatism, p. 257.

مثله إلى كثرة التفاصيل الجزئية، كما تتفق مع المذهب النفعي في توكيدها على النواحي العملية، وتتفق كذلك مع الوضعية المنطقية في إزدرائها للحلول الكلامية والتساؤلات التي لا جدوى منها، وللتجريدات الميتافيزيقية وعدائها للمذهب العقلي بل والتجريبي المعتدل أيضاً. فكانت البرجماتية بذلك منهاجاً اختلف الفلاسفة في طريقة استخدامه، وكما قال البرجماتي الشاب الإيطالي بابيني: إن البرجماتية تكمن وسط نظرياتنا مثل الرواق أو الدهليز في فندق، فهو يفضي إلى عدد لا حصر له من الغرف ويفتح عليه. ففي أحدها قد تجد رجلا يكتب سفراً في علم الجمال، وفي الغرفة المجاورة لها قد تجد شخصاً ساجداً يدعوا الله أن يهبه الإيمان والقوة، وفي الثالثة تجد كيميائياً يبحث في خصائص أحد الأجسام، وفي غرفة رابعة تجد نظاماً من الميتافيزيقيات المثالية في طور المخاض والابتداع، بينما في الغرفة المجاورة له هناك من يثبت استحالة قيام الميتافيزيقا.(٦)

فالبرجماتية «اتجاه تحويل النظر بعيداً عن الأشياء الأولية، والمبادىء، والنواميس، والفئات، والحتميات المسلم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة، الثمرات، والنتائج، والآثار، والوقائع، والحقائق... كما تعني أيضاً نظرية معينة في الصدق»(٧).

وعندما أصدر ألفريد جيلز إير Alfred Jeals Ayer (١٩١٠-١٩٨٩) كتابه «أصول البرجماتية» The Origin of Pragmatism ساد اعتقاد بأن البرجماتية هي نتاج فكري أمريكي متميز، إلا أنها تضرب بجذورها لا إلى كنط كما كان يعتقد بل إلى أعماق سحيقة في تاريخ الفكر الفلسفي يصل إلى بروتاجوراس Protagoras (٤٥٠ ق.م) الذي جلس في أبديرا وأعلن

---

(٦) وليم جيمس، البرجماتية، ص٧٥.

(٧) نفس المصدر، ص٧٦.

(*) Man is the measure of all things.

أن «الإنسان مقياس الأشياء جميعاً(*)»، مما يعني أن البرجماتية لم تقدم لنا أكثر من نزعة ذاتية Subjectivism جديدة وجنوح نحو النسبية Relativism للنماذج المعتادة الموروثة للفكر وكان هدفها الأساسي هو «الفكر من أجل العمل»(*)(٨)

ويمكن تحديد الركائز الأساسية التي قامت عليها البرجماتية في النقاط الآتية:

١- الاتجاه نحو النزعة الفردية ورفع لواء الحرية.

٢- التعددية في مجال الإيمان بالأفكار مما يعني أن هناك تناقضاً في تركيبة المجتمع الأمريكي ذاته.

٣- معاداة الأفكار والنظريات والفلسفات الاعتقادية (الدوجماطية).

٤- الاهتمام بالنزعة العملية Operationalism على الرغم من كراهية بيرس لهذه التسمية وتفضيله عليها اسم «البرجماتية» أو «البرجماطيقية» لأنها تهتم بالسبيل نحو المعرفة التي لها علاقة بالسلوك الإنساني، وهو اعتراض دقيق ليس له علاقة بالخلاف السائد بين الناس في مثل هذه الأمور.

٥- الاهتمام بالعلم والتكنولوجيا معاً.

٦- النزعة التجريبية التي تذهب إلى أبعد مما تذهب إليه التجريبية الإنجليزية بصفة خاصة، والأوروبية بصفة عامة.

٧- الجنوح نحو فلسفة القوة وفلسفة السوبرمان وهي الدعوة التي نادى بها نيتشه.

(*) All Thought is for the Sake of action.

(8) Smith, John, E., Purpose and Thought (The Meaning of Pragmatism) New Haven, Yale University Press, 1978, pp. 7-8.

٨- ظهور عدة اتجاهات واهتمامات، وأمزجة داخل إطار البرجماتية مثل الاهتمام بالنزعات القومية والديموقراطية والاتجاه نحو النزعة الأرثوذكسية الدينية وهم الذين لجأوا إلى النصوص الدينية من أجل إقامة الصرح الإيماني، والمزاج الترنسندنتالي عند فرجسون وكارليل وإرازموس، والاهتمام بالنزعة التطورية لدى دارون وغيرها من النزعات العملية ... تجريبية... وطبيعية ... وواقعية وغيرها.(٩)

والكتاب الذي بين أيدينا يلقي الضوء على أهم موضوعات الفلسفة أو الفلسفات البرجماتية مثل: نظرية العلامات البرجماتية، والميثودولوجيا البرجماتية والأكسيولوچيا البرجماتية، والكوزمولوجيا البرجماتية.

ومؤلف الكتاب هو تشارلز موريس Charles Morris (١٩١٠) فيلسوف أمريكي تشابكت في مذهبه عناصر البرجماتية والوضعية الجديدة Neo Positivism. وكانت إسهاماته الرئيسة في مجال فلسفة اللغة. وقد أراد موريس أن يزاوج بين البرجماتية السلوكية Behaviouristic Pragmatism لأستاذه چورج هربرت ميد George Herbert Mead (١٠) وبين التجريبية المنطقية لجماعة فيينا Vienna Circle، وفي ذات الوقت يقوم بتطوير أفكار تشارلز ساندرز بيرس عن العلامات Signs داخل إطار عمله النسقي هذا.

وعلى الرغم من أن نتائج موريس كانت أبعد مما ذهبت إليه أفكار بيرس في مجال العلامات اللغوية وغير اللغوية Non-linguistic فإن تقسيمه للسيميوطيقا (أو النظرية العامة للعلامات) إلى ثلاثة فروع رئيسة كبرى تبناها

---

(٩) انظر: * هربرت شنيدر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤.

(10) George Herbert Mead, Mind, Self and Society: from the Standspoint of a Social Behaviourist, Chicago, 1934.

الكثيرون في العالم، وهي:[11]

١- التركيب اللغوي Syntactics وهي الدراسات التي تركز على العلاقات بين العلامات وبين الخواص أو الصفات الصورية الخالصة.

٢- علم المعاني أو الدلالة Semantics الذي يقوم بتحليل علاقات العلامات مع ما تشير إليه هذه المعاني أو الدلالات.

٣- البرجماطيقيات التي تقوم بفحص النتائج مع استخدام العلامات.

وقد ترك لنا موريس مجموعة مهمة من المؤلفات وهي مرتبة ترتيباً تاريخياً على النحو الآتي:

١- ست نظريات عن العقل (١٩٣٢).

Six Theories of Mind

٢- أسس نظرية العلامات (١٩٣٨).

Foundations of the theory of Signs

٣- دروب الحياة: مقدمة في عالم الدين (١٩٤٢)

Paths of life, Preface to a world Religion

٤- الإشارات واللغة والسلوك (١٩٤٦-١٩٥٥)

Signs, Language, and Behavior

٥- الذات المنفتحة (١٩٤٨)

The Open Self

٦- تنويعات القيمة الإنسانية (١٩٥٦)

Varieties of Human Value

---

(11) Nagel, Ernest, Morris, Charles, in: The concise Encyclopedia, p. 218.

٧- المعنى والمغزى: دراسة في علاقات العلامات والقيم (١٩٤٦)
Signification and Significance: A Study of the Relations of Signs and Values

٨- المهرجان (١٩٦٦)

Festival

وقد اشترك موريس مع تشارلز بيرس وآخرين في وضع أسس ودراسات موسعة خاصة بمبحث الإشارة «السيميوطيقا Semiotic» وتقسيمها إلى إشارات لغوية وغير لغوية تنقسم إلى علامات وهذه بدورها تنقسم إلى غيرها مما ساعد على ظهور علم السيمنطيقا (علم المعاني Semantics).

ويقول الدكتور عادل فاخوري عن إسهامات تشارلز موريس:

«مع ظهور كتيب تشارلز موريس Ch. W. Morris «أسس نظرية العلامات» Foundations of the theory of Signs (١٩٣٨) تلقت السيمياء، دفعاً جديداً نحو التوسع والترسخ، أمام تعدد المقاربات السيميائية، أراد المؤلف أن يقيم بنية نظرية بسيطة تجمع بين هذه المقاربات، وتوحّد ليس بين العلوم الإنسانية فحسب، بل بين كل العلوم. وقد اعتمد ذلك على منهج يوفق بين المذهب الذرائعي الأمريكي والتجريبية المنطقية الألمانية في كتابه «العلامات واللغة والسلوك Signs, Language and Behavior الصادر سنة ١٩٤٦، يحاول المؤلف تفصيل المفاهيم السابقة والتدقيق فيها، متوسلاً نظريات سلوكية أكثر منهجية وتطوراً، تتيح له أن يتلافى الإشكالات الناجمة عن التفسير السلوكي الساذج، وأخيراً في كتاب «المعنى والمغزى» (١٩٤٦) Signification and Significance، انطلاقاً من مفهوم العلامة، يتطرق موريس إلى البحث في موضوعات مستجدة في الفلسفة وعلوم اللسان والقيم والجمال ... إلخ.[١٢]

---

(١٢) د. عادل فاخوري، «تيارات في السيمياء»، دار الطليعة، بيروت، نوفمبر ١٩٩٠، ص٧٠.

والكتاب بين أيدينا الآن صدر عام ١٩٧٠ لتشارلز موريس بعنوان «الحركة البرجماتية في الفلسفة الأمريكية The Pragmatic Movement in the American Philosophy» عن دار نشر «چورچ بر ازيلر George Braziller» بنيويورك، وقد رأينا أن عنوان «روّاد الفلسفة البرجماتية» يتلاءم أكثر مع مفاهيم الثقافة العربية التي تختلف قطعاً عن مفاهيم الثقافة الأمريكية، فضلا عن أن موضوعات الكتاب نفسه التي تقف في صف هذا الاختيار، كما يتفق معي تشارلز موريس نفسه في ذلك على الرغم من أننا لم نلتق إلا عبر كتبه ومؤلفاته فكانت لقاءات مفيدة. كيف ؟ الإجابة يجدها القاريء العربي الكريم في مقدمة الكتاب التي صاغها موريس بوضوح حيث يقول في بعض منها: «يتناول هذا الكتاب الأفكار الرئيسة لأربعة فلاسفة أمريكيين هم : تشارلز ساندرز بيرس، ووليم جيمس، وجون ديوي، وچورچ هربرت ميد ...».

ويحتوي الكتاب على ستة فصول فضلا عن الملاحق.

يتناول الفصل الأول موضوع «الحاجة إلى الفلسفة وملامح الفلسفة الأمريكية». بينما يتناول الفصل الثاني «نظرية العلامات البرجماتية» بادئاً بمشكلة تعريف البرجماتية ونظرية العلامات عند بيرس والقضية البرجماتية بين بيرس وجيمس، واتجاه چورچ ميد نحو دراسة اللغة والسلوك الاجتماعي من منظور فلسفة علم النفس الاجتماعي.

أما الفصل الثالث فيركز فيه موريس على «علم المناهج البرجماتي» خاصة لدى بيرس وجيمس وديوي ثم تصور ميد لموضوع علم المناهج البرجماتي.

وينتقل موريس إلى الفصل الرابع فيتحدث عن «علم القيم البرجماتي» ومكانتها في الفلسفة الأمريكية، مع تركيزه على علم الأخلاق عند ديوي وعلاقته بالنظرية السياسية الأمريكية، وعلاقة القيم بالدين.

وأما الفصل الخامس فيتناول فيه موريس «وجهات نظر الفلاسفة

البرجماتيين» ومدرسة شيكاجو الفلسفية. أما الجزء الثاني فيعرض لبعض أعضاء مدرسة شيكاجو الفلسفية المؤسسين وهم: أديسون مور، وچيمس تافتس، وإدوارد آمز، وچورج ميد.

وتتمثل أهمية هذا الكتاب في أنه يقدم لنا شروحاً وتفسيرات عميقة للفلسفة الأمريكية، يزيد من أهميتها وعمقها آن من يقدمها فيلسوف أمريكي، وأستاذ للفلسفة في الجامعات الأمريكية، تتلمذ على أيدي كبار مؤسسي الفلسفة الأمريكية بحق، فقد كان تلميذاً مباشراً لبيرس وچيمس وديوي وميد، فضلاً عن صداقته وزمالته لهم ولأعضاء مدرسة شيكاغو الفلسفية مما يثري العمل الذي قام به موريس، كما أنه اعتمد اعتماداً مباشراً على أعمالهم ولم يعتمد كثيراً على كتب النقاد الآخرين مما يجعله ينقل وجهات نظرهم لا وجهة نظره هو ذاته، الأمر الذي يختلط معه وجهات النظر المختلفة، وتضيع فيها معالم أصالة المؤلف وجهده الذي يشكر عليه. بالإضافة إلى إسهاماته الرائعة في مجال فلسفة اللغة والدراسات المنطقية اللغوية التي أرسى دعائمها بيرس وتقدم بها موريس خطوات ذات قيمة، أتمنى أن أعرضها مفصلة على القاريء العربي في وقت قريب.

وأرجو أن ينال هذا الكتاب عناية القاريء وأن يساعده على التعمق في الفلسفة البرجماتية وفهم أبعادها وموضوعاتها اللصيقة بها، وأن يكون كذلك أداة مساعدة تمد يد العون إلى الباحثين حتى يستفيدوا منه ويتعمقوا أفكاره ويحاولون تقديمها إلى القاريء العربي بوعي وتفتح، حتى يأخذ خير ما فيها، وينبذ أسوأ ما فيها، مما يمكنه من مشاركة العالم في مد شريان الحضارة الإنسانية الذي لا ينضب له معين بعصارة عربية خالصة، طالما مدت هذا الشريان في الماضي بأسباب التقدم والرقيّ ولولا ما قدمه العرب المسلمون من إسهامات عظيمة مبتكرة ما تقدمت الحضارة الغربية كل هذا التقدم، إنها بضاعتنا ترد إلينا، وياليت الفضل يعود إلى أهله حتى يكون العلماء والأدباء والفلاسفة

بحق هم حملة مشاعل التنوير القائمة على الحق والعدل والصدق والأمانة العلمية والأخلاقية.

وكفانا الله العظيم رب العرش العظيم شر سموم العلمانية وأتباعها المغرضين، وشر أشواك مدعيّ العلم والثقافة الآكلين على كل الموائد، وهم كثير، يتزاحمون في الساحة كأنهم جراد منتشر، ما يلبث غير ساعة حتى يزول ويندثر، ويرحل بشره وأشراره، ولا يصح بعد ذلك إلا الصحيح، أما الزبد فيذهب هباء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض حلالاً طيباً، يؤت أكله حين بإذن الله.

وأشكر الله على ما أعطى وما منه شكراً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ... وأحمده حمداً طيباً مباركاً دائماً بعدد خلقه، ورضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وواسع رحمته ... إنه على كل شيء قدير وإليه المصير.

والله الموفق وهو وراء القصد ينير لنا السبيل.

الدكتور/ إبراهيم مصطفى إبراهيم

الإسكندرية في: ٣ من رمضان ١٤٣٠هـ.

الموافق: ٢٤ أغسطس ٢٠٠٩م.

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب الأفكار الرئيسة لأربعة فلاسفة أمريكيين هم: تشارلز ساندرز بيرس، ووليم چيمس، وچون ديوي، وچورج هربرت ميد، وقد وضع الكتاب على أساس الاعتماد المباشر على كتاباتهم، التي أخذت منها مقتبسات شاملة، تركزت في هذا الكتاب على أفكارهم وعلاقاتهم المتداخلة لهذا السبب فالكتاب لا يتناول بداية تاريخ الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس تفسيراً لعلاقة البرجماتية بالثقافة الأمريكية، كما أنه ليس خلاصة وافية لبحث يتناول هذه الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس تفسيراً لعلاقة البرجماتية بالثقافة الأمريكية، كما أنه ليس خلاصة وافية لبحث يتناول هذه الفلسفة، وقد تدخل كل هذه الموضوعات في المناقشة، ولكن بطريقة عرضية.

إذاً فإنني أكرر أن لُب هذه الدراسة يركز على أفكار بيرس، وچيمس وميد، وديوي: ما الأفكار الأساسية لهؤلاء الرجال؟ وما أوجه الشبه فيما بينهم؟ وما المصدر الذي يكشف عن التنظيم الذي خلفه؟

إن هذا الكتاب محاولة جادة لتناول مثل هذه الموضوعات تناولا نقدياً، ولهذا يحتاج القاريء التمعن في قراءة الموضوع نفسه. ونحب أن ينظر لهذا الكتاب كعمل يتم في إطار الفلسفة البرجماتية الأمريكية، وليس مجرد كتاباً عنها.

وقد تعاون معي في هذا البحث مساعدين في بداية حياتهم (العملية) ساعدوني بطريقة أو بأخرى لكي أجمع محتويات هذا الكتاب وهم: الدكتور فرد برجر Fred R. Berger، والدكتور دنيس أودونوفان Denis O'Donovan، ودانيال هاملتون Danial Hamilton، ووايн شيربرون B. Wayne Shirbroun، وفرنك سياديني Frank Sciandini، وچان سوچالسكي Jan

Sugalski وكريستوفر ستورر Christopher Storer، وإيڤان جوب Evan Jobe، والدكتور فيليس ميك Phyllis Meek، وتايسون ريتش Tyson Ritch، وديان هاون Dian Haun.

وإنني مدين لهم جميعاً بالعرفان الجميل على ما قاموا به من إسهامات. كما ساعدني سيدني بوديت Sydney Beaudet في الطباعة النهائية، وجهَّز ديان هاون فهرست الكتاب، فضلا عن ديني أيضاً لزميلي البروفيسور چورج بارلت George R. Barlett لتعليقاته النقدية على مسوداتي المبكرة.

تشارلز موريس

الفصل الأول

الحاجة إلى الفلسفة البرجماتية الأمريكية



الفصل الأول

الحاجة إلى الفلسفة البرجماتية الأمريكية

١ - الحاجة إلى الفلسفة

كتب «ولاس ستيڤنس Wallace Stevens» إن القصيدة هي صرخة الداعي (الحاجة) إلى كتابتها. ومن العدل أن نعبرّ عن موقف البرجماتيين بنفس الطريقة: «فالفلسفة هي صوت الداعي إليها أو الحاجة إليها». إنها بحث أشخاص معينين موجه نحو، حل مشكلات معينة لديهم تحت ظروف اجتماعية وشخصية بذاتها. ولا أعتقد أن چيمس سيختلف معي في شأن هذه العبارة، بل إن چون ديوي قال بأكثر منها «ولكن دون التأكيد على العامل الشخصي بعينه»:

«إن عمل الفلسفة قديماً وحديثاً هو تناول تنظيم تلك المجموعة من التقاليد التي تشكل العقل الفعلي للإنسان نحو الاتجاهات العلمية» «والتطلعات السياسية التي تعد غريبة ومتعارضة مع تلك التي تقول بها السلطات؛ والفلاسفة جزء من حركة التاريخ»، «ويشتركون في صنع مستقبله بمعنى ما، ولكنهم بالتأكيد يعبّرون «عن ماضية»[1].

وأعترف أن اعتبار الفلسفة صوت الداعي (الحاجة) إليها يعتبر جزءاً القصة فقط، فهناك أشخاص مختلفون في أوقات مختلفة لهم مشكلات

---

(١) چون ديوي، «الفلسفة والحضارة»، ص ص ٣-٤.

متشابهة إلى حد ما وبسبب هذا تستطيع الفلسفة أن تثبت أنها وثيقة الصلة بموضوعها بصرف النظر عن الداعي إليها تماماً مثل أية قصيدة أو نتيجة لتجربة علمية. وأبعد من ذلك فهناك تساؤلات مهمة يمكن أن تثار حول الفلسفة ولا تتضمن أية إشارة إلى اعتبارات اجتماعية أو شخصية أدت إلى نشأتها، ولكن إذا منحناها هذه الصفات فإنها تظل حقيقة أن أحد إيضاحات الفلسفة هو أن نسأل ما المشكلات التي تحاول حلها ولأي من الناس وتحت أي اعتبارات؟

وهناك معنى ثانٍ ووثيق الصلة بالموضوع - وأعتقد أنه شائع بالنسبة لجميع البرجماتيين الأمريكيين - وهو وجهة النظر التي ترى أن كل مشكلة (سواء كانت فلسفية أم غير فلسفية) هي مشكلة محددة وتحدث في وقت لا تشير الملامح الحالية إلى وجودها. فليس كل شيء يمكن أن يكون مشكلة للوهلة الأولى، فالإشكاليات يمكن حلها فقط داخل إطار ما تحتويه من المعاني والمعتقدات المقبولة دون تساؤل، فما نعده إشكالية في موقف، قد لا يصبح مشكل في موقف آخر، ولكن هذا النسيج الجديد سيحتوي بدوره على جزء من الإشكالية السابقة.

وأعتقد أن كلا الموقفين مطلوب وهذا ما نجده في النظرية البرجماتية للبحث، وهو موضوع آخر سيتم معالجته بالتفصيل. وقد ذكرتهما هنا فقط لارتباطهما بفهم الفلسفة البرجماتية ذاتها. وإذا كان البرجماتيون قد طبقوا هذه الموضوعات في التحليلات الفلسفية التي قدموها فإنه من العدل والمناسب تطبيقه على فلسفتهم ذاتها.

٢ - أربعة ملامح لإشكالية البرجماتيين

يُعتقد أن هناك أربعة ملامح لإشكالية البرجماتيين في تاريخ الفلسفة الذي تعد البرجماتية إحدى فلسفاته، وأن قبول البرجماتيين لها يساعد على تفسير الوحدة في الحركة البرجماتية، وفي نفس الوقت تتجلى بعض هذه الملامح

لدى بعض البرجماتيين دون غيرهم، وهذه الحقيقة تتعلق بإشكاليات خاصة لدى البرجماتيين كأفراد تساعد على حصر مثل هذه الفروق كما هي واقعة في الحركة البرجماتية. وبهذه الطريقة فإن كلاً من الوحدة والتنوع داخل إطار الحركة البرجماتية الأمريكية يمكن أن تجعلها مفهومة من الناحية التاريخية، فهي كالأمة الأمريكية ترفع شعار: الوحدة في الكثرة e pluribus unum وهذه الملامح الأربعة كما تبدو في تطور الفلسفة البرجماتية هي كالآتي:

أ - المكانة التي تمتع بها العلم والمنهج العلمي في منتصف القرن التاسع عشر.

ب- قوة تطابق النزعة التجريبية في الفلسفة المعاصرة مع الواقع.

جـ- قبول نظرية التطور البيولوجي.

د - قبول مُثل الديموقراطية الأمريكية.

قبل البرجماتيون هذه العناصر الأربعة الأساسية والتي أصبحت تشكل نسيج «الإشكالية» تلك التي أبرزتها المشكلات الفلسفية للبرجماتية الأمريكية وشكلت إطار العمل الذي تناولته مصطلحاتهم والحلول المقترحة لها والتي على أساسها يتم الحكم عليها. لقد تكوّن هذا النسيج من تلك الملامح الأربعة معاً بحيث يمكن أن تميز اتجاه تطورها الفلسفي. وقد أثرت هذه العناصر الأربعة على معظم البرجماتيين ولكن بدرجات متفاوته، فكان تأثير المنهج العلمي أكثر وضوحاً عند تشارلز بيرس، بينما كان تأثير النزعة التجريبية الفلسفية أقوى لدى وليم چيمس، وكانت المواجهة حادة مع البيولوجيا التطورية لدى چورج ميد، وترك مثال الديموقراطية الأمريكية بأوجهه المختلفة سيطرته على چون ديوي.

وتركت الانتصارات التي حققها المنهج العلمي في القرن التاسع عشر بدرجة كبيرة تأثيرها، كما قويت النظرية النيوتونية في الطبيعة بما حققه علميّ

الچيولوچيا والفلك من إنجازات، مما أعطى للمنهج العلمي مكانة عظيمة لما أحرزه من نتائج. وكان تشارلز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) مؤسس البرجماتية، قد تمرس ككيميائي قضى معظم حياته كعالم مجتهد، ومحترم، وناجح[٢]. ومما لا يبعث علي الدهشة أن بيرس في بحثه «تثبيت الاعتقاد The Fixation of Belief» بعد أن طوّف بمعظم المناهج التي تكوّن اعتقادات الإنسان، اعتبر أن المنهج العلمي هو المنهج الأسمي، وليس بمستغرب أنه رغب في تطبيق هذا المنهج على الفلسفة ذاتها، وكما سنرى فإن الصيغة التي قال بها وهي «القضية البرجماتية Pragmatic maxim» هي محاولة من جانبه لإرساء أساس «الفلسفة العلمية»(*) Scientific Philosophy، على أساس القضية التي طورها وليم چيمس وأطلق عليها تعبير «البرجماتية». وكان التقدير الكبير الذي ناله المنهج العلمي جزءاً من نسيج الإشكالية الفلسفية لدى معظم البرجماتيين الأمريكيين.

وبينما كان العلم يتمتع بمكانة سامية في ذلك الوقت، كان الاعتقاد القديم بأن الفلسفة لها مكانتها العليا بل ربما مكانة أعلى قد بدأ يضمحل. وأصبح الإنسان «بالعقل الخالص» وحده قادراً على وصف الطبيعة المطلقة للكون

---

(٢) كتب بيرس عن العلم في عصره، مايأتي:

صدر «أصل الأنواع» في نهاية ١٨٥٩، وقد كانت السنوات السابقة عليه منذ عام ١٨٤٦ من أكثر السنوات خصوبة، وقد امتدت حتى شملت تاريخ صدور هذا الكتاب الكبير، فإننا نعتقد أن أكثر الأزمنة خصوبة تشمل تاريخ العلم كله منذ بداياته الأولى وحتى العصر الحالي». (المجموعة الكاملة، المجلد السادس، الفقر ٩٧).

واستمر بيرس يعدد الإنجازات العلمية لتلك الفترة الخصبة.

(*) مصطلح يراد به رد الدراسات الفلسفية للعلوم إلى تحليل لغتها بوسائل المنطق الرياضي ويرد أصحابه المفاهيم والأحكام العلمية إلى خطوات المنهج العلمي، إذاً فهو مصطلح يختص باستخدام المنهج العلمي ومحاولة تطبيقه على الدراسات الفلسفية (المترجم).

والتي وضعت في صورة تساؤلات في أعمال كل من ديفيد هيوم وإيمانويل كنط. وكان من نتيجة تحليلاتهم أن قويت مكانة النزعة الأمبريقية (التجريبية) في الفلسفة، وأنه يجب زعزعة كل النظريات التي يستدل بها على العالم وإخضاعها «للخبرة» التي يمكن «ملاحظتها» فالمنهج العلمي نفسه منهجاً تجريبياً بمعنى أنه في الوقت الذي يسمح فيه بقدر كبير من الشجاعة في تكوين النظريات، فإن هذه النظريات يجب التحقق منها عن طريق المعطيات التي تم اختبارها، وبهذا المعنى فإن كل البرجماتيين كانوا تجريبيين. ومع ذلك فقد كان وليم چيمس (١٨٤٢-١٩١٠) هو الذي أكّد بشدة على مقولة الخبرة، مقترحاً منهج «التجريبية الأصيلة The Radical Empiricism» (*)، وتصور الواقع على أساس أنه «عالم الخبرة الخالصة»؛ وهذا التأكيد يتفق تماماً مع الحقيقة المعروفة بأن چيمس تدرب فترة كبيولوچي ثم أصبح سيكولوچياً، وتطورت المكونات النظرية بدرجة أقل مما تطورت بها العلوم الفيزيقية، كما يتفق هذا مع تعاطفه القوي مع روّاد الفلسفة السابقين عليه وهما التجريبيان الإنجليزيان ديڤيد هيوم وچون ستيوارت مل(**)، ومع ذلك فقد كانت تجريبية چيمس تزداد توجهاً نحو البيولوچيا (Biology) أكثر من توجهه المتزايد نحو نصوص الفلسفة الإنجليزية التقليدية، وبدأ يشعر بتأثير داروِن على الفلسفة.

وكان قبول البيولوچيا التطورية هو المؤثر الثالث بين المؤثرات التي واكبت

(*) يفضل البعض ترجمتها باسم «التجريبية المتطرفة» لاختلافها عن «التجريبية الإنجليزية» المعروفة؛ ولكن التطرف ليس سمة للاتجاه التجريبي. (المترجم)

(**) چون ستيوارت مل (١٨٠٦-١٨٧٣) John Stewart Mill فيلسوف ومنطقي واقتصادي إنجليزي، من المعتقدين في المذهب الحسيّ، ومن ممثلي الوضعية، أهم مؤلفاته: «المنطق القياسي والاستقرائي» (١٨٤٣) و«مباديء الاقتصاد السياسي» (١٨٤٨) و«أوجست كونت والفلسفة الواقعية» (١٨٦٥) وغيرها ... (المترجم)

ظهور الفسفة البرجماتية الأمريكية، فقد قبل كل البرجماتيين الكبار النظرية القائلة بأن الإنسان انحدر -كنوع- من الكائنات الحية (الأقل) خلال عملية تطورية طويلة، وكانت البرجماتية -بلاشك- فلسفة ما بعد الدارونية، وكانت النزعة التجريبية التي اتسمت بها هذه الفلسفة نزعة تجريبية بيولوجية، حتى «الخبرة» ذاتها جاءت متطورة على اعتبار أنها متضمنة في عالم الكائن الحيّ، ومع ذلك نشأ عن قبول البيولوجيا التطورية، مشكلة فلسفية مهمة وهي: كيف نفسر العقل الإنساني والمعرفة الإنسانية والذات الإنسانية والأخلاق الإنسانية في ضوء الموقف التطوري؟ وكان هذا التساؤل ذو أهمية أساسية بالنسبة للبرجماتيين، وصدرت معظم المعالجات التي تناولت هذه المسائل عن هربرت ميد (١٨٦٣-١٩٣١)، بما شكّل أحد الإنجازات المهمة للحركة البرجماتية.

وتطلبت منهم صيغ هذه النظريات حول العقل الإنساني والذات الإنسانية تقديم العامل الرابع المكوّن للحركة البرجماتية «الديموقراطية الأمريكية». وباعتبارهم أعضاء في ثقافة وليدة تحاول أن تبني نفسها في بيئة سخية ومتمردة، فقد شعر هؤلاء الرّواد الأمريكيون أنهم الأشخاص الذي يقع عليهم عبء الفكر والعمل، وأنه يجب عليهم أن يقيموا لأنفسهم مجتمعاً جديداً ومقبولاً، وكانوا هم، أو أسلافهم يعيشون في مجتمع أوروبيّ ذو تقاليد يهودية / نصرانية Judeo - Christian وهذا المجتمع يركز بصفة أساسية على الأشخاص، واستمر تفكيرهم حول المجتمع الجديد يردد نفس النغمة الأخلاقية والنظرية المثالية.

وكنتيجة لهذا الفكر، فإذا كان التطور البيولوجي قد قبلوه، فإن هؤلاء المفكرون الأمريكيون يفضلون التفسير التطوريّ للإنسان الذي يجيء متسقاً مع الحرية الإنسانية والمسؤولية الأخلاقية، وكان تناول ميد للعقل والذات

الإنسانية من هذا النوع، وهو يتفق بصورة بارزة مع التفسير الأخلاقي كتفسير مختلف عن التفسير السياسي والاقتصادي الخالصين الذي أعطاه چون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢) للديموقراطية الأمريكية. وكتب ميد(*): «إن چون ديوي هو فيلسوف أمريكا بالمعنى العميق لهذه الكلمة»(٣)، ويمكن تطبيق هذا الوصف على ديوي إذا أخذنا في اعتبارنا النظرة الأخلاقية عند محاولتها التعبير أو تكييف كل وجهات النظر التي وردت في تاريخ الولايات المتحدة بعيداً عن تفسير ديوي.

هذه العناصر الأربعة على تعددها، إذا أخذناها معاً، فإنها تعطي البرجماتية الأمريكية هذه المكانة والروح (الأسلوب) المتميزة، وهي ما يميزها عن الفلسفات الأخرى التي ظهرت فيما بعد الدارونية.(٤)

(*) چورچ هربرت ميد (١٨٦٣-١٩٣١) فيلسوف وعالم نفس اجتماعي أمريكي معاصر، من أعضاء جماعة مدرسة شيكاغو المؤثرين، ومن أهم أعماله في «علم النفس الاجتماعي» و«مشكلة الوعي» و«فلسفة الفعل» و«فلسفة الحاضر».

(٣) چورچ هربت ميد، «فلسفات رويس، وجيمس، وديوي في إطارها الأمريكي، ص٢٣١.

(٤) نلاحظ أن هذه العناصر الأربعة، غير المشكوك فيها؛ لم تطور فقط الإطار الذي حوى الفلسفة البرجماتية الأمريكية، ولكن يمكن أن يقال إن تفاعلها معاً ساعد على إيجاد بعض الترجيحات التي حسبت لها، لذلك نجد في الفلسفة البرجماتية بعض النصوص عن الفلسفسة التجريبية (مثل الفينومينولوچيا) جنباً إلى جنب مع نصوص أخرى عن النزعة الطبيعية Naturalism وكليهما متضمن في قبولهم للبيولوچيا التطورية (علم الأحياء التطوريّ). وقد وجد أ ن بعض تفسيرات دارون تتحداهم أن يقبلوا ما أسموه «المثل الديموقراطية Democratic ideals»، إلا أنها تصدق أيضاً عندما ننظر في تفسيرات العلم التي تؤكد بقوة على مبدأ الحتمية Determinism. ولكن يوجد -بوجه عام- بعض الترجيحات بين هذه العناصر الأربعة، ويعود السبب في ذلك الترجيح بين أهمية العلم والتأكيد على الأشخاص ذاتهم. ومن هنا فالفلسفة التي تقبل جميع الاتجاهات (العناصر) الأربعة سوف تفسر كل منها بحيث يجيء التفسير منسجماً فيما بينها، والطريقة التي تمت بها هذه التفسيرات تمثل جزءاً مهماً من قصة الفلسفة البرجماتية.

٣- البرجماتية، والفلسفة العملية، والفعل

لن نهتم هنا بتقديم تعريف لمصطلح «البرجماتية» ولكننا سنهتم فقط ببعض الاعتبارات الأولية، كتب بيرس أنه استخدم مصطلح البرجماتية بتأثير كتاب كنط «نقد العقل الخالص» مجموعة الأبحاث، المجلد الخامس، الفقرة (٣)، وقد استخدمه كنط لكي يعبِّر به عن علاقة تحديد بعض الأهداف الإنسانية بعضها بالبعض الآخر.

واستمر بيرس يقول:

«والآن فإن العنصر اللافت للنظر أكثر بالنسبة للنظرية الجديدة هو تعريفها للعلاقة المتصلة بين المعرفة العقلية والهدف العقلي، وبهذا الاعتبار فإنه يحدد أفضلية اسم البرجماتية».

(مجموعة الأبحاث، المجلد الخامس، الفقرة ٤١٢).

وقد فضل بيرس مصطلح «البرجماتية» على مصطلح «المذهب العملي» Practicalism منذ أن أدرك أن مجال البحث «العملي» Practical هو مجال للفكر حيث لا يوجد عقل من النوع التجريبي (مثل عقل بيرس) يمكنه أن يتأكد من صلابة الأرض تحت قدميه (المجلد الخامس الفقر ٤١٢)، لذلك فإن البرجماتية بالنسبة لبيرس لا تتعلق بما هو «عملي» ولا مع كل ما يتصل بالعمل أو الممارسة Practice، ولكنه يتصل بالطريقة التي للمعرفة (المعرفة العقلية) علاقة بالعمل (الفعل) أو السلوك الإنساني (الغرض العقلي) Rational Purpose، هذا التمايز بين البرجماتية والنزعة العملية الذي أصر عليه بيرس «متبعاً في ذلك خطى كنط» هو بالطبع ليس من النوع الذي نراه اليوم في الكتابات السياسية الذي يخلط بين البرجماتية وبين النزعة العملية. ومن المثير أن نعرف أن مصطلح «البرجماتية»، استخدمه البرجماتيون بدرجة أقل كثيراً في كتاباتهم، حتى وليم چيمس اعتقد أن هذا المصطلح سيء الحظ فكتب يقول:

«عليّ أن أعترف أن مصطلح «البرجماتية» بكل ما يقترحه من أفعال كان اختياراً سيئاً، وقد تناوله النقاد كما لو كان استخدامه محصوراً بين المهندسين والأطباء ورجال المال، ورجال الأعمال بصفة عامة هم الذين يحتاجون إلى بعض أنواع الصيغ الجاهزة والأولية، ولكنهم لا يملكون الوقت لدراسة الفلسفة الأصيلة. وعادة ما يوصف مصطلح البرجماتية بأنه حركة أمريكية متميزة، نوع من المشروع العقلي (الفكري) الناقص، فهو يناسب بدرجة ممتازة رجل الشارع، الذي يكره - بطبيعة الحال - النظرية ويريد العائد الفوري مباشرة.[٥]

إن العمل الإنساني لدى البرجماتيين هو بالتأكيد موضوع اهتمام رئيس وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الاهتمام لا يتركز على «حركة» أو «نشاط» على سبيل المثال، كما أنه لا يتعلق بأية تأثيرات للأفكار على الحياة الإنسانية، فضلاً عن عدم تعلقه بأية نظرية كاملة عن الطبيعة الإنسانية، إنه يتركز بصفة مبدئية (ولكنه ليس شاملاً) على جانب واحد من السلوك الإنساني. العمل الذكي، العمل الهادف أو السلوك الذي يبحث عن هدف ما متأثراً بالفكر. وغالباً ما كان بيرس يسمي هذه الفكرة «التصرف الذي يتم التحكم فيه بطريقة ذاتية» Self-Controlled Conduct، أو السلوك (التصرف)[*] المحكوم بتداوله

---

(٥) وليم جيمس «معنى الصدق» ص ص ١٧٦-١٧٧.

(*) يأتي السلوك بمعنى Behavior بعدة معان:

١- فهو طريقة التصرف أو العمل (أي كيفية السلوك) كأن يقول إن سلوكه كان مستهجناً.

٢- التصرف أو السلوك Manner الذي يسلكه الشيء تحت ظروف معينة، مثل تصرف الفحم إذا وقع عليه ضغط.

٣- وفي علم النفس الأفعال أو الاستجابات التي تصدر عن الكائن الحيّ.

٤- ويأتي بمعنى الطريقة التي يعبر بها الإنسان والحيوان عن شخصياتهم أو نشأتهم، فالإنسان هو الذي يعتذر عن سلوكه السيء.

#

بتداوله تداولا مناسباً Controlled by adequate deliberation (المجلد الثامن الفقرة ٣٢٢). وكتب بيرس أن نظريته (التي أسماها في نهاية الأمر باسم البرجماطيقية Pragmaticism، تمت على أساس دراسة مؤداها أن خبرة ظواهر ضبط النفس Self-Control المعروفة لدى جميع البالغين رجالا ونساءً، والتي تبدو واضحة لفترة ما، هي -على الأقل- موضوعة على أساس دقيق؛ لأنها بالنسبة لتصورات السلوك الحر تحدد الخلاصة الذهنية (العقلية) للرموز Symbols ويعني تحرر التصرف (أو السلوك Conduct) أن يتم التحكم في التصرف عن طريق ضبط النفس (المجلد الخامس الفقرة ٤٤٢).(٦)

٥- وهو التصرف المتأثر بنظم معينة أو طبقاً لواجبات أو التزامات ما، مثل تصرف الجندي في موقف بعينه أثناء الحرب.

٦- وعلم السلوك Behaviorism هو نسق علم النفس الذي يركز على السلوك الخارجيّ الملاحظ أكثر من تركيزه على النشاط الذهني أو العقلي، كمصدر صالح للمعلومات العلمية (Macmillan Dictionary, New York, p. 88).

كما يأتي السلوك بمعنى التصرف Conduct وهو:

١- طريقة التصرف أو العمل، السلوك الشخصيّ مثل أن نقول بأن سلوك التلميذ في الحفلة المدرسية كان رائعاً.

٢- تنظيم أو إدارة خاصة في مجال الأعمال.

٣- عملية القيادة أو الإرشاد.

(المصدر السابق، ص٢٠٩/ المترجم).

(٦) لمعرفة وجهة نظر بيرس في موضوع «ضبط النفس Self-Control انظر:

المجلد الخامس الفقرتان ٥٣٣-٥٣٤ وأيضاً المجلد الثامن الفقرة ٣٢٠. فقد مايز فيها بين عدد من مراحل ضبط النفس، فالإنسان لديه خمس أو ست مراحل على الأقل بينما البهائم لديها عدداً أقل منها. وقد ناقش لاري هولمز Larry Holmes هذه الفكرة بالتفصيل في مقال له بعنوان «بيرس وضبط النفس Peirce on Self-Control».

وهكذا فإن الإنسان المفكر، الإنسان الذي يتصرف بذكاء، هو محور اهتمام البرجماتيين، وهذا التأكيد يتسق بوضوح مع التطور التاريخي للبرجماتية، وقد رحّب المنهج العلمي بمثل هذا النشاط، لذلك نال النشاط الذكي الاهتمام عن طريق جمع المعلومات بالملاحظة، كما أن التوجه التطوريّ يفضل النظر إلى الذكاء في علاقته بمشكلات الفعل (العمل) في البيئة، وتعاطفت أمريكا التي تتطور بسرعة مع النظرية التي نظرت إلى الإنسان الذي يوجه مستقبله باستخدام الذكاء.

وكان إلقاء الضوء على هذا الاهتمام الرئيس حول سلوك الإنسان الذكيّ هو الغرض الذي كشف عن صفات أخرى كثيرة للحركة البرجماتية، فقد جعلت الأمر مفهوماً بالنسبة للسبب الذي من أجله أكدت نظرية العلامات على نوع العلامات التي تحدث في البحث الذهني. وساعدت على تفسير السبب الذي من أجله لا يجد المرء اهتماماً واضحاً بالعوامل (العناصر) غير العقلية وحتى بالعناصر المضادة للعقل في السلوك الإنساني، والتي امتدت بمثل هذه العوائق الاجتماعية والشخصية إلى السلوك المتسم بالعقل. بل إنها أوضحت بعض تقديرات البرجماتيين لنزوعها نحو رصد جائزة كبرى لكل شخص أنموذجيّ يعد رائداً Pioneer أو بروميثيوس Promethean مفضلاً في الثقافة (الحضارة) الأمريكية الناهضة مما قد يؤدي إلى إهمال وعدم تقرير نماذج الأشخاص الأخرى وتوجهاتها التقويمية.

وعلى الرغم من ذلك فلا توجد فلسفة يمكنها أن تؤدي كل شيء، كما أننا لا نستطيع أن نتوقع نظرية كاملة عن الطبيعة البشرية تأتي من الفلسفة وحدها. فالسلوك الموجه نحو غرض ما إذا لم يكن هو السلوك الإنساني الكلي، فإنه على الأقل جزء مهم ومتميز منه، والفلسفة البرجماتية فلسفة فريدة بين الفلسفات الحديثة التي جعلت مثل هذا السلوك محور تحليلها وبنائها.

٤- المعنى الذي تعد به البرجماتية فلسفة .

الإنسان كفاعل متسم بالذكاء هو في مقدمة اهتمام البرجماتيين، ولكن هذا الفاعل كإنسان -وكجزء من نشاطه- أصبح محتاجاً في بعض الأوقات إلى أن يفهم نفسه فهماً شاملاً، ويفهم العالم الذي يعمل فيه وكان عمل البرجماتيين والفلاسفة محاولة لتحقيق هذا الفهم.

ويتضمن قولنا هذا - على الأقل من أجل بيان الأهداف- اختيار تصور خاص للفلسفة، واحتياجنا لهذا التصور، حتى لو كانت الفلسفة تعبير عن هذه الحاجة لا يختلف في حد ذاته عن غيرها من الحاجات.

وبعد التساؤلات التي وضعها كل من هيوم وكنط حول ما إذا كانت الفلسفة توجه المنهج «الميتافيزيقي» الذي نعرف به «الواقع» فإن طبيعة الفلسفة وهدفها أصبحا موضوع نزاع دائم. ولا يوجد اليوم إجابة شاملة مقبولة عن هذا السؤال، فبعض الأشخاص قبلوا وجهة النظر (النظرية) القديمة، وبعضهم حاول أن يعادل (يطابق) بين الفلسفة والمنطق، واعتبر بعضهم الفلسفة تحليلاً للعلم، بينما اعتقد البعض الآخر أن الفلسفة بحث فلسفي عام جداً، وحدد البعض مهمة الفلسفة في الوصف العام للظواهر، ورأى بعضهم في الفلسفة المفتاح لتحديد مدلولات اللغة اليومية عن طريق تحليل المعنى، ورأى البعض الأخير أن مصطلح «الفلسفة» لم يعد له معنى يمكن الدفاع عنه.

واختلف البرجماتيون حتى فيما بينهم في تحديد طبيعة الفلسفة ومجال عملها، ولكننا إذا نظرنا لإنتاجهم الفكري ككل نجد أنهم كتبوا في المنطق، وطبيعة المعرفة، وتفسير العلم، والفن، والأخلاق، والدين، وطبيعة الكون، لهذا فإنه من أهداف هذه الدراسة، أن نقرّب بين هذه المجالات الواسعة، ومن هنا وجب علينا أن نستخدم مفهوماً واسعاً للفلسفة إذا أردنا أن نعتبر الحركة البرجماتية «فلسفة».

وسوف نتبع تقليداً قديماً قدم الفلسفة الرواقية Stoics ذاتها يرى أن الفلسفة المتطورة تطوراً كاملا تحتوي على العديد من مناهج البحث (علم المناهج يشتمل على نظرية في العلامات)، ونظرية في طبيعة القيمة، مثل القيم الجمالية والأخلاقية (مبحث القيم axiology)، والإنسان والكون Cosmology.

وطبقاً لهذا التصور عن الفلسفة، فإن الفصول القادمة سيكون ترتيبها كالآتي: (الفصلين الأولين عن موضوع «مناهج البحث Methods of Inquiry» ويقع في جزئين: السيميائية البرجماتية Pragmatic Semiotic، وعلم المناهج البرجماتي Pragmatic Methodology، وفصل عن علم القيم البرجماتي Pragmatic Axiology، وفصل عن الكوزمولوچيا (علم الكون) البرجماتية Pragmatic Cosmology. أما الفصل الأخير فسيحتوي على بعض التعميمات عن الحركة البرجماتية وعلاقتها بالثقافة الأمريكية American Culture. وأضفت للعمل ذاته ملحقاً مكوناً من ثلاثة أجزاء هي: «چون ديوي معلماً» و«علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية» و«مدرسة شيكاغو الفلسفية».

الفصل الثاني

نظرية العلامات البرجماتية



الفصل الثاني

نظرية العلامات البرجماتية

١ - مشكلة تعريف البرجماتية

لم تقدم البرجماتية نفسها في الأصل على أنها فلسفة شاملة، ولكنها- ببساطة- قدمت نفسها باعتبارها منهجاً في كيفية جعل أفكارنا واضحة. وقد حاولت الفلسفات السابقة الإجابة عن هذا السؤال، والذي يُعد هو نفسه جزءاً من المشكلة كطبيعة «المعنى» إن البحث في طبيعة المعنى مشكلة قديمة ودائمة في الفلسفات التقليدية شرقاً وغرباً، ولكن التناول البرجماتي لها جعل لها خاصية تاريخية مميزة، وهو تناول فريد كأي شيء يتصف بالتفرد في الفلسفة، يتصف بأنه النظرية التي تقول إن هناك علاقة جوهرية بين المعنى Meaning وبين الفعل Action، وعلى سبيل المثال يمكن فهم طبيعة المعنى بالرجوع إلى الفعل فقط.[1]

فإذا سلمنا بأنه لا توجد معاني دون إشارات (علامات) (وهذا لا يُسلم به دائماً)، وإذا كان مصطلح «العلامة» أو السيمائية Semiotic مقبولا كاسم بالنسبة للدراسة العامة عن الإشارات Signs، فإنه سينتج عن وجهة النظر

---

(١) كتب سي. آي. لويس C.I. Lewis بحثاً عن المنطق لدى ديوي بعنوان«المعنى والفعل» Meaning and Action، عرض فيه وجهة نظره في العلاقة الجوهرية بين المعنى والفعل كعلاقة متميزة في منطق ديوي. وقد استخدم هـ. اس. ثاير H S. Thayer عبارة لويس هذه ووضعها كعنوان لأخدث كتبه وهو: «المعنى والفعل: التاريخ النقدي للبرجماتية».

Meaning and Action: A Critical History of Pragmatism.

وكان كتاب ثاير محاولة جيدة لتاريخ وتقويم الفلسفة البرجماتية ككل، سواء في جانبها الأوروبي، أو جانبها الأمريكي. وأنا أعتبره من أكثر الكتب الفريدة قيمة يضاف إلى الأعمال الموجودة حالياً، حتى أنني لم أكن أجد البراهين والأدلة الكافية في هذا المجال حتى ظهر كتاب ثاير عام ١٩٦٨.

القائلة بأنه توجد علاقة جوهرية بين المعنى والفعل (أو السلوك)، تطوير «العلاقة» ذاتها كنظرية فعلية أو سلوكية As an actional or behavioral theory.[٢] وتعتبر العلاقة السلوكية أساساً تقوم عليه البرجماتية، لهذا أخذت في الاعتبار -كفلسفة- أن تتناول الإشكاليات التقليدية في الفلسفة. وبهذه الطريقة فقد أصبحت البرجماتية أكثر تحديداً ودقة كمصطلح، أعني أن البرجماتية أصبحت فلسفة تقوم على أساس الدلالة (المعنى) السلوكية. ولم يصغ البرجماتيون الأوائل البرجماتية بالطبع على هذا النحو، الذي هو عليه الآن، كما أنهم لم يعملوا من أجل إخراج نظرية سلوكية للمعنى، ثم قاموا بتطوير نظرياتهم الفلسفية على هذا الأساس، فتشارلز بيرس كان يعتقد أن تطوره الفلسفي (وحتى تطور چيمس الفلسفي) لم يكن ليختلف في أساسه، إذا لم نسمع أبداً عن البرجماتية (المجلد الخامس، الفقرة ٤٦٦)، ولكنه

(٢) هناك بعض الإشكاليات في كيفية تحديد علاقة الألفاظ مثل «الفعل» و«السلوك» Behavior و«التصرف» Conduct. فلفظ «السلوك» Behavior الذي ينتشر الآن انتشاراً واسعاً ويستخدم على نطاق واسع (كما في عبارة العلوم السلوكية The behavioral Sciences، إلا أن هناك عدداً متزايداً من علماء النفس يعترضون على تطبيقه على الإنسان. وقد استخدم البرجماتيون الأوائل ألفاظ «الفعل» Action و«التصرف» Conduct أكثر من استخدامهم للفظ «السلوك» حيث يرون أن التمييز بين السلوك والفعل ليس مهماً، لذلك فسوف نستخدم هذان اللفظان في هذا الكتاب بالتبادل. ونحذر من أن استخدام لفظ السلوك لا يتضمن في ثناياه المدرسة السلوكية التي قال بها جون ب. واطسون John B. Watson. فلا يوجد فيلسوف واحد من فلاسفة البرجماتية يعتنق آراء المدرسة السلوكية بهذا المعنى المحدد (الضيق) الذي يقول به أتباع النزعة السلوكية. فالقول بالسلوكية أو الفعلية behavioral or actional يسبق من الناحية التاريخية النزعة السلوكية لدى واطسون، بل إنها ترتبط بأرسطو أكثر من ارتباطها بواطسون. وقد نشر ديوي بحثه المشهور «مفهوم المنحنى المنعكس في علم النفس» The reflex arc concept in Psychology عام ١٨٩٦ قبل ظهور المدرسة لاسلوكية الواطسونية، بل ويعد نقداً لما جاءت به النزعة السلوكية الواطسونية، كما عارضها أيضاً چورج هربرت ميد في كتابه «العقل والذات والمجتمع» Mind, Self and Society.

بالتأكيد نظر إلى البرجماتية باعتبارها تدعم أفكاره الفلسفية والتي طورها أساساً عندما صاغ البرجماتية من قبل.

ويصبح الموقف أكثر تعقيداً إذا علمنا الحقيقة وهي أن بيرس نفسه ليس لديه صيغة كلية واضحة عن طبيعة «المعنى» ولكن توجد لديه بالتأكيد «نواة» Hard core للنظرية المحددة تحديداً تاماً. ولكن -كما سنرى- فإن هذه النواة حظيت بإضافات وخواص أخرى نشأت عن عدم رضا بيرس ذاته بصيغته المبكرة (النواة). ولكنه ذكر حقيقة هذه الإضافات والخواص -نقول ذكرها- بإخلاص، وقال إنه توجد علاقة جوهرية بين المعنى والفعل، ولكنا نقول ربما كان جميع المشتغلين بالفلسفة من البرجماتيين لا يتفقوا مع بيرس في هذا. ولكنه ليس من السهل أن نعلق تعليقاً شاملا ومفصلا على مثل هذه العلاقة، فكل ما كتب فيها غاية في التعقيد، ولم يطوّر البرجماتيون نظرية العلامات التي يمكنها أن توجه السلوك. وإلى هذا الحد يظل مبهماً على نحو ما خاصة تناول البرجماتية لعلاقة المعنى بالفعل بل وحتى طبيعة البرجماتية ذاتها تظل مبهمة كذلك، ويمكن إيضاح الموقف إذا قمنا بتحليل بعض عبارات بيرس.

وعلى الرغم من هذا فإنه من المستحسن -كملاحظة مبدئية- أن نستخدم في هذا الكتاب مصطلح أو لفظ «المعنى» دون تردد، وسوف نستمر في أن نفعل هذا طالما أن البرجماتيين أنفسهم يفعلون ذلك، إلا أن تطور نظرية العلامات لم يحدث بوضوح إلا في السنوات العشر الأخيرة، لذلك يظل مصطلح «المعنى» غامضاً جداً وملتبساً مما لا يكون من الحكمة معه أن نستخدمه كمصطلح مبكر غير محدد عند شرح نظرية العلامات وقد غطى استخداماته المختلفة على الأقل موضوعات النية (القصد) Intention، والمدلول Signification والقيمة Value كما يبدو في هذه العبارات: «ماذا يعني بفعله هذا؟» و«ماذا يعني بكلمة متعادل القوة والتأثير Equipollent؟» و«هل الحياة بلا معنى؟»

وبدلا من استخدام الكلمة كجوهر ثابت في نظرية العلامات فإنه من الأجدر والضروري عند تطوير نظرية العلامات أن نحلل لفظ «المعنى» وسوف نستخدم خلال هذا الفصل لفظ «المعنى» بطريقة نقدية، وبحسب نوع المشكلات الموجودة حالياً والتي تظهر أمامنا من خلال عرضها.

٢ - نظرية العلامات عند بيرس

يعتبر تشارلز بيرس أحد الرجال البارزين في تاريخ نظرية العلامات، فهناك مقال مبكر أوضح اهتمامه بهذا الموضوع بعنوان: «قائمة جديدة للمقولات» On a New List of Categories (١٨٦٧) (المجلد الأول، الفقرات ٥٤٥- ٥٥٩). كما تعد صياغة «القضية البرجماتية» نتاجاً متأخراً ظهر من خلال عمله الطويل في نظرية العلامات.

وبالنسبة لبيرس فإن عملية العلامة A Sign Process (Semiosis) تعتبر عملية معقدة من عمليات التوسط (المتوسط) mediation، وهنا على سبيل المثال أحد الصيغ العامة:

«إن علامة التمثيل representamen شيء يقابل شخص ما لشيء ما على نحو أو قدرة ما. إنه يخاطب شخص ما ، أوجده في عقله هذا الشخص يعادل في قوته وتأثيره العلامة، أو ربما علامة أكثر تطوراً، تلك العلامة التي وجدت اسميها المفسّر The interpretant للعلامة الأولى، وتقابل العلامة شيء ما هو موضوعها». (المجلد الثاني، الفقرة ٢٢٨).

تقابل العلامة إذاً (على نحو ما من الأنحاء) موضوعها بأن يوجد (بكسر الجيم) مفسرها interpreter مفسراً interpretant آخر.

أما فيما يتعلق بهذه الصيغة الخاصة والمجددة فإنه يلاحظ أنها لاتمدنا بفهم العلامات (الإشارات) Signs الخاصة بعلامات اللغة، ولا تقدم لنا

مصطلحاً يشرح «المعنى» بأن يقال مثلا إن المفسّر «في العقل» In the mind، ولم يتم إيضاح مصطلح العلامة إيضاحاً تاماً طالما أن المفسّر للعلامة هو نفسه علامة، ولا يشير إلى فعل Action أو سلوك. وبوجه عام فإنه لا يوجد ما يشير للبرجماتية، أو «القضية البرجماتية» في هذه الصيغة الخاصة.

وليس من الضروري أن نتأمل تطوير بيرس الشامل والثري والمفصل (المحكم) لعلم العلامات Semiotic، والذي هو في حد ذاته دلالة Significance، بصرف النظر عن علاقتها ببرجماتيته.[٣] ولكن يمكن أن نشير إلى شيء من أقواله المعقدة، ذلك أن بيرس ميّز بين ثلاثة أنواع مختلفة

---

(٣) أتى ذكر علم العلامات (السيمائية) Semiotic لبيرس في مجلداته الثمانية، غير أنها توجد بصفة أساسية في المجلد الثاني مضافاً إليه بعض المعلومات التي وردت عنها في المجلد الثامن الخاص بمراسلات بيرس مع السيدة ولبي Lady Welby، وعلى الرغم من وجود كم كبير من الأعمال التي تناولت فلسفة بيرس إلا أن علم العلامات لديه لم يلق الدراسة الوافية لها. وتوجد دراسة مبكرة جيدة عن علم العلامات بعنوان «نظرية العلامات لدى بيرس كأساس للبرجماتية» Peirce's theory of signs as foundatin for Pragmatism كتبها «جون فيتزجيرالد» John J. Fitzgerald كما توجد رسالة دكتوراه بعنوان: «منطق بيرس من خلال علم العلامات» Peirce's logic treated as semiotic كتبها «تورا كاي لنتو بيكسون» Tora Kay Lanto Bikson ولكن هذا العمل القيم لم يذكر الكثير عن برجماتية بيرس. ومن بين المقالات المهمة من الناحية التاريخية يوجد «البرجماتية ونظرية العلامات عند بيرس» Pragmatism and the theory of signs in Peirce ومقال «تشارلز بيرس يفكر في اللغز» Charles Peirce's Quess at the Riddle لإرنست ناجل Ernest Nagel ومقال «الصورة والدليل والرمز» Icon, Index and Symbol لآرثر بوركس Arthur W. Burkes. فضلا عن عدد من المقالات المجمّعة معاً بعنوان : إسهامات تشارلز بيرس في تفسير نظرية بيرس السيميائية. The Transactions of the Charles S. Peirce on Phases of Peirce's Semiotic اشترك فيها لفيف من الأساتذة من بينهم توماس جودج Thomas Goudge وريتشارد مارتين Richard M. Martin وجاي زيمان J. Jay Zeman وجاري ساندرز Gary Sanders.

من علامات التمثيل **Representamens** وهي: علامة الصفة Qualisigns وعلامة الوجود Sinsigns وعلامة القانون Legisigns، فهذه طرق ثلاث يمكن للعلامة أن يكون لها علاقة بموضوعها (مثل الصورة Icon والدليل Index والرمز Symbol) وثلاث طرق يمكن للمفسر أن ينظر منها إليه في علاقته بالموضوع وهي علامة الإمكان Rheme، وعلامة الوجود الفعلي Dicent وعلامة البرهان Argument، وهناك ثلاثة أنواع من المفسّرات هي المفسّر الإنفعالي أو المباشر Emotional، والمفسّر العضلي أو الديناميكي Energetic والمفسّر المنطقي أو الأخير Logical، كما أن هناك نوعان من الموضوعات هما المباشرة Immediate والعضلية أو الديناميكية Dynamic.

ويمكننا أن نلاحظ أيضاً أن بيرس يميز بين ثلاثة فروع من علم العلامات :Semiotic

١- القواعد الخالصة أو النظرية Speculative grammar وهي نظرية كلية في المعنى.

٢- المنطق الحقيقي أو النقدي Logical logic، وهي نظرية كلية في تطبيق الإشارات على الموضوعات.

٣- الخطابة الخالصة أو النظرية Speculative Rhetoric والمنهج الثنائي Methoddeutic أو نظرية البحث Theory of inquiry، وهي القوانين التي يستطيع التفكير العلمي بها أن يّولد إشارة أو علامة من علامة أخرى.

وتشبه تقسيمات بيرس للعلامات بوضوح تحليل القرون الوسطى للعلامات وتسمى الفطنة العلمية Scientia sermocinalis في مجالات دراسة القواعد، والمنطق والخطابة. إذاً فبيرس مدين في نقاط كثيرة من نظرية

العلامات للدراسات المدرسية (الإسكولائية) Scholastics Studies حول عمليات العلامة. كما أن أسلوب عمله الذي بدأ به علم العلامات المبكرة هو بمثابة برجماتيته المبكرة كما توجد في كتاباتهم، ولكن في كلتا الحالتين لا توجد أية إشارة للعلاقة الجوهرية بين المعنى والفعل.

٣ - القضية البرجماتية عند بيرس

يجب ألا ننسى أبداً أن بيرس تدرب في بداية حياته ثم عمل في مجال علم الفيزياء، وفي مقاله التحليلي الذي نشره عام ١٨٧٨ بعنوان «تثبيت الاعتقاد» The Fixation of Belief قام بتحليل عدة طرق يجب اتباعها لإيضاح الأفكار، وقد اتبع بيرس المنهج التجريبي العلمي، وعندما تأمل بيرس عمل الفلسفة واللغة التي يجب على الفيلسوف استخدامها، أخذ بتجريبية العالم واستخدام لغته باعتبارهما المثال الذي يجب أن يحتذى، وعبّر عن الاتجاه التجريبي بإزاء استخدام المعنى بهذه الطريقة فقال:

«أما بالنسبة للعالم التجريبي الحق، فإنك مهما أظهرت له من تأكيد فإنه سيفهم ما تقوله من معنى إذا كان الوصف المعطي له نابعاً من التجربة، مهما كانت ومهما كان من سيقوم بتطبيقه في الواقع، فالخبرة التي توصف له لن يرى لها معنى على وجه الإطلاق «بدون هذا التطبيق» (المجلد الخامس، الفقرة ٤١١).

إذاً لقد دمج بيرس -متأثراً بدراسته- هذا الموقف في «القضية البرجماتية» وهذا ما ذكره بعدة طرق، وإليك ثلاث صيغ وضعها لها «الأولى صيغته المبكرة التي وضعها عام ١٨٧٨، إلا أنه لم يضع لها عنواناً بهذا الاسم «القضية البرجماتية».

الصيغة الأولى

فكر في التأثيرات التي يمكن تصورها ولها معاني عملية، ونستطيع عن طريقها أن نفهم موضوع تصورنا، إذاً فتصورنا عن هذه التأثيرات هو كل تصورنا عن الموضوع. (المجلد الخامس، الفقرة ٤٠٢).

الصيغة الثانية

لكي يمكن التحقق من معنى التصور الذهني في التجربة، فيجب على الإنسان أن يتأمل النتائج العملية التي تنتج بالضرورة عن صدق ذلك التصور، ومن مجموع هذه النتائج نحصل على المعنى الكلي للتصور. (المجلد الخامس، الفقرة ٩).

الصيغة الثالثة

إذا استطاع إنسان ما أن يحدد بدقة كل الظواهر التجريبية التي يمكن تصورها، والتي يتضمنها تثبيت أو نفيّ تصور ما، فإنه سيتوفر لديه تحديد كامل للتصور، ولا يوجد مطلقاً أي شيء زيادة على ذلك. (المجلد الخامس، الفقرة ٤١٢).

ويفسر بيرس بعض عباراته المستخدمة في الصيغ المذكورة آنفاً بقوله:

«التفكير العملي (أو الاحتمالي) هو النتائج Bearing المعنية التي سوف ينتجها التصرف وينتج عنها نتائج معينة في السلوك وسنجد لها أمثلة حتمية في الخبرات التي نمر بها». (المجلد الخامس، الفقرة ٩).

ويقول بيرس أيضاً:

«الظاهرة التجريبية هي الحقيقة التي تؤكد أن فعل وصف معين سينتج عنه نوع معين من النتائج التجريبية. (المجلد الخامس، الفقرة ٤٢٧).

إذاً استخدام بيرس مصطلح «التجريبية» Experimental استخداماً واسعاً فضفاضاً وكثيراً ما استخدم عبارات «التأمل العملي» PracticalConsideration،

و«التصورات الذهنية» Intellectual Concepts وهي تساوي لديه «تلك التصورات التي يتم على أساسها تكوين الأدلة المتعلقة بالحقيقة الموضوعية والتي تتوقف عليها إقامة هذه التصورات. (المجلد الخامس، الفقرة ٤٦٧).

وإذا خاطرنا بتبسيط هذه الصيغ للحكم أو القضية البرجماتية فإنه يبدو أن هذا التبسيط يتضمن أن لمعنى التصور الذهني (العقلي) علاقة جوهرية بين الفعل والخبرة كأن نقول إذا كان كيت وكيت If such and such أنماط من الفعل يمكن القيام بها، إذاً فإن كيت وكيت أنماط من نتائج الخبرة نحصل عليها بالضرورة، وهذا ما سنعتبره لب القضية البرجماتية.

ومن المهم أن نلاحظ خواص معينة لهذا الموقف وهذه الخواص هي:

١- تصر القضية البرجماتية على وجود علاقة جوهرية بين الفعل والخبرة بالنسبة لموضوع المعنى الذي تشير إليه وتتناوله.

٢- إن الموقف ليس موقفاً فردياً، بمعنى أنه لا يذكر بإزاء أفراد بعينهم دون غيرهم.

٣- إن التأكيد إنما هو تأكيد على العمومية، فإن الاستدلال يوجه نحو أنواع من الفعل وأنواع أخرى من الخبرة، وليس نحو أفعال أو خبرات فردية خاصة.

٤- إن الصيغ المختلفة تشير بصفة أساسية إلى «التصورات» Concepts أكثر مما تشير إلى «العلامات» Signs، لذلك فإن العلاقة بين القضية البرجماتية وعلم العلامات Semiotic ليست علاقة واضحة بدرجة كافية.

إن البرجماتية بالنسبة لبيرس أساساً هي اقتراح بتبني القضية البرجماتية في الفلسفة، لكي تكتسب الفلسفة ميزة العلم التجريبي التراكمي والتقدمي

في آن واحد، وإذا قُبل هذا الاقتراح فإن بيرس عندئذ يكتب قائلا:

«إن أي فرض يمكن أن يكون مقبولاً في حالة عدم وجود أسباب خاصة تفترض العكس، وهذا الفرض قابل للتحقيق التجريبي، ويؤخذ به فقط إذا كان قابلاً لمثل هذا التحقيق، وهذه على وجه التقريب هي النظرية البرجماتية». (المجلد الخامس، الفقرة ١٩٧).

والآن فهناك تساؤل يتعلق بمعيار قبول الفروض في الموضوع بخصوص هذا الجزء من المنطق النقدي Critical logic (أو المنطق الخالص Logic Proper) الذي يسميه بيرس منطق الإبعاد Abduction، ويعتبر المنطق النقدي بالنسبة إليه فرع من علم العلامات As a subdivision of semiotic.

إذاً، فعلى الرغم من أن القضية البرجماتية لم تصاغ صياغة واضحة بالنسبة لموضوع العلامات، إلا أنه من الواضح أنها بالنسبة لبيرس تعد جزءاً من علم العلامات.

٤ - بيرس: طبيعة المفسّر

وبالرجوع إلى الصيغة السابقة التي اقتبسناها من أعمال بيرس عن عملية العلامة، فإننا نجد أن مفسّر العلامة كان هو نفسه علامة موجودة في «عقل» In the mind شخص ما عن شخص ما «a Somebody». وعاد بيرس إلى مشكلة طبيعة المفسّر في أحد أعماله المخطوطة التي لم تنشر في حياته، وحاول فيها جاهداً أن يزيل الغموض الذي اكتنف تعريفه للعلامات كمفسّرات والتي هي ذاتها علامات «في عقل» مفسّر العلامة.

وبعد أن أخلد بيرس في هذا البحث إلى الرضا والقناعة بأن المفسّر المنطقي يختلف عن المفسّرين الآخرين الإنفعالي والعضلي واعتبره مفسراً عاماً في تفسير احتمالات الاستدلال، وعلى سبيل المثال، يدل أوله على علاقة شيء

بأي شيء آخر له وصف محدد»، وذكر بيرس خلاصة رأيه في هذا الصدد بقوله إن «العادة هي ماهية جوهر المفسّر المنطقي». (المجلد الخامس، الفقرة ٤٨٦).

وقد فعل ذلك بحذف البدائل الممكنة:

«والآن لا يوجد ما يفسر طبيعة المفسّر المنطقي والذي عرفنا آنفاً بأنه تصور لكي يمكن أن نقول عنه أنه تصور، ويمكن تطبيق هذا الاعتراض أيضاً على الرغبة والتوقع expectation، وهي نفس التفسيرات لنفس المفسّر، طالما أن أحدهما ليس عاماً اللهم إلا في علاقته بالتصور». (المجلد الخامس، الفقرة ٤٨٦).

وتوصل بيرس إلى نتيجة مؤداها أن العادة وحدها هي التي تستطيع أن تصف المفسّر المنطقي للعلامة عن طريق العمومية فضلاً عن المعنى العقلي (الذهني) Intellectual Purport ولذلك توصل إلى أن يكتب ما يأتي:

«إن أفضل وصف للتصور يمكن أن تنقله الكلمات يدخل ضمن وصف العادة ويعتبر التصور هو المحصلة الناتجة عنها، وإلا فكيف يمكن وصف العادة بأكثر مما توصف به من أوصاف كنوع الفعل الذي تنشأ عنه، مع ذكر تفاصيل الظروف المحيطة به ودوافعه؟» (المجلد الخامس، الفقرة ٤٩١).

وبينما يذكر بيرس أن تلك «الحقائق الذهنية» Mental facts غالباً ما تتضمنها العادات فتكون» هي ذاتها عادات غير واعية تماماً. (المجلد الخامس، الفقرة ٤٩٢).

وهذه النقاط المذكورة ليست جديدة في فكر بيرس، ففي مناقشته التي أجراها في مقاله المنشور عام ١٨٧٨ والتي سماها فيما بعد «القضية البرجماتية» قال إن «ما يعنيه بالشيء هو ببساطة ما تتضمنه العادات». (المجلد الخامس، الفقرة ٤٠٠).

وكيف أيضاً أن «العادة ليست شعوراً بالوعي، إنما هي قانون عام للفعل، مثال ذلك ما نجده في موقف ما من نوع معين فإن الإنسان يميل أكثر أو أقل

نحو الفعل بطريقة عامة معينة» (المجلد الثاني، الفقرة ١٤٨)، وبمعنى آخر أكثر تحديداً، يمكن أن يقال إن العادة هي «تنظيم الاستجابة لنوع من المثير على نحو ما» (المجلد الخامس، الفقرة ٤٤٠).

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك جديداً في بحثه الذي أشرنا إليه، فقد أوضح بيرس صيغة المفسّر المنطقي للعلاقة باستخدام تعبير العادة، ولكنه - كما رأينا - في موضع آخر، يشرح لنا كيف أنه وضع القضية البرجماتية داخل الإطار العام لعلم السيميائية (العلامات) General semiotic، والآن يدخل الفعل (في شكل العادات) في لُب علم العلامات، وهكذا فإنه حاول أن «يبرهن» كذلك على القضية البرجماتية باستخدام عبارات العلم العام للعلامات وعلى مدى تأثير القضية البرجماتية على الفعل.[٤]

وهكذا فإننا نجد خلطاً في فكر بيرس الأخير، والذي لو تم تعميمه بطريقة دقيقة، فسيؤدي إلى نظرية متسقة في علامات السلوك؛ لأن العلامة تتضمن دائماً اتجاه أو تنظيم للسلوك لدى أي واحد منا وتعتبر علامة بالنسبة إليه.

---

(٤) اهتم فيتزجيرالد بصفة أساسية في مقاله عن «نظرية العلامات لدى بيرس» بإلقاء الضوء على طبيعة «البرهان» الذي ينتج عن القضية البرجماتية Pragmatic maxim ولم يذكر فيتزجيرالد صراحة أن القضية البرجماتية تأتي نتيجة لعدد من مبادىء أو مقدمات العلامات أو من عدة قضايا للعلامات، إلا أنه أراد أن يذهب إلى أبعد من ذلك في دراسة هذه النقطة. وكتب بيرس عام ١٩٠٥: «إن هذه القضية قد وضعت لتكون نظرية تقوم على أساس ثابت وقوي بفضل دراسة مفصلة ودقيقة لطبيعة العلامات (المجلد الثامن، الفقرة ١٩١)، وكان بيرس غالباً ما يتحدث عن براهين القضية البرجماتية، إلا أنني أعتقد أنه لم يعلن صراحة عن أن مثل هذه البراهين ستنتج من مبادىء أو مقدمات العلامات، وإن كان بيرس يشير دائماً إلى أنه على الفلسفة أن تشير إلى العديد من الأدلة أكثر من أشارتها إلى نتيجة أي من هذه الأدلة، (المجلد الخامس، الفقرة ٢٦٥)، فقد كان بيرس مقتنعاً بل ومتأكداً من أن القضية البرجماتية هي جزء متكامل وأساس جيد لنظريته في العلامات. وقد أحسن فيتزجيرالد صنعاً بتأكيده على هذه الحقيقة في مقاله المذكور.

٥ - تعقيد في آراء بيرس

عاد بيرس إلى الحديث عن القضية البرجماتية عام ١٩٠٢ بعد أن وضع صيغته المبكرة عنها عام ١٨٧٨ فقال في المجلد الخامس من أعماله الكاملة مايأتي:

لقد برهنت القضية عن نفسها للكاتب (يقصد بيرس نفسه) بعد سنوات كثيرة من المحاولة وذلك بعد أن ظهرت فائدتها العظيمة في قدرتها على أن تؤدي بنا إلى أقصى درجة من وضوح الفكر نسبياً وسنخاطر بأن نقترح أنه بإمكاننا وضعها موضع الممارسة مع الدقة البالغة، ولكن بعد أن يتم هذا، وليس قبله، مازالت هناك درجة أعلى من وضوح الفكر التي يمكن تحقيقها وذلك بأن نتذكر فقط أن الخير الأسمى للحقائق العملية الخاصة بتوجيهها نحو القصد الذي يمكن أن يساعد في تطوير أكبر لحقائق الأنا المعقولة؛ لأن معنى التصور أنه يستحيل تحقيق أية ردود فعل فردية على الإطلاق، ولكن المهم هنا الطريقة التي تساهم بها ردود الأفعال هذه بإزاء هذا التطوير. (المجلد الخامس، الفقرة ٤).

والمقصود من هذا النص بوجه عام واضح تماماً فهو يريد أن يقول: «إن الوضوح بالنسبة لمعنى التصور الذهني (أو العقلي) يزداد إذا كان الإنسان يستطيع أن يتحقق من ذلك بالتجربة بالإضافة إلى إمكان تطبيق القضية البرجماتية وذلك بالإسهام الذي يقدمه التصور لتطوير الأنا المعقولة The development of concrete reasonableness وعلى الرغم من ذلك، وبعيداً عن التفاصيل فإن النص مليء بالإشكاليات التي تدور حول اللفظ الغامض والمضطرب «للمعنى» Meaning.

يثير النص السابق في المقام الأول التساؤل حول «الخير الأسمى» The Ultimate Good «للحقائق العملية» Practical facts المتضمنة في الحكم

البرجماتي، ومما يثير عجب الإنسان أن الاهتمام لا يتغير فهو يتجه نحو القيمة أو المدلول المجرد للعلامات أو المفهومات أو الأفكار، أكثر من توجهه نحو التوسع في مبناها أو مدلولها العيني المشخص إلا أنه في موضع آخر عندما ناقش فرض واقعية وجود الله تعالى، فإن بيرس يذكر أن البرجماتي يعتبر أن الأساس الجوهري المطلق Ultimate test للفرض «يجب أن يكمن في قيمته أي في ضبط سلوك الإنسان البالغ في الحياة». (المجلد السادس، الفقرة ٤٨٠)، فهل لا يخلط بيرس هنا بين المدلول المجرد والمدلول المشخص للعلامة؟.

ومن جهة ثانية، يتضمن تفسير «الأنا المعقولة» Concrete reasonableness كل فلسفة بيرس الميتافيزيقية والكوزمولوجية، لذلك يبدو أن مستوى «المعنى» يستند على الفلسفة أكثر مما يقدم لنا معياراً لمعنى المصطلحات الفلسفية.

وثالثاً، ليس من الواضح تماماً إذا كان هذا «المعنى» الثري يعلو «المعنى» المقصود في القضية البرجماتية كما يبدو في الجزء الأول من النص المقتبس أو إذا كانت بعض الرموز المحددة يمكنها أن تسهم في إظهار «الأنا المعقولة» دون أن تحتوي على «المعنى» بالمعنى المحدد في القضية البرجماتية كما يقترح بيرس في نهاية النص السابق المقتبس والذي جاء فيه أن «معنى التصور لا يمكن في أي من ردود الفعل الفردية على الإطلاق»، وعلى أية حال فإن هذه النصوص تصبح وثيقة الصلة بالموضوع عندما يتساءل المرء عن نوع المعنى المستخدم في الرموز الرياضية والفيزيقية مثل: «ما المعنى غير القابل للقياس» و«الذرة» Atom؟

وأخيراً، وحتى إذا أخذ في الاعتبار أن «الأنا المعقولة» عند مقابلتها «بتطوير ضبط السلوك الإنساني في الحياة»، فإنه من الصعوبة بمكان أن نوضح المعنى الخاص بمحاولتنا تحديد هذا الإسهام، وبالتأكيد فإن جميع الفلاسفة السابقين سوف يدّعون أن كتاباتهم لها معنى بنفس هذا التحديد، والإنسان يمكنه أن

يحاول إنكار مثل هذه الدعاوي عن طريق اللجوء إلى نظريات بيرس عن «ضبط النفس» Self Control و«التصور الذهني» Intellectual Concept، وهذا يمكن عمله بالتظاهر بقبولنا لها، ولكن أصبحت هذه الكتابات متداخلة جداً، ولن يقتنع هؤلاء الميتافيزيقيون واللاهوتيون الذين هاجمهم بيرس بطريقة غامضة ومبهمة في أقواله.

ويبدو أن الموقف الناتج عما سبق يعبر عن شيء كهذا.

إن بيرس لم ينكر الصيغة المبكرة للحكم أو القضية البرجماتية، ولكنه لم يكن يعتقد أن تحليل المعنى الذي تضمنته هذه الصيغ (مع تأكيده على الخبرة الحسية التي تأتي عقب الفعل، هي كل ما في الموضوع حتى بالنسبة للرموز الخاصة بـ«المعنى الذهني» Intellectual Purport ... فالأخيرة هي بالتأكيد القضية. وبالنسبة لبيرس فقد أدركها أيضاً، ومع ذلك فإنه يصعب علينا أن نقول إن بيرس أعطى صيغة مقنعة وواضحة لأوجه «المعاني» المختلفة، فضلاً عن أنه لم يعبر عنها في النصوص المبكرة التي قدمها عن الحكم (القضية) البرجماتي، وبهذا فإن نظرية العلامات عند بيرس تعد نظرية غير كاملة.

غير أن اقتراح بيرس الأخير بإضافة «المعنى» إلى ما أشار إليه بطريقة غامضة مازال في حاجة إلى تفسير علاقة «المعنى» «بالفعل»، لذلك فإنه حتى في هذه النقطة فإن بيرس يتمسك بوجهة النظر التي مؤداها أن هناك علاقة جوهرية بين المعنى والفعل، ولهذا السبب فإن «مانلي طومسون» Manley Thompson كتب في بحث بعنوان «الفلسفة البرجماتية عند تشارلز ساندرز بيرس» أنه كان قادراً على أن يذكر أن فلسفة بيرس يمكن النظر إليها كفلسفة برجماتية.(٥)

---

(٥) لايزال التساؤل مهماً بالنسبة لدارس فلسفة بيرس، ويدور هذا التساؤل عما إذا كان بيرس يختلف أو لا يختلف فيما قدمه من تصورات مبكرة أو متأخرة حول الحكم

#

٦- وليم چيمس والقضية البرجماتية

ليس من الشائع أن يؤكد أحد من الباحثين على الفروق بين چيمس وبيرس بطريقة قوية لدرجة أنهما يبدوان بصعوبة وكأنهما يدخلان في مجال نفس الحركة الفلسفية، وقد كتب رالف بارتون بيري Ralph Barton Perry يقول: «ربما يكون من الصحيح تماماً بالنسبة لجميع الأطراف أن نقول: إن الحركة الفلسفية المعروفة باسم البرجماتية هي نتيجة سوء فهم چيمس لبيرس».

ويمكن أن نوضح أن لهذه النظرية بعض أوجه الصدق من أن بيرس غيّر اسم الفلسفة البرجماتية Pragmatism إلى البيرجماطيقية Pragmaticism، ويبدو أن هذا ليميز من ناحية موقفه من فلسفة چيمس، ويعلن من ناحية أخرى أن تأويل exegesis چيمس للقضية البرجماتية «ليس عميقاً جداً» Not very deep (المجلد الخامس الفقرة 13n). ومع ذلك، فإنني أعتقد أن

البرجماتي أو القضية البرجماتية وبالتالي تصوره عن البرجماتية، وقد ناقش ديوي هذه المسألة في بحثه عن «برجماتية بيرس» The Pragmatism of Peirce، ورأى أن الاختلاف يكمن في تأكيد بيرس على تصوراته التي قدمها في صيغه المختلفة، بينما يرى كل من موري مورفي Murray Murphey وچون فيزجيرالد أنه لا أهمية تذكر بشأن هذه الاختلافات، حتى بيرس نفسه كان يعتقد بعدم وجود تغير أو اختلاف ما. وتعطي كتب بيرس التي كتبها في العقد الأول من هذا القرن (١٩١٠) انطباعاً مؤداه أن نظرية بيرس لم يطرأ عليها التغير منذ أن وضعها عام ١٨٧٣، وأصبحت صيغة نظريته كالآتي:

«بالنسبة للبرجماتية» فإن المعنى الحقيقي لأي إنتاج ذهني يكمن في الجبرية الأحادية Unitary Determination مهما كانت أهميتها بالنسبة للتصرف (السلوك) العملي وتحت أي ظرف كان، ولنفترض أيضاً أن مثل هذا التصرف يمكن أو يوجد في أقصى حدود التفكير» (المجلد السادس، الفقرة ٤٩٠)، وتختلف هذه الصيغة عن تلك التي سطرها بيرس من قبل حيث لم يشر فيما سطره إلى أية تأثيرات عملية تتبع أي نوع من أنواع الفعل، فهل عبارة «التصرف العملي» Practical Conduct في هذا النص متضمنة أساساً في مثل هذا القول؟ (بتصرف - المترجم).

تعبير بيري **«سوء فهم»** Misunderstanding تعبير مبالغ فيه جداً، وأنه بينما كان چيمس - بطريقة مؤكدة - يوسع من مجال البرجماتية ليذهب بها إلى أبعد مما ذهبت بها نظريات بيرس، فإن المفكرين خرجا في النهاية بنظريات متشابهة تماماً بالنسبة لطبيعة وحدود المعنى، ويجب علينا الآن أن نكرس جهودنا لنثبت هذا الزعم.

إن الاختلافات الرئيسة بين بيرس وچيمس موجودة في الفروق بين الإشكاليات التي تناولوها بالبحث، ولنذكر بعضها إجمالاً، فإن إشكالية بيرس الموجهة كانت بناء صرح «فلسفة علمية» Scientific philosophy، أما رسالة چيمس القدرية فكانت بالنسبة إليه وطبقاً لما يذكره رالف بيري «إيجاد صدق فلسفي يمكّنه من تبرير إقامة الدين دون التخلي عن العلم». وكان چيمس مثلما كان بيرس، قد نال قسطاً من العلم والتدريب في مجال العلم Science وقام بتدريس العلم لسنوات كثيرة قبل أن يصبح فيلسوفاً محترفاً... إلا أن تدريبه كان في مجال الطب والبيولوچيا (علم الأحياء) أكثر من مجالي الرياضيات والعلم الفيزيقي (الطبيعة)، وكان إسهامه الشخصي كعالم في مجال علم النفس، وقد عانى في أواخر العشرينات من عمره مشكلة شخصية العشرينات عميقة، وكانت تنتابه إحساسات عميقة باليأس والقلق، وجاء دفاع تشارلز رينوڤييه Charles Renouvier عن الحرية كي ينتشله من هذا الاكتئاب، ويخرجه من أزمته. وكتب چيمس يقول: «كان أول عمل لي للتعبير عن إرادتي الحرة أن اعتقدت في الإرادة الحرة Free Will، وساعدت النظريات الدينية والميتافيزيقية چيمس في المراحل الأولى وعملت على تدعيم نشاطه العنيف في السعي وراء المثل العليا، ويقول چيمس في هذا الصدد:

«إنه لولا الدلالة العملية، لكانت كلمات الإله، الإرادة الحرة، الخلق، إلخ... لا معنى لها، فلديها (أي هذه الكلمات) معنى خاص وهو أنها تعد بوجود عالم أفضل مما نعيش فيه».

وبوجه عام فقد نظر چيمس إلى الفلسفة كعبارات توجه حياة الفرد. فهو يرغب في بناء نسق فلسفي مؤكد، ولكن طالما أنه لم يلتفت مرة واحدة بعد ذلك نحو العلم فإن فلسفته لن تتطلع أبداً إلى أن تكون صرحاً علمياً A Scientific edifice. وكان من المتوقع أن يقوم چيمس بتفسير القضية البرجماتية لدى بيرس بطريقة تتوافق مع مفهومه الشخصي للفلسفة.

ويحتوي مقال بيرس الذي نشره عام ١٩٠٢ في «قاموس بالدوين للفلسفة وعلم النفس Baldwin's Dictionary of Philosophy and Psychology على فقرة كتبها چيمس لتفسير القضية البرجماتية لدى بيرس، والتي وصفها بيرس بأنها «ليست عميقة جداً». فقد كتب چيمس التفسير الآتي لنظرية بيرس: إن «المعنى» الكلي للتصور يعبِّر عن ذاته من خلال نتائجه العملية، فالنتائج إما أن تكون في شكل تصرف يوصى به، أو على هيئة خبرات نتوقعها، وإذا كان التصور صادقاً فإن نتائج الخبرات ستكون مختلفة في حالة عدم صدقها، بل ويجب أن تكون مختلفة عن النتائج التي يعبِّر بها المعنى عن تصورات أخرى بدورها».

وقبل مناقشة هذا التفسير للقضية البرجماتية، فمن المستحسن أن نضع أمامنا عدة صيغ أخرى تبين وجهة نظر چيمس في المعنى، ففي كتابه «البرجماتية» ذكر أن «مبدأ بيرس هو المبدأ البرجماتي» The Principle of Peirce, the Principle of Pragmatism. وعبَّر عن فكرته بقوله:

«لكي نحصل على وضوح تام لأفكارنا عن الموضوع An Object، إذاً فإننا نحتاج فقط إلى أن نأخذ في اعتبارنا التأثيرات المقبولة عن نفس الشيء العملي الذي يتضمنه، وما الإحساسات التي نتوقعها منه، وردود الأفعال التي يجب أن نستعد لها، وهل هي مباشرة أم بعيدة remote، إذاً فإنها ستكون بالنسبة إلينا تصور كلي عن الموضوع، طالما أن هذا التصور له دلالة إيجابية مطلقة».(٦)

---

(٦) وليم چيمس «البرجماتية» ص ص ٤٦-٤٧.

وأخيراً، هناك فقرة وردت في كتابه «بعض إشكاليات الفلسفة Some Problems of Philosophy» يقول فيها: «إن القاعدة البرجماتية The Pragmatic Rule هي ذلك المعنى الخاص لتصور ما والذي يمكن أن يوجد بصفة دائمة، فإذا لم يوجد في بعض الإحساسات الخاصة التي يمكن اختيارها بطريقة مباشرة فإنه يوجد إذاً في بعض الفروق الخاصة التي نجدها في مجرى الخبرة الإنسانية والتي سيكون وجودها وجوداً صادقاً».

من الواضح أن في هذه العبارات صيغ ذات وجهين أساسيين يختلف فيهما تصور چيمس عن القضية البرجماتية عن مثيله لدى بيرس.

الوجه الأول

أن صيَغ چيمس أقل طلباً Less demanding من صيغ بيرس المبكرة فقد جعل بيرس العلاقة بين الفعل والخبرة الناتجة عنه علاقة جوهرية، وتلك الخبرات هي المقبولة فقط وتتبع نوع معين من الفعل وهي التي جعلها بيرس ذات علاقة جوهرية، وذلك عن طريق تقرير المعنى الخاص بتصور معين، فالعلاقة بين الفعل والخبرة هنا علاقة تتضمن بين المعاني(*) Entailment إذا ... إذاً، علاقة ضرورة necessary، وكما رأينا من تلك العلاقات التي يقصدها بيرس بعبارته «نتائج عملية» Partical Consequences، ومن هنا كان استخدام چيمس لكلمة «العملية» Practical أقل طلباً.

أما تفسير چيمس فإنه بدلاً من استخدام إذا ... إذاً لبيان العلاقة بين الفعل وما ينتج عنه من خبرة، فإنه استخدام علاقة «و» and و«أو» or، وربما علاقة أقل

(*) يستخدم بعض الفلاسفة كلمة Entailment لتدل على علاقة التضمن بين المعاني، بينما يستخدم البعض الآخر كلمة Implication بمعنى الجانب الصوري في اللزوم.

(انظر: د. عزمي إسلام، «مفهوم التفسير في العلم من زاوية منطقية»، حولية كلية الآداب، جامعة الكويت، الرسالة الرابعة «١٦»، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٩٦. (المترجم)

من ذلك، فهي علاقة «أو» or. فالنتائج العملية هي الآن «الإحساسات التي نتوقعها» و«ردود فعل يجب أن نستعد لها»، بل إنها حتى أقل صرامة، فالنتائج العملية هي «تصرف يوصى به»، أو «خبرات يتم توقعها»، فحرية الفعل التي تعطيها لنا كلمة «أو» في العبارة الأولى ومتضمنة في الصيغة الثالثة سوف تسمح بعبارات أخرى ذات معنى بسبب اقترابها من التصرف أي من السلوك حتى لو لم تتنبأ «بإحساسات» معينة أو «خبرات» معينة وقد استفاد چيمس من حرية الفعل الموضحة في العبارة الآتية في مجال الدين Religion:

. «إن الدين في أكثر معانيه تجريداً يمكن أن يُحدد بأنه تأكيد على أنه ليس هناك شيء تافه، فالتجريبي يمكنه أن يسخر بسهولة من تلك الصيغة لأنها لا تعني شيئاً بالنسبة إليه، عندما تعبّر عن الاتجاه الكلي Universality، ويطلب منك أن تعرض له هذا الشيء بمضمونه المشخص الذي قد لا يستطيع أن يفعله؛ لأنه لا يوجد شيء أصعب من ذلك، ومع هذا فإنه كحقيقة عملية يمكن أن يكون له معنى متميزاً للغاية وذلك عندما تستخدم هذه الحقيقة كمقدمة منطقية في الحياة اليومية، فإن ذلك ينقل إليك وصفاً كاملاً للحياة، والدين، مثله في ذلك مثل أية تصورات أخرى كثيرة كليةً، صادق في توجهه، ويبدو أنه لا يقدم لك غاية ما ولكنه يحدد لك «الاتجاه المناسب».(٧)

الوجه الثاني

يتبين بوضوح أكثر الفرق بين نص بيرس عن القضية البرجماتية في الاقتباس الثالث وبين موقف چيمس، فالتأكيد هنا تأكيد على ما هو جزئي Particularity والذي يتوقع أن يكون «إحساس جزئي Sensible Particular

---

(٧) العبارة مقتبسة من بحث بيري Perry «فكر وشخصية وليم چيمس»، المجلد الأول، ص٥٠٣.

والفرق الموجود في الحياة يجب أن يكون «فرق جزئي Particular difference.
أما بيرس فقد أكّد -على عكس چيمس- على أنواع الخبرة وأنواع الفعل، وقد
أقتبسنا كثيراً من كتاباته من قبل مثل قوله: «إن معنى التصور لا يكمن في
أي ردود أفعال جزئية على الإطلاق» «فإذا كان چيمس قد أكد على النزعة
الجزئية Particularity فإن بيرس أكّد على العمومية، وهذه الآراء المختلفة هي
التي تشكل فلسفة كل منهما.

وقد عُنّي بيرس خاصة بالطريقة التي يوظف بها الأفكار في مجتمع العلماء
بينما عُنّي چيمس على وجه الخصوص بالطرق التي تستخدم بها الأفكار في
حياة الأفراد الفردية، أما «الأفكار العملية The Practical Consideration
التي عُنّي بها بيرس فقد كانت تدور أولاً حول أنشطة العالم، بينما كانت
بالنسبة لچيمس تُعني بالأنشطة التي لها علاقة بالسلوك الفردي للشخص في
الحياة أولاً، وكانت موضوعات «الدلالة المجردة الحيوية» Vital Significance
تصورات رئيسة في تصور چيمس عن الفلسفة، بينما كانت بالنسبة لبيرس،
على الأقل من الوجهة الرسمية، خارج نطاقَ الفلسفة بحسب اقتناعه بها.

ولا تقلل هذه الفروق بين بيرس وچيمس من شأنهما، ولا من أهمية
فهمهما للحركة البرجماتية ككل، ومع ذلك، فإنه بالبحث في مجال المعنى
نجد في نهاية الأمر أن الفرق ليس كبيراً كما يبدو للوهلة الأولى. أما بالنسبة
لبيرس، فيجب أن نتذكر، أنه اعترف بأنه يوجد قدر من المعنى يكمن فيما وراء
وصف القضية البرجماتية، فالعبارات يكون لها معنى إذا ساهمت في ضبط
سلوك الفرد في الحياة حتى إذا ساهمت ولو بقدر ضئيل في مجالات معينة من
التنبؤات، كما نجدها في محتوى الخبرة التي نعيشها.

ويتضح موقف بيرس من فرض واقعية وجود الله على سبيل المثال، بعد أن
اعترف أنه فقط في الحالات الاستثنائية Exceptional cases يمكن الاستدلال

على نتائج تجريبية Experimental consequences من هذا الفرض (المجلد السادس، الفقرة ٤٨٩)، فإنه وجّه الانتباه إلى ميزة أخرى لهذا الفرض الذي يتألف من تأثير أوامره على سلوك حياة الذين يعتقدون فيه (المجلد السادس، الفقرة ٤٩٠). وأكّد چيمس على نفس النتيجة، وكما رأينا فقد عبَّر عنها بكلمات متشابهة تماماً، وليس بالحديث عن مستوى آخر من المعنى فيما وراء القضية البرجماتية، ولكن بتفسير فضفاض للقضية البرجماتية ذاتها.

وهكذا فإن كل من بيرس وچيمس مضيا في نفس الدرب الخاص بكل منهما وذهبا أبعد مما أطلقنا عليه لب القضية البرجماتية. فمن المؤكد أنهما جعلا هناك استخدامات مختلفة ومهمة لهذا «المعنى» في تطور فلسفاتهما، ولكن لهذا قصة أخرى، إن حصيلتهما الكلية للمعنى ومجاله هي نفس الحصيلة الجوهرية لفلسفة كل منهما.

٧- چورج ميد: في اللغة كسلوك اجتماعي

كان ميد من أكثر الذين أشاروا بطريقة عارضة إلى بيرس في كتاباتهم، ولا أذكر أنني سمعته يذكر حتى اسم بيرس في محاضراته، وبينما كنت طالباً في جامعة هارفارد، كنت أرى ميد يتصل بچيمس (أثناء العام الدراسي ١٨٨٧-٨٨)، لذلك أرى أنه كان من الواجب على ميد أن يعرف شيئاً عن بيرس، ولكن لا يوجد دليل على أن بيرس أثر في مجريات تفكيره (يقصد تفكير ميد). كما لا يعتبر ميد ببساطة أحد حواريّ چيمس، ولكنه كان متعاطفاً بوجه عام مع الاتجاهات الوظيفية لعلم النفس عند چيمس، غير أنه طالما أن علم النفس عند چيمس بدأ وانتهى بالفرد، فإن ميد أكدّ على النسيج الاجتماعي الذي طوّره الفرد، وهكذا أصبح أحد الرواد الذين أسهموا في نشأة علم النفس الاجتماعي الحديث، فضلاً عن ذلك فإن ميد لم يكن تلميذاً لديوي، لذلك لم يكن فكر ديوي هو نقطة بداية تطور ميد ذاته، حقاً لا يوجد فيلسوف له علاقة بميد مثلما كانت هناك علاقة لچيمس بـ مل Mill والتجريبيين الإنجليز، وكما كان لكنط

علاقة ببيرس، وديوي بهيجل، فقد أعطى ميد اتجاهاً مستقلاً وأصيلاً للحركة البرجماتية.

ويبدو أن ميد في توجهه المتميز إلى العلم الاجتماعي الذي انبجس في أواخر القرن التاسع عشر -وكان ميد قد ذهب إلى ألمانيا بغرض استكمال دراساته قبل التخرج- قد أبدى تعاطفاً كبيراً مع نظريات فلهلم ڤونت Wilhelm Wundt في مجال اللغة، حيث كتب ميد بحثين أوضح فيهما مدى اهتمامه بنظريات ڤونت.(٨)

وقال ديوي في البحث الذي أعده في حفل تأبين ميد عام ١٩٣١ ما يأتي:

«في أيامي الأولى المبكرة لاتصالي به، بعد أن عاد من دراسته في برلين منذ أربعين سنة مضت، كان عقله مفعماً بالإشكالية التي طالما شغلته إشكالية الفعل الفردي والوعي وعلاقتهما بالعالم والمجتمع».(٩)

وقد بحث ميد مشكلة علاقة الفعل الفردي والوعي بالمجتمع في علم النفس الاجتماعي، وكانت هي الموضوع الرئيس في كوزمولوجيته (علم الكون) المتأخرة.

وأخذ ميد عن ڤونت النظرية الأساسية في علم الإيماءة (الإشارة) Gesture واعتبرها مرحلة مبكرة من مراحل نشاط الكائن الحيّ وعدّ استجابة كائن حيّ لكائن حيّ آخر علاقة لمرحلة متأخرة لنشاط هذا الكائن الأول، فتكشير الكلب عن أنيابه تعد مرحلة إعداد لهجوم مرتقب، وعند استجابته لكلب آخر فإن

---

(٨) كتب جورج هربرت ميد بحثين في هذا المجال هما:

١- «العلاقات بين علم النفس وفقه اللغة» The Relations of Psychology and Philology.

٢- «الخيال في معالجة ڤونت للأسطورة والدين» The Imagination in Wundt's Treatment of Myth and Religion.

(٩) ظهر بحث ديوي، «جورج هربرت ميد» عام ١٩٣١ في «مجلة الفلسفة» Journal of Philosophy.

هذه الاستجابة هي بمثابة استجابة لهجوم فعليّ، فالتكشير عن الأنياب يعتبر إيماءة (إشارة). وبطريقة مشابهة، فإن بداية استجابة الكلب الثاني تصبح بدورها علامة للكلب الأول، هذه العملية التبادلية والمستمرة للإيماءات يسميها ميد «حوار الإيماءات (الإشارات)، The Conversation of Gestures.(١٠)

وعلى الرغم من أن هذه الإيماءات (الإشارات) ليست إيماءات (إشارات) لغوية بمعنى أن الإيماءة ليست لها دلالة مجردة Signification التي للإيماءة الحيوانية والتي لا يستطيع الحيوان تفسيرها. أما الرمز اللغوي الحقيقي - تبعاً لرأي ميد - فله نفس الدلالة التي لدى الكائن البشري الذي يستخدم الرمز مع كائن حيّ آخر يستطيع تفسيره. واعتقد ميد أن هذا التطور يسّر بصفة رئيسة وجود الإيماءة الصوتية (أو اللفظية) حيث أن الكائن الحيّ الذي يصدر الصوت يسمعه كما يسمعه كائن حيّ آخر، ولو اشترك عدد من الناس في هذا الصوت في مواقع معروفة لاستجابوا له أيضاً؛ لأن هذا الصوت سيكون له نفس الدلالة لديهم جميعاً ماعدا الشخص الذي أصدر الصوت.

إن تفاصيل تحديد هذا التناول للغة ليس موضع اهتمامنا الحالي.(١١)

---

(١٠) أشار فونت Wundt في أعماله إلى موضوع «تبادل الإشارات في الاتجاهين المتضادين» (الإقدام والإحجام) The backward and forward interchange gestures واقتبس ميد الفكرة في بحثه المذكور عن «العلاقات بين علم النفس وفقه اللغة» (ص٣٨١).

(١١) يفضل ميد مصطلح «الرمز الدلالي» Significant Symbol على ما نسميه «الرمز اللغوي» Language Symbol، فقد ناقش اللغة من خلال أعماله المتعددة ومنها «العقل والنفس والمجتمع» وهو عمله الرئيس الذي تحدث فيه عن «العامل السلوكي للرمز الدلالي» A Behavioristic Account of the Significant Symbol لكي يعبر به عن وجهة نظره.

وللمزيد من النقد انظر كتابي «العلامات واللغة والسلوك» Signs, Language and Behavior، الفصل الثاني، وكذلك بحث جون م. بروستر John M. Brewster «العامل السلوكي للوظيفة المنطقية للكليات» Behavioristic Account of the logical function of Universals.

كما أننا لسنا على استعداد لكي نبين كيفية تناول ميد للعقل الفردي، وقد بحث موضوع التفكير والذات Selfhood باستخدام رموز مصطلحات اللغة، وتركزت الموضوعات الأساسية للبرجماتيين على الإنسان ككائن أخلاقي ذكي، ويكفي الآن أن نؤكد على أن تحليل ميد للإيماءة (سواء كانت لغوية أم غير لغوية) وضعت أساس الطبيعة السلوكية للمفسّر والتي طوّر بيرس على أساسها نظريته في العلامات Semiotic، وأدى تقديم ميد لنظرياته مستقلاً عن بيرس إلى اعتبار تقاربهما مثيراً بدرجة أكبر.

والنص الآتي أول نص مقتبس من كتاب: «العقل والذات والمجتمع» Mind, Self and Society يقول فيه ميد:

«ينشأ المعنى ويكمن داخل إطار العلاقة بين الإيماءة Gesture التي يبديها الكائن الحيّ والسلوك الصادر عن هذا الكائن والذي يشير به إلى كائن حيّ آخر عن طريق الإيماءة. وإذا كانت هذه الإيماءة التي تشير إلى الكائن الحيّ الآخر ناتجة عن سلوك الكائن الحيّ الذي صدرت عنه الإيماءة إذاً فإنها تكون ذات معنىً .. فالمعنى إذاً هو تطوير لشيء ما يعبر عن شيء آخر لبيان علاقة أوجه معينة للفعل الاجتماعي إنه ليس إضافة فيزيقية للفعل وليس فكرة Idea بالمعنى التقليدي ... ولكن المعنى هو المعطى المذكور في عبارات أو مصطلحات Terms ناتجة عن الاستجابة، إن المعنى هو شيء ضمني Implicit ... وإن لم يكن دائماً موجود وجوداً ضمنياً - في العلاقة بين عدة أوجه للفعل الاجتماعي الذي يشير إليه ويختلف في ذات الوقت عما تطور عنه، ويكون تطويره باستخدام مصطلحات أو عبارات رمزية In terms symbolization على المستوى التطوري البشري.

والنص الثاني مقتبس من كتاب: فلسفة الحاضر The Philosophy of the Present ويبين شرح ميد «للأفكار» في كلمات تمثل الاستجابات المنظمة

Organized responses، أكثر من استخدامها لشرح معنى العلامات يقول ميد في هذا النص:

«يبدو أن هناك جانباً من الفكرة في الخبرة التي تستخدم بعض الرموز الحسّية، وقد تكون من النوع الخيالي imaginery أو المتخيل أو شيء يمكن رؤيته أو سماعه، أما الجانب الآخر من الفكرة - الكلي المنطقي والميتافيزيقي The logician's and metaphysician's universal فيعود إلى ما أشرت إليه مثل الاستجابات المنظمة التي يمكن اختيارها من بين صفات الأشياء عند عزلها عن من المواقف التي وقعت فيها هذه الأشياء وعلى وجه الخصوص كما يحدث في الاستجابات المعتادة بالنسبة للموضوعات المألوفة التي تكون أفكارنا عن هذه الموضوعات ... واستجابة الكائن الحيّ لهذه الاستجابات المنظمة في علاقتها بالموضوعات كما يحدث في الجوانب الأخرى من عالمها. وهكذا فإن هذه الاستجابات تصبح موضوعات بالنسبة للفرد».(١٢)

إن أهم إسهامات ميد في نظرية العلامات هي تحليله الذي اعتمد فيه على السلوك الذي يرمز إلى اللغة، وتفصيله للدور الرئيس لمثل هذه الرموز على ضوء تطورها ومحافظتها على حياة الفرد والمستويات الأعلى للمجتمع الإنساني. وسوف نتناول أهمية هذه النواحي في فكر ميد فيما بعد.

٨- جون ديوي ولغة القيمة

كان جون ديوي من أكثر البرجماتيين الذين عنوا أكثر بإشكاليات القيمة Problems Values. فقد تناول على المدى الطويل الأخلاق Ethics، والفلسفة الاجتماعية Social Philosophy، والتربية Education، وعلم الجمال Aesthetics، وعلى المدى القصير الدين Religion، سوف نعني

---

(١٢) ميد، «فلسفة الحاضر»، ص ص ٧٥-٧٦.

ببعض تفاصيل هذه الموضوعات في الفصل الأخير (من هذا الكتاب). أما ما يتصل هنا بموضوعنا، فهو أن شخصاً كهذا بمثل هذه التوجهات، يتناول مشكلة مصطلحات وأحكام معنى القيم (مثل «الخير» Good وما «ينبغي» Ought، وذلك من خلال بعض استخداماتها، فتصبح «أحكام القيمة» Judgments of value وأحكام الإلزام Judgments of obligation هما محور الاهتمام).

وقد تأثر ديوي كثيراً بمعالجة ميد للغة، إلا أن ميد نفسه لم يتناول على وجه الخصوص مصطلحات القيمة، بينما تزايد تأثير بيرس على ديوي (بعد تأثير ميد في هذه الموضوعات خاصة[13]، ولم يُطبق بيرس القضية البرجماتية على عبارات القيم بوضوح، وإذا كان قد تمكن من تطبيقها فإن هذا الأمر مثار تساؤل، ولكن ديوي لم يشرع في هذا الطريق. وكتب عن بيرس: «إن المنهج البرجماتي الذي طوّره يطبق فعلاً على نطاق ضيق ومحدود في عالم الخطابة Universe of discourse[14]، وكذلك اتجه ديوي في تحليل مصطلحات القيمة والأحكام - على وجه الخصوص- فقام بتحليلها على طريقته الخاصة.

---

(١٣) انظر عبارة ديوي المقتبسة في كتابي «ست نظريات عن العقل» Six theories of Mind (ص٣٢٢) وهي مأخوذة عن خطاب لجون دوي يقول فيه «إنني سعيد فقد ساق ميد العبارة التي كنت أريد أن أقولها بطريقة أقوى، ولا شك أنها تنتسب لكل من بيرس ورويس، لكن بعد نسبتها إلى ميد».

انظر: الفصل الخامس بعنوان «الطبيعة والاتصال» Nature and Communication في كتاب ديوي «الخبرة والطبيعة» Experience and nature، وبه نقاط مهمة كثيرة تتناول طريقة معالجة ميد للغة.

(١٤) انظر: مقال جون ديوي «تطور البرجماتية الأمريكية» The Development of American Pragmatism، وقد نشر المقال في الأصل باللغة الفرنسية عام ١٩٢٢.

قام ديوي بتحليله الأول في بحث مكوّن من ثلاثة أجزاء بعنوان: «منطق أحكام الممارسة» The logic of Judgments of Practice، حيث قام بتعريف ممارسة الفعل كحكم بالطريقة الآتية:

«يتم تنفيذ الفعل وفقاً لأحكام الموقف وطبقاً لجدول زمني Agenda وذلك للقيام بأفعال ... أو تلك التي يجب فعلها. فيوجد، على سبيل المثال قضايا الصورة أو الشكل Propositions of the form مثال م.ن يجب أن يفعل كذا وكذا، فمن الأفضل، والأكثر تعقلاً وحكمة والأصح، ومن المستحسن، والأكثر ملائمة، والأكثر نفعاً ... إلخ أن نفعل كذا وكذا، وهذا هو نوع الحكم الذي أصدّق على أنه حكم عملي».(١٥)

يحتوي حكم الممارسة بالنسبة للموضوع على مشكلة يجب حلها، لهذا كتب ديوي أن الحكم حكم مزدوج binary :

إنه حكم بمعنى أن المعطي يجب معاملته معاملة خاصة، وهو أيضاً حكم بمعنى أن المعطي يسمح بمثل هذا التناول، أي يسمح بحكم موضوعي محدد. إنه حكم - يتناول نفس التسلسل- خاص بالهدف، أي يجب أن تكون هناك نتيجة له ذات معنى.(١٦)

ويعتبر ديوي أن حكم القيمة بهذا التحليل أداة لحكم الممارسة، ويقول:

«ولكي نقول إن أحكام القيمة تقع داخل هذا الإطار فيجب أن نقوله لشيئين: الأول: أن حكم القيمة لا يكون كاملاً في ذاته أبداً، ولكنه يعتمد على تعميم ما يجب عمله، والثاني: أن أحكام القيمة «كأحكام تختلف عن الخبرة المباشرة لموضوع ما على أنه خير وتتضمن أن القيمة ليست هي أي

---

(١٥) ديوي «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic، ص٣٣٥.

(١٦) نفس المصدر، ص٣٤٠.

موضوع معطى مسبقاً، ولكنها موضوع يُعطي لقاء فعل يقع في المستقبل.[١٧]

ولقد ذهب ديوي إلى أبعد من ذلك في تحليله المبكر: فقد اقترح أن كل «أحكام الواقع» Judgements of fact (عبارات إثبات وصفية وعلمية) تنفصل عن أحكام الممارسة (ممارسة الفعل) Judgements of Practice، ويقول ديوي: «يمكننا أن نكوّن على الأقل فرض مؤداه أن كل أحكام الواقع لها دلالة على تحديد Determination مجريات الفعل التي يتم تجربتها واكتشاف المعاني الواقعية منها، وبناءً على المعنى الذي سبَق شرحه فإن كل القضايا، التي نتجت عنها الاكتشافات Discoveries أو تحققت بالتجربة ascertainments وكل القضايا المطلقة Categorical Propositions ستصبح افتراضية (شرطية) Hypothetical ... ويمكن أن نسمي هذه النظرية بالبرجماتية Pragmatism ولكنها نوع من البرجماتية التي لا تعتمد تماماً على علم النفس الإرادي A voluntaristic psychology وهي ليست معقدة مثل عمليات الاشباعات العاطفية Emotional satisfaction أو لعبة الرغبات The Play of Desires.[١٨]

لم يكن ديوي ليؤكد على أحكام الممارسة دائماً بنفس العبارات، ففي نظريته عن التقويم Theory of valuation يعلن عن رضا أن الأحكام العملية يمكن أن تقوم على أساس «أحكام واقعية Factual judgement، وفي بحث متأخر بعنوان: «مجال القيمة» The field of value ذهب ديوي إلى عكس ما أكده في منطق أحكام الممارسة Logic of Judgments of Practice وقال إن الأحكام العملية هي أحكام لا تختلف مطلقاً في نوعها عن الأحكام الواقعية

---

(١٧) نفس المصدر، ص٣٦١.

(١٨) نفس المصدر السابق، ص٣٤٧. ونلاحظ أن لفظ «دلالة» Reference في هذا النص تعبير مضلل إلى حد ما، فهو قد يبين ببساطة أن أحكام الواقع هي أحكام الممارسة.

حيث تستخدم بصفة أساسية لكي تجعل الاتجاهات Attitudes لاتختلف في محتواها عن الأحكام الأخرى.

وطالما أن بيرس لم يطوّر بأي نوع من أنواع التفصيل تحليله الذي تناول به عبارات القيم والأحكام، وطالما أن ديوي لم يستخدم الأطر العملية لنظرية العلامات لدى بيرس، فإنه من الصعوبة بمكان أن نقارن بدقة بين الرجلين في هذه القضايا.(١٩) ولاتبدو هذه الفروق بينهما بهذا الاتساع الذي يراه ديوي في ملاحظاته بالمعنى الضيق الذي اقترحه بيرس في القضية البرجماتية Pragmatic maxim ويعطينا تحليل ديوي الواضح تعبيرات القيمة والأحكام وعلى وجه التخصص «معنى ذهنياً» Intellectual purport بالمعنى الذي يستخدمه بيرس في تعبيره، وسيوافق بيرس على هذه النقطة بالتأكيد. (كما يفعل حقاً جميع البرجماتيين). ولست متأكداً تماماً من أن القضية البرجماتية التي ذكرها بيرس لا تشتمل على تحليل ديوي، ولكنها لم تكن لتستطيع ذلك، لأن نتيجة بيرس يمكنها بالتأكيد أن تكون نتيجة ساهمت في تأكيد الذات المعقولة (أو معقولية الذات)، ويذكر بيرس -عرضاً- طبيعة البرجماتية بطريقة تكاد تتطابق مع العبارة التي ذكرناها لديوي. فيقول:

---

(١٩) يمايز بيرس بين ثلاثة أنواع من المفسرات للرموز interpretants of symbols وهي: الإنفعالي Emotional والعضلي (الميكانيكي) The energetic والمنطقي The logical (انظر المجلد الخامس، الفقرتان ٤٧٥-٤٧٦، والمجلد الثامن الفقرتان ٣١٤-٣١٥) فهل تعد هذه الرموز هي الأسس الممكنة للفروق بين معاني أحكام القيمة والإلزام والواقع (الحقيقة)... Judgments of value, of obligation and of fact وتناول بيرس هذه المفسّرات الثلاثة بطريقة التجزئة لكي يبين أن مثل هذه العلاقة سيكون لها شأن جلل وربما تكون هذه المفسّرات أقرب إلى مقولات بيرس المعروفة وهي Firstness وSecondness و(Thirdness) ومنها إلى الدلالة الوصفية التقويمية Appraisive and Descriptive.

«البرجماتية هي المبدأ القائل بأن كل حكم نظري يعبّر به باستخدام صيغة دلالية هي صورة مضطربة له من الفكر، وتكمن معانيها -إذا كان لها معان- في ميلها نحو تدعيم قضية عملية مماثلة معبّر عنها بعبارة شرطية تحتوي في ذاتها على التسليم بالصيغة الضرورية الإلزامية».[٢٠]

ويبدو أنه من العدل أن نختتم الحديث بقولنا إن ديوي بيّن بطريقة أكثر وضوحاً بعض أوجه معنى تعبيرات القيمة والأحكام التي تتوافق مع النظرية العامة للعلامات لدى بيرس، والتي لم يطوّرها بيرس نفسه بالتفصيل على وجه الخصوص.[٢١]

٩- تعقيب على نظرية العلامات البرجماتية

شملت الصحف السابقة كل ما قالته الحركة البرجماتية عن العلامات signs، حقاً إنه بمعنى خاص تقريباً حيث قيل إن كل موضوع في هذه الحركة له علاقة - سواء مباشرة أو غير مباشرة- بنظرية العلامات طالما أن الحركة كلها موجهة نحو موضوع المعنى. وسوف نتوسع في عدد من النقاط الخاصة في المناقشات المتناولة في الفصول القادمة وما استفدناه منها. ولكن ما قيل يسمح بمراجعة أو تعقيب عام على الموقف.

والنقطة الأكثر أهمية التي نود التركيز عليها هي أن البرجماتية أكثر من أي فلسفة أخرى تضمنت نظرية العلامات في نظرية الفعل أو السلوك،

(٢٠) بيرس المجلد الخامس، الفقرة ١٨.

(٢١) نجد شرحاً وافياً لموقف ديوي من هذه الموضوعات في الأعمال التي لها علاقة بالفن مثل: «الفن كخبرة» ويحتوي على تمييز بين الحس Sence و«الدلالة المجردة» Signification ويعني بلفظ «الحس» المعنى الذي يمكن التعبير عنه The expressive meaning في العمل الفني، كما يمكن أن نجد تفسيراً للعلامة كتصور مقترح في الفصل الرابع البحث الثامن من هذا الكتاب.

فعلاقة العلامة بالنسبة لما تعنيه دائماً ما تكون المفسّر المتضمن في الوسيط Mediation والمفسّر هو فعل أو نزوع نحو الفعل عند الكائن الحيّ.

وقد حدد بيرس المجال العام لنظرية العلامات وتحرك في الاتجاه الذي أعطاه أسس سلوكية أو فعلية، كما رأينا في الصيغة التي وضعها للقضية البرجماتية. هذا الأساس السلوكي، وعلى وجه الخصوص في مجال اللغة، كان أكثر وضوحاً في عمل ميد. فقد درس بيرس نفسه بالتفصيل جزء يسير من نظرية العلامات التي تصورها، ولكنه لم يدرس نظرية علامات الدليل والصورة The theory indexical and icon signs إلى المدى الذي قام به في نظرية الرموز The theory of symbols، وحتى في نظرية الرموز كان تركيزه أكبر على نوع الرموز التي يمكن استخدامها تقريباً في أي برهان Argument يعتمد على الرموز الذهنية Intellectual symbols، ويبدو أنه اعتقد أن الرموز التي في الفن والأخلاق والدين هي من هذا النوع، إلا أنه لم يتناول أبداً مثل هذه الرموز بطريقة كافية لكي يقيم البرهان على هذا الموقف. فقد كان تأكيده أولاً على الناحية الدلالية للرموز، وعلاقة هذا الجانب بالدلالة الوصفية التقويمية واستخداماتها المتعددة لذلك ظلت غير متطورة نسبياً.

واهتم چيمس على العكس من ذلك بمعاني العبارات الأخلاقية والدينية والوظائف التي تؤديها في سلوك الفرد في الحياة، ولكنه لم يتوسع في نظرية العلامات بنفس الطريقة التي حلل فيها مثل تلك العبارات الملّحة، ولكنه فسّر القضية البرجماتية لدى بيرس بطريقة تخدم اهتماماته هو، مما أدى الأمر ببيرس إلى تغيير موقعه من البرجماتية Pragmatism إلى البرجماطيقية Pragmaticism.

وكان ديوي - باهتمام مشابه لاهتمام چيمس- أكثر وضوحاً في تحليله واعتقد في توسيع نظرية المعنى لدى بيرس عن طريق تحليل «أحكام الممارسة»

(أحكام ما ينبغي عمله). وإذا كان لدى ديوي الكثير ليقوله عن عبارات القيمة والأحكام الواضحة المتميزة، إلا أن الحقيقة هي أنه لم يقم بتبسيط نظرياته بنظريات بيرس، وأن نجيب على ما يثار من تساؤلات حول علاقات المفسّرات بمثل هذه العبارات (المصطلحات) مثل «الخير» و«وما ينبغي» ببعضها البعض،(٢٣) وما توصل إليه بيرس عن مفسّرات الرموز.

وعلى الرغم من أن البرجماتيين الآخرين لم يكتبوا بوضوح عن نظرية العلامات العامة (السيميائية) لدى بيرس، فإنه من الواضح أن نظرياتهم عن «المعنى» يمكن أن تعتبر - إذا استرجعناها - كما لو كانت تملأ الفجوات الموجودة في مجال نظرية العلامات والتي حددها بيرس. ونظر ية العلامات الموسعة هذه لم تعنون بمثل هذا الاسم، ولم تنظم بطريقة نسقية، إلا أنها تحتوي على كثير من المواد التي تناولت نظرية الدلالة الوصفية، والتقويمية والمعنى من وجهة نظر معينة، وبعض استخدامات وظائف العلامات في السلوك الفردي والاجتماعي. إنها على أية حال نظرية «كاملة» عن العلامات، وقد أهملت أنماطاً كثيرة من الكلام، وتم إساءة توظيف العلامات في حياة الفرد والمجتمع مما جعل الكثيرون يجهلونها وعلى نطاق واسع. وبرغم ذلك فإن نظرية العلامات في الحركة البرجماتية وضعت الأسس - نسبياً - لمجال البحث على نطاق واسع وهو ما تتصف به الأنشطة الحالية في هذا المجال. وفتحت نظرية العلامات -

---

(٢٢) قام سي. أي. لويس C. I. Lewis بالتمييز الحاد بين «الخير» Good و«ما ينبغي» ought، وبالتالي بين أحكام القيمة وأحكام الإلزام أكثر مما فعله ديوي. فالأول (لويس) تناول التمييز في كتابه «تحليل المعرفة والتقويم» An Analysis of Knowledge and valuation والأخير (ديوي) اقترب منه بطرية أولية (مبكرة) في كتابه «الأساس وطبيعة الحق» The Ground and Nature of the Right. بالإضافة إلي كتاب آخر للويس بعنوان «العقل ونظام العالم» Mind and World Order، وبهذا قدّم لنا اسهامات مهمة شملت جميع النظريات التي عالجت نظرية العلامات البرجماتية.

مثل معظم خصائص الحركة البرجماتية - بما سلكته من طرق فتحت الباب لمجالات أوسع مما اكتشفته هي ذاتها.(٢٣)

(٢٣) يمكن اعتبار كتابي «العلامات واللغة والسلوك» مضافاً إليه كتابي الأخير بعنوان «المعنى والمغزى» Signification and Significance كتابان يسهمان في شرح البحوث التي صدرت عن «نظرية العلامات» التي قدمها الفلاسفة البرجماتيين على اختلاف مشاربهم، فلم اكتبهما وفي عقلي هدف سبق.

وقد بدا عملي أنه يبدأ من ميد وليس من بيرس حيث جاء تأثير كل من ديوي ولويس وبيرس ورودولف كارناب فيما بعد وبنفس الترتيب الذي ذكرته الآن.

الفصل الثالث

علم المناهج (الميثودولوچيا) البرجماتي



الفصل الثالث

علم المناهج (الميثودولوچيا) البرجماتي

١ - توجه عام

البرجماتيون أنفسهم لايستخدمون مصطلح الميثودولوچي «علم المناهج» كثيراً بالمعنى الذي يرد في الإشكالية التي تسمى تقليدياً بنظرية المعرفة The theory of knowledge، ولكن طالما أن هناك تصورات كثيرة عن المعرفة التقليدية والحديثة يرفضها البرجماتيون، فإنه سيكون مضللاً أن نستخدم مصطلح المعرفة كعنوان لهذا الفصل. ويمكن أن يكون العنوان المناسب هو «نظرية البحث البرجماتية» Pragmatic theory of inquiry، ولكن أسباب استخدامه ستتضح عندما يتقدم بنا التحليل.

وغالباً ما يستخدم البرجماتيون مصطلح المعرفة بطريقة مذمومة، وكأنهم يشيرون إلى شيء ما عليهم تجنبه في الواقع. ويرجع هذا إلى ديكارت، وأكثر إلى فلسفة ما بعد الديكارتية Post Cartesian Philosophy، وفُهمت المعرفة على أنها إشكالية تختص بكيفية استدلال الشخص من معرفة حدسية تختص بحالاته العقلية (الذهنية) الخاصة Private mental states إلى وجود العقول الأخرى والموضوعات غير العقلية (غير الذهنية) nonmental objects وأحياناً تُذكر المشكلة في صورة مصطلحات «الخبرة»، كيف يتجاوز الشخص الذي يعرف خبرته الذاتية، طالما أنه يعتقد أن الخبرة حالة «عقلية» Mental و«ذاتية» Subjective في آن واحد.

وقد اعتبر البرجماتيون هذه الإشكالية إشكالية زائفة Pseudoproblem تقوم على تصورات زائفة من الخبرة والمعرفة والعقل، ولهذا فطالما التصقت هذه الإشكالية بالمعرفة، فقد أصبح البرجماتيون يحاولون تجنب استخدام المصطلح، وصاغوا «نظرية المعرفة» الخاصة بهم في مصطلحات مختلفة من حيث تصور الخبرة والعقل.

وكانت الحركة البرجماتية منذ البداية تعادي الفلسفة الديكارتية بصفة أساسية، وتعادي تلك النظريات الخاصة بالتجريبية الإنجليزية التي تشترك مع الديكارتية Cartesianism، وحاول بيرس في ثلاث مقالات طويلة نشرها عام ١٨٦٨ في «مجلة الفلسفة التصورية أو النظرية» Journal of Speculative Philosophy أن يصيغ «الروح الديكارتية» The Spirit of Cartesianism، وأنكر بالبرهان الطويل المبادىء الرئيسة التي تقوم عليها.[1] وذكر النتائج التي توصل إليها في المجلد الخامس، الفقرة ٢٦٥. وهذه النتائج هي:

١- ليس لدينا فكرة عن الاستبطان Introspection، ولكن كل معرفتنا عن العالم الداخلي تنبثق من الاستدلال الفرضي (الشرطي) hypothetical reasoning الذي يتناول معرفتنا بالوقائع الخارجية.

---

(١) عناوين المقالات الثلاث هي: «تساؤلات تتعلق ببعض الملكات الخاصة بالإنسان» Questions Concerning Faculties Claimed for Man، و«بعض النتائج لأربع قدرات عاجزة» Some Consequences of Four Incapacities و«أسس صلاحية قوانين المنطق» Grounds of Validity of the Laws of Logic، و«نتائج أخرى لأربع قدرات عاجزة» Further Consequences of Four Incapacities، وتوجد هذه المقالات في مجموعة الأبحاث Collected Papers الخاصة ببيرس، المجلد الخامس الفقرات ٢١٣-٣٥٧. ولم يركز بيرس هجومه في هذه المقالات على فكرة الجوهر Substance الديكارتية، كما أنه لم يذكر وجهة نظره الخاصة بما هو «نفسي» Psychical، وما هو «مادي فيزيقي» Physical ولكنه وجّه جلّ اهتمامه نحو المعرفة الديكارتية. وهناك مناقشات أخرى متأخرة نشرها بيرس وذكر فيها أسباب رفضه لنظرية المعرفة الديكارتية.

٢- ليس لدينا فكرة عن الحدس Intuition، ولكن كل معرفة يمكن تحديدها منطقياً عن طريق المعارف السابقة.(*)

٣- ليس لدينا فكرة عن التفكير بدون استخدام العلامات Signs.

٤- ليس لدينا تصور عن اللامعرفة المطلقة The absolutely incog-nisable.

ومن ثم فإنه بالنسبة للمعرفة عند بيرس لم تكن لتفهم على أنهم عملية تستند إلى المعرفة الحدسية لأنفسنا والتي نحاول بطريقة ما أن تشتمل على الموضوعات الأخرى الخارجة عن ذواتنا التي لم نحدسها. ولكن إذا كان العلم، وما ينتج عنه من معرفة Knowledge لم ندركه داخل إطار الفلسفة الديكارتية، فأين وكيف تمت دراستها؟ ومن ثم فإن الإجابة القاطعة للحركة البرجماتية نجدها في دراسة «البحث» وهي تختص «بالبحث في البحث» By inquiry into inquiry.

٢- تصور بيرس للبحث

وضع بيرس تصوره الأساسي عن البحث في مقاله الذي أصدره عام ١٨٧٧ بعنوان «تثبيت الإعتقاد The Fixation of Belief، والموقف الذي أخذه بيرس كما صوره ماكس فيش Max H. Fisch قريب للغاية من موقف عالم النفس الإنجليزي «ألكسندر بين»(**) Alexander Bain، وقد قوّم بيرس

(*) نذكر هنا أهمية الخبرة في المعرفة البرجماتية (المترجم).

(**) الكسندر بين (١٨١٨-١٩٠٣) كان من أبرز تلاميذ چون ستيوارت مل، وكان أستاذاً بجامعة أبردين، وله عدة كتب منها: «الحواس والعقل» ١٨٨٥ و«الإنفعالات والإرادة» (١٨٥٩) و«الروح والجسم» (١٨٧٣) و«المنطق» (١٨٧٥) ساهم في «منطق» مل وله «ترجمة لحياة چون ستيوارت مل». (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، ص ٣٥٠ (المترجم).

أفكاره المبكرة عندما تقدمت به السن والمعرفة، إلى الحد الذي جعل بعض المعلقين على فلسفته يعتبرون هذا التقويم بمثابة نظرية أخرى في البحث.[٢] ولكن الصيغة الأصلية التي لها مثل هذه الأهمية التاريخية في تطور البرجماتية والتي يجب أن ننظر إليها هنا على إنها الأساس، هي غالباً ما نسميها «نظرية الشك/ الإعتقاد في البحث» The doubt/ belief theory of inquiry. وقد استخدم مصطلح «البحث» Inquiry في مقال عام ١٨٧٧ لكي يشير إلى To denote الصراع الذي نشب لكي يتجاوز حالة إثارة الشك The irritation of doubt إلى حالة الاعتقاد (اليقين)، وعلى الرغم من اعتراف بيرس بأن «هذا لا يلائم في بعض الأحيان ما كان يقصده»(*). (المجلد الخامس، الفقرة ٣٧٤) واستمر بيرس يقول:

«إن إثارة حالة الشك هو الدافع المباشر الوحيد من الصراع وذلك لإرساء قواعد الإعتقاد (اليقين)... ولهذا، فإنه بحالة الشك إنما يبدأ الصراع وبالتوقف عن الشك ينتهي، ولهذا أيضاً فإن الموضوع الوحيد للبحث هو تثبيت اليقين The settlement of opinion». (المجلد الخامس، الفقرة ٣٧٥).

إذاً فقد أخذ بيرس في اعتباره أربعة مناهج لتثبيت الاعتقاد. ففي منهج العناد The method of tenacity يحاول الإنسان ببساطة أن يثير الشك بجهد غامض لإعادة الثبات، وبهذا يداوم على الإعتقاد بلا انقطاع وقد بدأه

---

(٢) انظر بحث موراي جي. مورفي Murray G. Murphey «تطور فلسفة بيرس» The Development of Peirce's Philosophy لتتعرف أكثر على نظرية البحث وتطورها عند بيرس.

(*) Inquiry معناها المألوف البحث العلمي مثلاً، ولكن بيرس يستعملها بمعنى الرغبة في الانتقال من حالة الشك إلى حالة الإعتقاد، وعند ديوي تعني الرغبة في تغيير الواقع تغييراً يكون أكثر تحقيقاً لمصالح الإنسان». د. زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ص١٣٣ (المترجم).

الإنسان من قبل بالشك. وفي منهج السلطة The method of authority يبحث الإنسان عن إثارة حالة من الشك عن طريق إخضاع معتقداته لإحدى السلطات المقبولة. وفي المنهج القبلي The priori method يقبل الإنسان بعد البرهنة تلك الاعتقادات التي يجدها أكثر ملائمة، فالإنسان يعتقد «فيما هو متعلق بالفكر» (المجلد الخامس، الفقرة ٣٨٥). ويذكر بيرس أن معظم الفلاسفة انتهجوا المنهج القبلي، ويعطينا مثالاً على ذلك بديكارت على وجه الخصوص (المجلد الخامس، الفقرة ٣٩١). أما المنهج الرابع، والذي يقبله بيرس ذاته، وسخره في مجال الفلسفة، فهو منهج العلم The Method of Science.

ولم يحاول بيرس في مقاله «تثبيت الإعتقاد» أن يصف المنهج العلمي بشيء من التفصيل، فإن ذلك تم في مقالات أخرى بالفعل في أعمال بيرس ككل، ولكنه أورد فكرة عامة عن المنهج العلمي نتبينها فيما يأتي من عبارات: «إنه المنهج الذي تمكنا به من تحديد معتقداتنا عن طريقه ولايمت للإنسان بصلة، ولكنه يمت بصلة لديمومة خارجية، أي لشيء ليس لفكرنا تأثير عليه .. فيجب أن يكون شيئاً ذا تأثيرات أو ينبغي أن يؤثر - على كل إنسان، وعلى الرغم من أن تلك المشاعر الضرورية مثلها مثل العديد من الحالات الفردية، فإنه مع ذلك يعتبر المنهج الذي يصبح نتائجه النهائية بالنسبة لكل إنسان هي نفسها، وهذا هو المنهج العلمي. (المجلد الخامس، الفقرة ٣٨٤).

إن المنهج العلمي -كما يفهم- هو المنهج الذي إذا اتبع باستمرار يؤدي بالضرورة بكل باحث علمي إلى نفس النتيجة.

أما علاقة الاعتقاد بالعادة فإنها تطورت في المقال الذي صاحب ظهور المقال الأول «كيف نجعل أفكارنا واضحة؟» (أو كيف نوضح أفكارنا؟) How To Make our ideas clear? الذي ظهر بعد سنة من ظهور المقال الأول وفي

نفس المجلة، فلدينا هنا - كما لاحظنا من قبل في الفصل السابق - الصيغة المبكرة الأولى عن القضية البرجماتية، وعلى الرغم من هذا فإن هذا العنوان لم يستخدم بعد. ومن ثم فإن التأكيد الذي ذكره «بين» Bain عن العلاقة بين الإعتقاد والعادة يظهر الآن بصورة قوية:

«إن الوظيفة الكلية للفكر هي إيجاد عادات من الفعل، .. فإن ما يعنيه الشيء هو ببساطة ما تتضمنه العادة ... فلا يوجد تمييز في المعنى يكون أكثر اتساقاً من وجوده في أي شيء آخر، ولكن الفرق الممكن يظهر من خلال الممارسة».

(المجلد الخامس، الفقرة ٤٠٠).

وقد لاحظنا في الفصل السابق رد فعل بيرس إزاء هذه الصيغة عن المعنى، وتوسيعه له لكي يربط بين محاولة الإصلاح وتحقيق هدف معقولية الذات Reasonableness Concrete Reason ونلاحظ الآن أن نظريته في البحث تتغير بطريقة مشابهة أو متناظرة Correspondingly altered.[٣] وقيل فيما بعد إن البحث يكون مدفوعاً «بالإنجذاب نحو الفكرة ذاتها» (المجلد السادس، الفقرة ٣٠٧)، ومن المفترض أن الأفكار إنما تكون جذابة طبقاً لما لها من قدرة على الإسهام بقدر من الجاذبية الجوهرية والنهائية التي تنسب إلى معقولية الذات... ويترسخ التأكيد الأساسي على البحث مثل التأكيد على ذوبان الشك في الإعتقاد، لكي يحل محله البحث داخل الميتافيزيقا المثالية عند بيرس. وبالطبع، فإن هذه النظرية كانت نظرية چيمس المبكرة عن البحث، قبل أن تظهر التعقيدات المتأخرة في فكره والتي تركت تأثيرها على التطور التاريخي لنظرية البحث البرجماتية.

---

(٣) انظر موراي چي. مورفي، «تطور فلسفة بيرس»، ص ص٣٥٦-٣٦٤.

٣- آراء ديوي في البحث

صدرت دراسة منطق ديوي عام ١٩٣٨ بعنوان: «نظرية البحث» The Theory of Inquiry ويعتبر من أكثر الصيغ نضجاً في مجال علم المناهج «الميثودولوجيا»، ولكن استمراراً للاتجاه الذي أشار إليه في أعماله المبكرة مثل «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic و«كيف نفكر؟» How to think?، فإن هناك دليل على أن مقال بيرس «تثبيت الإعتقاد» ترك تأثيره على ديوي في عمله المبكر، وحتى في كتابه «المنطق» Logic حيث كان معنياً بأن يؤكد بالدليل على وجه الشبه بين آرائه في «المنطق» بتلك لدى بيرس، وكان أحد مراجعه الأساسية التي أشار فيها لبيرس المادة التي وجدها في بحث «تثبيت الإعتقاد».[٤] وهناك محاولة لبيان أن أعمال ديوي وبيرس في هذا المجال أعمالاً متكاملة حقاً، وعلى الرغم من ذلك فقد كان رد الفعل عند بيرس عنيفاً ضد الصيغة التي كتبها ديوي مبكراً عن موقفه (موقف ديوي)، ومع ذلك فإنه يوجد بعض الفروق الأساسية المهمة لتأكيد ذلك، ويجب ملاحظتها أولاً.

وأحد هذه الفروق يدور حول تأكيد ديوي في «المنطق» على الخاصية الإشكالية للموقف كبحث أساسي Problematic Character of a situation as initiating inquiry أكثر من تأكيده على الحالة السيكولوجية (النفسية) للشك. وفي الصحف الأولى من كتابه «المنطق» كتب عن البحث باعتباره الوسيلة لإثبات الإنتقال من «الموقف غير المحدد» An indeterminate situation إلى «الموقف المحدد» Determinate situation ولكن بتقديم برهانه هذا أصبح من الواضح أن ذلك «غير المحدد» يمكن أن يعالج الإشكالية Problematic، وأن الخاصية الإشكالية للموقف تتضمن

---

(٤) انظر ديوي، «المنطق»، ص١٤ رقم ٤.

اضطراب الفعل المستمر.[٥] وعلى الرغم من أن التأكيد يختلف نوعا ما بهذا الشكل عن الصيغة المبكرة لبيرس، فإن الشك يبدو أنه يتضمن اضطراب unsetting الاتجاه المعتاد للفعل.

وهناك فرق آخر يأتي عن طريق التأكيد على «الموقف» Situation، فإذا كان اضطراب الفعل متضمن في موقف بعينه، إذاً فإن حل البحث سيفترض أنه موجود أيضاً في استمرار الفعل بإزاء هذا الموقف المحدد.. وقد حاول أحد الباحثين أن يبرهن على أن بيرس يجب أن يقف نفس الموقف، طالما أن الشك المحدد يجب أن يكون له موضع محدد واثبات محدد، ومع ذلك فإن بيرس في الحقيقة لم يؤكد على باحثين بعينهم في مواقف بعينها، ولكن جاء تأكيده على مجموعة من الباحثين، أما «العادة» التي يكوِّنها البحث وموضوعها فقد ساقها لنا بيرس في عبارات مثل: «كيف يمكن أن تؤدي بنا إلى الفعل، ليس فقط تحت مثل هذه الظروف كما يبدو لنا أنها نشأت، ولكن تحت ظروف يمكنها أن تحدث فيها، ولا يهم كيف يمكن أن تكون بعيدة الاحتمال؟ (المجلد الخامس، الفقرة ٤٠٠)، وسوف يتبين لنا الفرق الذي نشأ عن هذا التأكيد في مناقشات متأخرة عن الصدق Truth ونظرية المعرفة. و مايز ديوي بين «الحكم» و«القضية» مما مكّنه - على الأقل إلى درجة ما - من أن يجد مكاناً في تقديره لتأكيد بيرس، ومع ذلك فإن التأكيد على أنماط محددة من المواقف تستدعي بحثاً محدداً، وهو ما نجده عند ديوي (وعند چيمس وميد)، وهو أحد التناقضات البارزة بين بيرس وباقي البرجماتيين الكبار.

---

(٥) يبدو هذا أكثر وضوحاً في حالة هربرت ميد، فبالنسبة إليه فإن الإشكالية تعود إما إلى موقف لم يجد المثيرات المناسبة لكي يتجه نحو الفعل المستقبلي، أو إلى الصراع الدائر بين مختلف اتجاهات السلوك.

انظر: مقال «نظرية الصدق البرجماتية» A Pragmatic Theory of Truth.

ويتمثل الفرق الثالث، وربما كان الفرق الأكثر أهمية في موقف ديوي من أن «الحكم» يعتبر التحول الحقيقي من موقف «الإشكالية» غير المحددة إلى موقف «الإشكالية» المحددة. و«القضية» الأخيرة التي تتناقض مع الحكم، هي فقط القضية التي تستخدم التعبير الرمزي في الحكم، ولهذا تظل ممكنة الاستخدام في مواقف أخرى.[٦] وهنا يوجد شيء ما متناقض تقريباً وهو: أنه بالنسبة لبيرس -كعالم تجريبي- فإن البحث ينتهي بإحداث تغير في الإعتقاد، وبالنسبة لديوي - وهو ليس عالماً تجريبياً ينتهي به البحث إلى تغير في الموقف. ويبدو أنه كما لو كان ديوي أكثر «تجريبية» من بيرس. والآن نجد أن بيبرس ذاته يصر في مجال القضية البرجماتية على أن المعنى يجب أن يتضمن في الفعل، ولكن مثل هذا الفعل كان ضرورياً لكي نحصل على دليل حسيّ للبرهنة على تكوين اعتقاد جديد، بينما يتضمن هذا الرأي -على أية حال- تغيراً في الموقف المباشر، والتغير ليس -كما لدى ديوي- تحويلاً في الموقف ذاته من «الإشكالية» إلى «اللاإشكالية».

إن الفروق الثلاثة التي بيّناها فروقاً أساسَية مهمة. ويبدو أن لها علاقة بالواقع Fact الذي يتوجه إليه اهتمام ديوي ومنه إلى البحث الأخلاقي، بينما يتوجه اهتمام بيرس إلى البحث كما يتناوله العالم الطبيعي، وبعد الأخذ في الاعتبار علاقة المنطق بالبحث، فإننا سوف نعوّد إلى القضية الخاصة لنؤكد.

---

(٦) إن فكرة تمييز الحكم من القضية - وهي فكرة مسيطرة على عقل وكتابات ديوي - ليست فكرة تقليدية. وبالنسبة لي (تشارلز موريس) فهي على الأقل فكرة ينشأ عنها بعض الصعوبات وبالتالي لم أؤكد عليها في حديثي. ولمناقشة هذا الموضوع انظر أبحاث متعددة عن ديوي كتبها إرنست ناجيل في مجلة «هيمنة العقل» Sovereign Reason، وعلى وجه الخصوص بحث «تجديد ديوي للنظرية المنطقية» Dewey's Reconstruction of Logical Theory. وانظر أيضاً: إتش.إس. ثاير H. S. Thayer «منطق البرجماتية» The logic of Pragmatism.

على أنه بالرغم من أن هذه الفروق مؤكدة، فإن النظريات العامة لبيرس وديوي بإزاء البحث هي نفسها بصفة أساسية.

٤ - المنطق والبحث

لقد كتب ديوي عنواناً كبيراً في هذا المجال هو «المنطق: نظرية البحث» جعل فيه ديوي المنطق ونظرية البحث متطابقان، وقد ظهر بوضوح في هذا الكتاب أن ديوي يعمل على شاكلة بيرس: «فإن بيرس على حد علمي هو أول كاتب في المنطق جعل البحث ومناهجه المصدر الأول والأساسي لموضوع المنطق. (المنطق، ص 9n).

واعتبر أن المبادىء التي وضعها في المنطق - والتي سنعرضها حالاً - نقل أمين عن بيرس (المنطق، ص١٤، ٤ .n). فكيف يمكن إذاً أن نفسر خطاب بيرس ١٩٠٥ إلى ديوي والذي ذكر فيه أن نظرية ديوي تمنع بالتأكيد تكرار كل الأبحاث التي من هذا النوع والتي استوعبتها خلال الثماني عشرة سنة الأخيرة؟».

ويتعلق الفرق بين الفيلسوفين في جانب منه عند استخدام المصطلحات Terminological، فقد استخدم بيرس مصطلح «المنطق» بتوسع أكثر من المعتاد، واعتبره «بالمعنى العام» General sense مجرد اسم آخر لنظرية العلامات .. شبه ضروري أو له ضرورة زائفة The quasi- necessary أو صوري، نظرية العلامات (المجلد الثاني، الفقرة ٢٢٧)[٧]، وبهذا المعنى العام ينقسم المنطق كما لوحظ إلى ثلاثة أقسام فرعية، أحد هذه الأقسام «المنطق النقدي»

(٧) لاحظ ديوي نفسه أن «نظرية البحث» Inquiry تتضمن رموزاً Symbols لأن النظرية المنطقية تتضمن نظرية في الرموز (المنطق ص ص١٩-٢٠)، ولكن الموقف لم تتم معالجته بالتفصيل.

Critical logic أو «المنطق الخالص» Proper logic، وهو نظرية الاستدلالات Inferences (الإبعادي Abductive والاستدلالي Deductive والاستقرائي Inductive)، ولكن بيرس أيضاً لديه تقسيم آخر لنظرية العلامات و«المنطق» Logic بالمعنى العام وقد سمّاه بأسماء متعددة مثل، فن الخطابة النظري Speculative Rhetoric و«ثنائي المنهج» methodeutic وكذلك «نظرية في البحث» (المجلد الثاني الفقرة ١٠٦) وتحدث في هذا النوع الثالث من التقسيم عن «نظرية العلامات» باعتبارها أعلى قسم للمنطق وأكثره حيوية.

وبناءً عليه فإن تصور ديوي «للمنطق» على أنه نظرية في البحث يمكن أن يعتبر نوع من التطوير لهذا القسم الثالث من المنطق بالمعنى العام وهو المصطلح الذي اختاره بيرس، بينما عمل ديوي نفسه، في مجال المنطق النقدي، وهكذا فإن الفرق الواضح يتعلق باستخدام المصطلح بصفة أساسية، وطالما أن معظم المناطقة المعاصرين لا يستخدمون «المنطق» بمعنى نظرية البحث، فإن بعض الأشخاص قد تعاطفوا مع كتاب ديوي مثل سي. آي. لويس C. I. Lewis وشعروا بالأسف لأن ديوي استخدم مصطلح «المنطق» كعنوان له. واعتقد أن ديوي نفسه اعترف بهذا وذكر أنه ربما كان من الأفضل أن يسمى كتابه ببساطة «نظرية البحث».

وعلى الرغم من ذلك فهناك نقطة تستحق أن نذكرها وهي أن الفرق ليس اصطلاحياً ولكنه تاريخياً. فعمل بيرس الرئيس كمنطقي كان في «المنطق النقدي» وعُنى في البداية بتحليل أشكال الاستدلال بالتفصيل. وكان عمل ديوي المبكر هو «المنطق» غير أنه لم يطوّر أو يؤكد على الناحية «الصورية» في المنطق. وهكذا فإن خوف بيرس من أن نظرية ديو ي لن يكون لها مكان حيث أن مجال عمل ديوي الأساسي كان في المنطق على وجه الخصوص. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا لم يكن حقيقياً حيث طوّر ديوي موقفه كما رأينا في كتابه «المنطق»: «نظرية البحث».

وبالنسبة لبيرس، فهناك ثلاثة أشكال للاستدلال هي: الإبعاد (أو الفرض) والاستدلال، والاستقراء. وفي كل شكل من أشكال القياس كان الاستدلال يتطلب بالإضافة إلى ذلك قضايا أو مقدمات Premises ومبدأ موجه منطقي أو صوري A leading principle.

والمبدأ الموجه المنطقي هو منهج دائماً ما يوجه إلى «الصدق» أو يوجه إلى تقريب غير محدد نحو «الصدق»، أو هو بوجه عام، تقريب نحو التحقق من الصدق بالتجربة. (المجلد الثاني، الفقرة ٣٥٤).

إن المبادىء المنطقية الموجهة إما صورية Formal أو مادية Material، ويتصف النوع الأول بالصدق في كل لحظة يوجد فيها، وهكذا فإن المبدأ الموجه المنطقي الصوري بالنسبة لقياس بربارا Barbara (كل أ هي ب، وكل ب هي جـ إذاً كل أ هي جـ) يفسره بيرس على أنه مبدأ عام في نظرية العلامات:

«إذا كانت علامة واحدة تصدق بوجه عام على كل شيء فإن كل شيء يصدق على العلامة الثانية، وهذه العلامة الثانية تصدق بوجه عام على كل شيء، وكل شيء يصدق على العلامة الثالثة إذاً فإن الأولى تصدق بوجه عام على كل شيء وبالتالي يصدق على العلامة الثالثة». (المجلد الخامس، الفقرة ٣٢٠).

ما مكان مثل هذه المبادىء الصورية أو المنطقية الموجهة في تحليلات ديوي؟ لقد ذكر ديوي موقفه العام كما يأتي:

«كل الأشكال المنطقية بخواصها المميزة تنشأ داخل عملية البحث، وتُعني بضبط البحث حتى يمكن استنتاج قضايا مؤكدة مبرهن عليها. ويتضمن هذا التصور أبعاد أكثر مما تكشف عنه معظم الأشكال المنطقية خاصة عندما نفكر في عمليات البحث المستخدمة بالطبع إنها تعني ذلك، ولكنها تعني أيضاً أن الإشكال تنشأ في عمليات البحث. (المنطق، ص ص٣-٤).

ويقول في نسبة الإستدلال إلى المبادىء المنطقية ما يأتي:

«إن هذه المبادىء المنطقية المرشدة ليست مقدمات في الاستدلال أو البرهان .. إنها أشكال تنتج عن طرق معالجة موضوع البحث الذي يوجد لكي نحدد عن طريقه نتائج كانت معروفة في الماضي الذي وجدت فيه، وذلك لإمكان تنظيم إجراء بحوث أخرى مستقبلية حتى يتم تحديد الأسس التي عن طريقها يتم التساؤل». (المنطق، ص١٣).

وهكذا فإن المبادىء المنطقية هي «مبادىء من الوجهة العملية قبلية A priori بالنسبة للبحث المستقبلي»، «وتعتبر هي المصادرات Postulates والشروط Stipulations»[٨]. وبهذه الطريقة وجد ديوي مكاناً للمبادىء المنطقية الصورية في نظريته العامة للبحث، وبنفس الطريقة كان قادراً على استيعاب وتعديل القضايا التحليلية غير الوجودية The analytic nonexistential propositions للرياضيات وكتب عن المنهج الرياضي يقول «لقد تكوّن هو ذاته (المنهج الرياضي) على أساس التحرر من الاستدلال الوجودي للنوع وعلى الأخص الاستدلال غير المباشر، والذي يعتبر أكثر تأخراً وبعداً». (المنطق، ص ٣٩٦).

لذلك فإن معارضة بيرس لديوي تقوم على أساس «تأصيل» ديوي لتصور المنطق الذي لا يشتمل على ذلك النوع من البحث المنطقي الذي برهن بيرس على أنه منطق لا أساس له على ضوء موقف ديوي المتطور.

---

(٨) انظر: ديوي «المنطق»، ص ص١٤-١٦، وقد طوّر لويس موقف مشابه عندما تناول تصوره عن البرجماتية كمبدأ قبلي Pragmatic a priori مستخدماً مصطلحات عدّها هو نفسه مبادىء منطقية مثل «مبادىء» الإجراء أو الإجرائية Principles of Procedure، وقد عرض وجهة نظره في بحثه المهم «مفهوم البرجماتية للقبلي» A Pragmatic Conception of A priori وقام أخيراً بتطويرها في كتابه «العقل ونظام العالم»، ولكن - لدهشتي- لم يشر ديوي إلى تحليل لويس المبكر عندما كتب «المنطق».

ويشمل منطق ديوي المنطق النقدي لبيرس، لأن نظرية البحث عند ديوي تشتمل على أربع مراحل رئيسة هي:

أ - شكل المشكلة.

ب- صياغة الفروض لحل المشكلة.

جـ- استدلال النتائج من الفروض.

د - اختبار صحة الفروض عن طريق اختبار النتائج التي يستدل عليها.

وتطابق المراحل الثلاثة الأخيرة بوضوح نسبياً أنواع الاستدلال الثلاثة لبيرس وهي: الإبعاد أو الفروض، والاستدلال، والاستقراء. وبهذه الطريقة فإن الأنواع الثلاثة «للمنطق النقدي» التي حللها بيرس وضعت في مكانها في نظرية البحث كما نجدها في تحليلات ديوي.(٩)

٥ - چيمس ومفهوم الصدق

إن نظرية البحث هي فكر موجه نحو حل مشكلة ما، وهي لب النزاع بين البرجماتيين حيث يرون أن الإشكالية تحدث دائماً في سياق غير إشكالي Unproblematic ولا يمكن أن يكون كل شيء «إشكالي» أي أن يكون محل شك كما جاء في الصياغة المبكرة لبيرس على الإطلاق. ولهذا فلا يوجد مشكلة عامة عن «وجود العالم» The Existence of the World، كما لا

---

(٩) حقاً، إن بيرس ذاته كان يعتبر - أحياناً - أنواع الاستدلال الثلاثة وكأنها مراحل ثلاث في نظرية البحث وهي: الإبعاد Abduction والاستدلال Deduction والاستقراء Induction، وهي التي أطلق عليها مراحل البحث وهي: الشعور The first، والإرادة Second والمعرفة / الإعتقاد Third.

انظر: المجلد السادس، الفقرات ٤٦٨-٤٧٣، وهو يطلق على الفرض اسم «الإبعاد» Abduction أو Retroduction.

توجد «خبرة» Experience تمثل مثل هذه الإشكالية. فالكائنات الإنسانية المفكرة تعيش في عالم يواجه من المشكلات في هذا العالم أكثر مما يواجهون. وقد طوروا مناهج نظرية البحث خصيصاً لكي يتناولوا هذه الإشكاليات، وكان المنهج العلمي هو المنهج المفضل للفيلسوف البرجماتي.

وعن طريق استخدام تعبيرات هذا الاتجاه، فإن العالم الذي يقع تحت خبرتي ليس هو هذا العالم، في كليته، موضوعاً «للصدق» أو «المعرفة»، ونحن متأكدون من أن چيمس تحدث عن الخبرة المباشرة على أنها «إدراك مباشر» Knowledgy by acquaintance، ولكن الفرق بين الخبرة المباشرة لشيء ما، ومعرفته Knowledge about it تبرهن على أنه فرق كبير، حتى أن البرجماتيين المتأخرين عادة ما يحددون «المعرفة» والصدق بفروض مكتوبة بطريقة الرموز «عن» شيء ما، إذاً فالصدق والمعرفة خاصيتين من خواص الأفكار أو الرموز، أي خواص هذه؟ إنه من المفيد أن نبدأ مع چيمس بالإجابة عن هذا التسأول، طالما أن توجهه لا يكون باستخدام تعبيرات مباشرة من نظرية البحث كتلك الخاصة بالبرجماتيين الآخرين.

كان چيمس صريحاً في قوله إن القضية البرجماتية للمعنى يجب أن تطبق في مجال تحديد معنى الصدق(١٠)، ولنتذكر أن چيمس فسّر هذه القضية بطريقة الفصل أو الجمع المنطقي Disjunctively بين الظواهر، كما يوجد إما في العبارة «الإحساسات التي نتوقعها» أو «ردود الفعل التي يجب أن نستعد لها». وقد كنا نتوقع هذا الفرق لكي نبينه في نظرياته عن الصدق. وقد بدأ بالأعتراف بأن الفكرة الصادقة «تتفق» أو «تتطابق» (تتناظر) مع الواقع

---

(١٠) تجد المصادر الرئيسة لتحليل چيمس لعبارة «الصدق» Truth في فصول كتبه، تصور البرجماتية للصدق» في كتابه البرجماتية Pragmatism وتتمة للبرجماتية A Sequel to Pragmatism في كتابه «معنى الصدق» The Meaning of Truth.

(١١)، ويصبح التساؤل عندئذ عما يعنيه بكلمتيّ «يتفق» أو «يتطابق» إذا كانت القضية البرجماتية في المعنى أصبحت مقبولة. ثم اعترف چيمس بعد ذلك بأنه إذا كانت العلامة نسخة من الصورة a copy - an icon، فإن صورة نظرية الصدق تصبح مفهومة. ولكن ليس كل العلامات صوراً، وإذا كان المفسِّر المنطقي صورة، كما قال بيرس، عادة، إذاً فكيف يمكن أن تتفق العادة أو تتطابق مع أي شيء آخر؟

لقد فكر چيمس في استخدام عدة طرق لكي يعبر بها عن مفهوم «الصدق» Truth، ووجد أن الأنموذج الأصلي لعملية الصدق هو المبدأ الموجه منطقياً أو تصورياً نحو الفكرة وإلى ما يمكن أن يتم «التحقق منه تحققاً كاملاً وببساطة» وعلى سبيل المثال، فإن الإحساسات أو التأثيرات الحسِّية تجعل الإنسان يتوقع ما يحدث بالفعل. وخلاف ذلك يكون بالإمكان تحقيق المبدأ الموجه منطقياً أو صورياً بصورة جزئية وليس بصورة كلية كاملة، ولكن التطابق (التناظر) مع الوجه الثاني لعبارة چيمس عن القضية البرجماتية يبدو في نصوص تفترض أن فكرة ما تكون صادقة إذا كانت تمثل ردود الأفعال التي تشير إلى أننا يجب أن نستعد لها وثبت أنها مناسبة لاستمرار مجريات الفعل الذي ارتبطنا به، والعبارة الآتية تبين وجهتيّ نظريته معاً:

«أن يتفق مع الواقع بمعناه الواسع يمكن أن يعني فقط أن يتم الإرشاد إلى الواقع إما مباشرة أو إلى ما حوله، أو أن يوضع الواقع في مجال العمل المرتبط به إما لكي يتناوله أو يتناول شيئاً ما يتصل به، وهذا أفضل من عدم اتفاقنا ومن الأفضل إما أن يكون ذهنياً أو عملياً»!. (البرجماتية، ص ص٢١٢-٢١٣).

وعندما ذكر چيمس أن الموضوع الصادق هو تلك الفكرة «التي تعطي أقصى حد للاقتناع أو الشعور بالرضا، (مقالات في التجريبية الأصيلة، ص٢٦٠)،

---

(١١) چيمس، «البرجماتية»، ص ص١٩٨-٢٠٠.

وقد شمل الموضوع الصادق بوضوح كل من حدوث التنبؤ «تأثيرات حسّية» Sensible effects والشعور بالاقتناع أو الرضا بإزاء ردود الأفعال التي يجب أن نستعد لها بسبب وجود الفكرة، إذاً فإنه من دواعي السخرية أن نقول على لسان چيمس إن أي فكرة بالنسبة إليه تمنحنا الشعور بالاقتناع فهي صادقة. ثم عرض علينا چيمس الصعوبات التي تواجه مفهوم الصدق نذكر أنها أحياناً ما تأتي في الحقيقة «بالإحساسات المتوقعة» Expected Sensations بينما في أوقات أخرى يبدو أن هناك شعور بالرضا بهذا الاقتناع Satisfactoriness خاصة تجاه رد الفعل الذي تمنحه لنا الفكرة، وهكذا استطاع أن يكتب أنه «على ضوء المبادىء البرجماتية فإننا لا نستطيع أن نرفض أية فروض إذا كانت النتائج نافعة للحياة التي تنبع منها. (البرجماتية، ص ١٧٧).

وهناك مبدأ أساسي واضح تسبب في هذا الخلط، وهو أن التأكيد على الصدق كأفكار قابلة للتحقيق يضع «الإحساسات المتوقعة» Expectation Sensations في جانب تفسيره للقضية، بينما ينمو تأكيده على الصدق كأفكار مقنعة في بعض الأحيان إلى أن تعكس النتائج النافعة للحياة، وذلك عندما حاول تفسير تلك القضية، وهكذا، فإن التأكيدين الواردين بشأن نظرية چيمس في الصدق يعكسان وجهتي نظره في المعنى.

وحاول ديوي أن يحل مشكلة هذا الخلط لدى چيمس وذلك بالتأكيد المستمر الذي نجده في البحث التاريخي المهم الذي نشره بعنوان: «ماذا تعني البرجماتية بلفظ العملي؟»[١٢] What does Pragmatism mean by practical? ناقش فيه ديوي معالجة چيمس لنظرية الصدق وذكر أنه يوجد

---

(١٢) المجلة الفلسفية Journal of philosophy، ٥-١٩٠٨ ص ص٨٥-٩٩. وتم طباعته أيضاً في كتاب ديوي «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic، والنص المقتبس في هذا السياق من الكتاب الأخير ص ٣٢٢n.

«خلط في اختبار فكرة ما كفكرة خاصة تلك المتعلقة بقيمة إعتقادي كإعتقاد»، وأعلن أنه لا يوجد اقتناع لا يعد جزءاً من الفكرة وله صلة بإمكان التحقق من صدقه. واعترف چيمس بنفس الموضوع في خطاب له عام ۱۹۰۷ إلى آرثر لفجوي Arthur O. Lovejoy استجابة لنقد مشابه للفجوي، كتب أنه أخطأ Sinned في خلطه بين نتائج الأفكار الصادقة القائمة بذاتها Per se، وبين نتائج الأفكار حتى تلك التي نعتقد فيها».(۱۳)

إن هذا الإعتراف الذي صدر عن چيمس، كما يبدو، اعترافاً مهماً، ولا يستطيع إزالة آثار كتاباته المبكرة عن الصدق، ولا أن يمنع غالباً الخلافات الحادة التي نشأت بين نقاده ومناصريه معاً. ولكن الكتابات التي تحتويها دقيقة للغاية، والموقف الذي آثاره چيمس له على الأقل ميزة إصدار كتابات مهمة كثيرة عن علم العلامات ونظرية البحث، مثل الشروط التي على أساسها تكون العلامات «مقبولة» وعلاقة المعنى بالقيم، وصفات العلامات الأخلاقية والدينية. ولم يكن لدى چيمس نظرية في العلامات متطورة تطوراً كافياً، تسمح له بالتحدث بوضوح في مثل هذه الموضوعات، وهكذا فإن أخطار الخلط بين المعنى والمغزى Signification and Significance (أو الدال «وهو الجانب المرئي أو المسموع من العلاقة Signification و«المدلول» وهو الجانب المجرد وغير الملموس للعلاقة)، والصدق كقيمة ثم قيمة الصدق. ولكن كتاباته ساعدت على أن تفرض على مثل هذه الكتابات الوضوح. ولم يكن ممكناً بعد چيمس أن نقول بوعيّ صحيح وببساطة إن الفكرة الصادقة «تتطابق مع الوقائع» Corresponds to the facts.

(۱۳) تجد الخطاب المقتبس في كتاب «فكر وشخصية وليم چيمس» The thought and character of William James بقلم رالف بارتون بيري Ralph Barton Perry.

٦- بيرس وديوي والصدق

قام كل من بيرس وديوي بتحليل مصطلح «الصدق» داخل سياق نظرية البحث، واعتبر بيرس في بحثه «تثبيت الإعتقاد» أن المنهج العلمي هو المنهج الوحيد بين المناهج الممكنة الذي يستخدم في هذا «التثبيت»، ولم يكن لتصور الصدق دور بارز:

«ولهذا يبدأ الصراع بالشك، وبتوقف الشك ينتهي الصراع، ومن هنا فإن الموضوع الوحيد لنظرية البحث هو تثبيت اليقين. ويمكننا أن نتخيل أن هذا ليس كافياً بالنسبة لنا، وعليه فإننا يجب أن نبحث ليس فقط عن اليقين، ولكن عن يقين حقيقي، إلا أنه يجب وضع هذا التصور موضع الاختبار، وسيثبت أن هذا التصور بلا أساس؛ لأنه بمجرد أن تصل إلى يقين ثابت فستشعر بأنك مقتنع تماماً، سواء أكان الاعتقاد صادق أم كاذب». (المجلد الخامس، الفقرة ٣٧٥).

وتشير هذه العبارة إلى أن صدق الإعتقاد بالنسبة لبيرس ليس كافياً لكونه مقنع تماماً لليقين، إذاً: ما صدق الإعتقاد؟

سوف ينعكس تأكيد بيرس ذاته على المنهج العلمي -كما رأينا- على قبوله للقضية البرجماتية. وإذا كان، كما تذكر القضية البرجماتية (على الأقل في صيغتها المبكرة)، معنى التصور الذهني موجود في نوع الخبرات التي ستنشأ عن نوع معين من الفعل، إذاً فإن صدق القضية يثبت هذا التصور الذي يمكن أن يعني ببساطة التحقيق Verification، وأن نوع الخبرة في القضية حقاً ناشىء عن نوع الفعل في القضية. إن القضية الصادقة ستكون عندئذ قضية محققة تحقيقاً تجريبياً، مثل «تحقيق نظرية الصدق» التي ستتناسب مع عبارات إثبات كثيرة عند بيرس وكذلك مع عبارات إثبات كثيرة عند چيمس وديوي وميد بالتأكيد إنها علاقة رئيسة في نظرية الصدق عند البرجماتيين.

ولكن هناك بعض التعقيدات، فبالنسبة لبيرس، طالما أن مثل هذه المعاني عامة، فإنه لا يمكن أن تكون محققة تحقيقاً كاملاً أبداً في أي موقف خاص والذي يتطلبه البحث، لهذا فإن تأكيد بيرس ابتعد عن التركيز على البحث في مواقف إشكالية خاصة، ليركز على عملية البحث المستمرة عن طريق مجموعة من الباحثين، ولن يحتاج اليقين الصادق أبداً إلى مراجعة عندما تتقدم خطوات البحث عن طريق الباحثين.

ونشأ عن هذا الوضع إشكاليات كثيرة خاصة مع النقاد الذين تناولوا كتابات بيرس بالنقد والتحليل فهل سلّم بيرس بأن الوضع في البحث لن ينتهي به إلى الحقيقة أبداً؟ أو إذا كان يمكن أن ينتهي به إلى الحقيقة، فهل ستكون الاعتقادات الأخيرة للباحث صادقة؟ أو إذا كان سيأتي ذكر الصدق في عبارات «محددة» خلال البحث بمثابة نظرية للدفاع «المحدد» في هذه العلاقة، ولن نحتاج إلى مناقشة مثل هذه الآراء حالياً[١٤]، ويكفي أن نلاحظ أنه في تحليلات الصدق لا يمكن أن يتأكد الإنسان من أن ما يعتقده في وقت معين وفي موقف محدد هو إعتقاد صادق وبالرغم من ذلك فمن الممكن بالطبع أن يكون صادقاً، هذا ما يعترف به بيرس صراحة، وهذا الاعتراف الذي لم يشعره بالإضطراب يمكن أن يفسر في الحقيقة بأنه كان يتمتع بمزاج خاص هو مزاج العلماء الذين عاش بينهم، واعتياده على أن يعتبر الآراء العلمية تحتوي على موضوعات تجريبية مؤقتة الصدق وقابلة للتعديل كلما تقدم البحث، ولكن هناك حقيقة أخرى ذات صلة بالموضوع وهي أن بيرس لم يعتقد بأن «الإشكاليات الحيوية» Vital Problems في الحياة يجب ألا نحلها بالبحث

---

(١٤) انظر كواين W. V. Quine الكلمة والموضوع Word and Object، ص٢٣، وأيضاً «نظرية الصدق البرجماتية» The Pragmatic Theory of Truth في كتاب: إدوارد مور G. Edward Moore البرجماتية الأمريكية: بيرس، چيمس، وديوي American Pragmatism: Peirce, James, and Dewey

العلمي فقط ولكن بالقلب أيضاً فهو أحرى من الرأس.(١٥)

وعلى الرغم من ذلك فإن معالجة ديوي للبحث كان عن طريق الفعل الأخلاقي حيث يجب أن تكون بؤرة الاهتمام هنا مركزة على الموقف Situation وليس على طريق البحث الطويل عن التعريف، لذلك ركّز ديوي على علاقة البحث بالموقف الإشكالي المحدد -كما فعل كل من چيمس وميد-، وقد جعل هذا الموقف تحليل ديوي للبحث تأكيداً مختلفاً نوعاً ما، ولكنه متسق، أكثر مما نجده عند بيرس خاصة كتابات بيرس المتأخرة. وقد لاحظنا من قبل أن تأكيد ديوي على الأفكار يعتبر «كخطط للفعل» As Plans of Action كما في الأحكام التي تقرر ما يجب عمله لحل مشكلة الموضوعية عن طريق الموقف المحدد لذلك فإذا كان الفعل قد تم تأديته والإشكاليات قد تم حلها فإنه يقال إن الفكرة أو الفرض قد تم التحقق منه، وأنه صادق(١٦). وبهذا المعنى يكون الصدق قد تحدد طبقاً للموقف ويبدو أن موقفه مختلف عن موقف بيرس.

أزالت صيغة ديوي هذا التعارض الظاهري، حيث أبدى ولاءه لاستخدام بيرس لعبارة صادق (١٧)، إلا أن تأكيد ديوي ظل مركزاً على البحث حيث عُنى

---

(١٥) انظر: بحوث عام ١٨٩٨ التي تشكل الفصل الأخير (الخاتمة) من المجلد الأول من مجموعة الأبحاث لبيرس Collected Papers والفصل بعنوان «موضوعات مهمة حيوية Vital important topics.

(١٦) ديوي، «مقالات في المنطق التجريبي»، ص٣٤٦.

(١٧) انظر: كتاب «المنطق» ص٣٤٥. وقد اعترف چيمس (كأحد الذين استعملوا تعبير الصدق)، بأن «الصدق المطلق» لا يعني أية خبرات بديلة في المستقبل، وأن النقطة المثالية الغائبة عنا هي أننا نتخيل أن كل حقائقنا المؤقتة سوف تلتقي عند نقطة واحدة في يوما ما، وأضاف قوله: «وفي نفس الوقت علينا أن نعيش اليوم بالصدق الذي نحصل عليه اليوم، وأن نكون على استعداد في الغد لأن نطلق عليه صفة «الكذب» Falsehood (البرجماتية ص ص ٢٢٢-٢٢٣).

بإقرار الإشكاليات المحددة، وبهذا المعنى الفضفاض تحتاج عبارة «الصدق» إلى إضافة شيء ما أكثر تحديداً. وفي الحقيقة، فإن عبارة الصدق في «المنطق» وعبارة نظرية المعرفة، ترتد إلى الأساس الأول، ويصبح التأكيد على تعبير «الإقرار المبرهن عليه» Warranted assertion أولى. ويكون الإقرار مبرهناً عليه إذا تكوَّن على أساس أن الدليل له علاقة بالإشكاليات المعطاه، وإذا كان الفعل أساس المشكلة المطروحة موجوداً فإن البحث يقوم بحلها. وقد استخدم ديوي لبيان هذه العلاقة تعبير «الحكم» Judgment، أكثر مما استخدم تعبير «القضية» Proposition: والحكم هو إقرار بالموقف المشكل غير المحدد بإزاء موقف غير مشكل ومحدد. وكما ذكرنا من قبل فإنه يمكن وضع نتائج البحث في «قضية» حتى تكون في متناول الاستخدام الممكن في مواقف إشكالية أخرى مشابهة.

ولا نجد هناك اختلافاً للأساس الذي اعتمد عليه ديوي في التحليل طالما أن عملية البحث العامة تهتم بالربط بين البحث العلمي والبحث الأخلاقي، وكلاهما يتبع الأنموذج العام للبحث الذي لخصه ديوي. أما الفرق الموجود بينهما فيمكن إيضاحه عندما نقدم تصور كل منهما عن القيمة فقط.

٧- المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عند بيرس

اعتبر كل من بيرس وديوي منهج البحث اللذين قاما بتحليله هو المنهج العلمي بالإضافة إلى تلك البحوث الخاصة بالفهم المشترك Common Sense على اعتبار أنها إرهاصات العلم. كما اعتبراه أيضاً المنهج المناسب للفلسفة التي قبلت القضية البرجماتية. وكما فعل العلم على زمن نيوتن Newton(*) الذي

(*) إسحق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٣-١٧٢٧) عالم الطبيعة الإنجليزي الشهير كما كان فلكياً ورياضياً أيضاً. وهو مؤسس علم الميكانيكا الكلاسيكي، ومكتشف قانون الجاذبية في الغرب -كما يقال-، وأهم كتاباته هي «المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية» (١٦٨٧) والبصريات (١٧٠٤). (المترجم)

أدخل الرياضيات والتجريب في المنهج العلمي، فكذلك يبدو أن تعميم نظرية البحث جعل كل من النزعة العقلية والتجريبية في مستوى واحد مع الفلسفة التقليدية بينما تجنب التعبير عنهما منفردين[١٨]. وسوف يوجه البحث الفلسفي لحل الإشكاليات الخاضعة للخبرة، وافتراض الحلول التي يمكن اختبارها في العالم الواقعي وهو خاضع أيضاً للخبرة. ولكن بما أن منهج الإبعاد Abduction أو الفرض Hypothesis لا يمثل استقراءً بالنسبة لبيرس. وهو تأمل واضح كما أنه منهج منفصل عن منهج القياس Deduction سوف يتسقا مع قبول القضية البرجماتية، مما يعلمنا أن الفروض المقترحة قادرة على الضبط باستخدام الملاحظة التجريبية Empirical observation.

ومع ذلك فقد شك نقاد كل من بيرس وديوي، فيما إذا كانت فلسفاتهما تتسق بالفعل مع نظرية البحث التي طوّرها وكرّسا نفسيهما من أجلها. وهذا هو الحد الذي وصلا إليه في الواقع، فالنقد الذي يمكن أن يوجه إلى فلسفاتهما بخصوص ابتعادهما عن المنهجية الصريحة، أو يمكن توجيهه نحو نظريتهما في البحث لكونها تعبير غير مناسب لما قاما به في الواقع كفلاسفة. وينظر أحياناً إلى بيرس على أنه سقط في قبضة النزعة العقلية التقليدية - وهو كذلك - لاتباعه المنهج القبلي a priori method، بينما ينظر إلى ديوي على أنه فشل سواء في أن يتعدى مأزق «الذاتية» Subjectivistic للمذهب التجريبي التقليدي أو تعديه النزعة المثالية الموضوعية Objective idealism للتراث الفلسفي الهيجلي. بينما اعتقد أن هذه الاتهامات غير قابلة للدفاع عنها مطلقاً، فقد بدا أنه من الأجدر أن ننظر إلى ما يوجه لأعمال كل من بيرس وديوي ويؤدي إلى توجيه مثل هذه الاتهامات، ولاسيما أننا لا نرغب في استباق مناقشة

(١٨) انظر: تحليل ديوي للنزعتين التجريبية والعقلية التقليديتين في فصل الخاتمة من كتابه «المنطق» Logic.

ميتافيزيقا هما - موضوع الفصل الأخير- فإننا نستطيع أن نتناول هنا بعض الكتابات المنهجية المتميزة فقط.

ويبدو أن النزعة العقلية الميتافيزيقية Metaphysical Rationalism لدى بيرس أتته من يقينه الميتافيزيقي في المنطق والتحليل المنطقي.

وقد حاول في أعماله المبكرة أن يتعدى المنطق الكنطي Kantic logic بصياغة منطق يستخدم فيه عبارات أو مصطلحات العلامات Terms of semiotic وتصور عندئذ قوانين المنطق كما تصور مبادىء العلامات التي لها ضرورة قبلية.

وعلى الرغم من ذلك فلاشك أن بيرس اتجه في بعض الأحيان إلى إعطاء مدلولات ميتافيزيقية مجردة لنتائج التحليل المنطقي. وقد واجه باستمرار صفة العلامات علامة تنشأ عن علامة ومنهما تنشأ علامة أخرى وهكذا..(*) ولهذا اعتبر أن الاستمرارية Continuity صفة الحقيقة على الإطلاق. وتوصل إلى ثلاثة أنواع فقط من القضايا هي: الواحدية Monadic والثنائية Dyadic والثلاثية tiadic، واعتبر ذلك دليل على وجود ثلاث مقولات ميتافيزيقية فقط وعلى العموم فقد كان بيرس على ثقة من أن العقل المتطور كتطور العلامات طبقاً لقوانين الاستدلال يطابق (يناظر) التطور العام للكون Cosmos.(١٩)

(*) نلاحظ هنا تأثر بيرس بالديالكتيك (الجدل) الهيجلي الذي يستخرج المركب من الموضوع ونقيضه، وهكذا في حركة مستمرة دائبة إلى أن يصل إلى المطلق، أما بيرس باعتبار أنه لا يؤمن بالأفكار المطلقة فقد اعتبر أن عملية التحليل المنطقي عملية مستمرة لا نهاية لها طالما أن هناك علامات تنشأ عن علامات أخرى في حركة جدلية لا تنتهي. (المترجم)

(١٩) لا يشارك جيمس بيرس ثقته في تطابق Isomorphism المنطق مع الواقع ويقول: «إن أهم الملامح الرئيسة (الأساسية) لتكويننا الذهني هي ما نعنيه بدراسة القواعد Grammar والمنطق Logic وتأتي القوة Violence بعدهما في الترتيب الطبيعي كإنعكاس لما نعتقده في وجودها (العبارة مقتبسة عن بيري R.B. Berry في كتابه سالف الذكر «فكر وشخصية وليم جيمس» المجلد الأول، ص٧١٨.

وغالباً ما كان بيرس يكتب بهذه الطريقة «العقلية» Rationalistic ومع ذلك فإن هذا الاتجاه يجب أن يُعدل على ضوء العبارات الملّحة المتساوية التأثير وهي:

«إن التصورات التي تعتبر نتاجاً حقيقياً للتفكير المنطقي، لابد من أن ينظر إليها على أنها كذلك، فضلا عن إنها تمتزج مع أفكارنا العادية وتكرر هذا الامتزاج بصفة دائمة. (المجلد الخامس، الفقرة ٣٧٠).

بالإضافة إلى ذلك يذكر بيرس في بعض الأحيان أن «الاستمرارية» Continuity هي مبدأ منهجي Methodological Principle[٢٠] (يجب أن نبحث فيه بقدر ما نستطيع عن هذه الاستمرارية)، وبرغم ذلك فقد كتب في معظم كتاباته عن الاستمرارية كما لو كانت مبدأ منهجياً عاماً. ويجب ألا ننسى أن بيرس تقبل موقف أو مبدأ عدم القابلية للخطأ Fallibilism في فلسفته، ومهما كان اقتناعه الذاتي بميتافيزيقاه، فقد اعترف أنه ليس متأكداً من صدقها، وعلى سبيل المثال، فهي لن تكون قابلة للتعديل من خلال بحث تال. وبهذه العلاقة أدرك أن التطبيق الفينومينولوجي والعلمي للمقولات الميتافيزيقية الثلاث التي اعتقد أنها تكشف عن تحليل منطقي، إنما كشفت عن مقولات ميتافيزيقية أخرى.

---

(٢٠) كتب بيرس في المجلد السادس الفقرة ١٧٣ أن «الاستمرارية» Synechism (أو مبدأ الاستمرارية The Principle of Continuity ليس نظرية ميتافيزيقية خالصة، بل إنها مبدأ تنظيمي في المنطق»، واعتقد تشارلز هارتشورن Charles Hartshorne - الذي تعاطف بدرجة كبيرة مع فكر بيرس - أن هناك خلطاً بين فكرة الاستمرارية الممكنة (أو المنطقية)،وفكرة الاستمرارية الفعلية. وهي من أكبر أخطاء بيرس الخطيرة.

انظر: مقال هارتشورن بعنوان: «أحد إسهامات تشارلز بيرس في الفلسفة وأكبر أخطائه الخطيرة.

"Charles Peirce's One Contribution of Philosophy and his Most Serious Mistakes"

ومع أن «عقلية» بيرس كما تبدو، عقلية ذات اتجاه دوجماطي بمعنى أن ميتافيزيقاه لن تتسق مع منهجية البحث المقبولة، ومن ثم لم يكن يقصد أن يكون فيلسوفاً قبلياً بالمعنى الذي ورد في مقاله «تثبيت الإعتقاد» حيث قابل فيه بين المنهج القبلي وبين المنهج العلمي. أما أن يكون بيرس متسقاً دائماً مع ما يقصده فهذا موضوع آخر.

٨- المظاهر العقلية والتجريبية للبحث عند ديوي

أما بالنسبة لديوي فإن هناك اتهام عام بأن نظريته في البحث تؤدي إلى الشك Skepticism فيما يتعلق بحدود المعرفة التي جاءت بها التجريبية الإنجليزية. ولهذا أعلن أنه بالنسبة إليه فإن «العالم ... ينهار ويتحول إلى النزعة المباشرة The World Collapses Into Immediacy. وهناك اتهام آخر له علاقة بالاتهام الأول وهو أن نظرية البحث عند ديوي تؤدي إلى ميتافيزيقا مثالية Idealistic metaphysics وفيها يتم توجيه العقل Mind إلى ما هو معروف في البحث.

ويعود أساس هذه الاتهامات على ما يبدو إلى تأكيد ديوي المستمر على البحث باعتباره يتضمن تحويل Transformation الموقف الإشكالي إلى موقف لا إشكالي، لذلك فالمعرفة لا تحتوي إلا على الموقف المتحول كموضوع لها، وعلى ذلك فيبدو أنه لن توجد معرفة للموقف الفطري Initial situation قبل تحوله، إلى أي شيء آخر لم يصدر عن هذا التحول.

ولنذكر العبارة بطريقة أخرى، عرّف ديوي - في بعض الأحيان- الموضوع بأنه حادثة ذات معنى an event with meaning، وطالما أن البحث يقوم بتكوين موضوع بهذا المعنى، كجزء من عمله، وعلى سبيل المثال، إن الموقف لم يعد إشكالياً، وإذا لم يعد له معنى غير محدد فإنه سيبدو لنا أن الشيء المعروف

هو موضوع مكوّن في عملية البحث، فلا شيء معروف يقع «خارج» البحث.[٢١] و من هنا نشأ الإعلان الخاص بأن ديوي ظل فقط مع الخبرة المباشرة. وإذا كنا نعتبر البحث بحثاً «ذهنياً» mental، فإن إبراز دور «العقل» - في اعتقاد ديوي- يوجه الموضوع بطريقة مباشرة نحو ما يعرفه.

وقد رد ديوي على مثل تلك الاتهامات مرات عديدة، وأخذ في اعتباره أن وجهة نظره عن العالم World-view تمثل «النزعة الطبيعية الثقافية» Cultural naturalist والتي تعتبر الخبرة جزء من الطبيعة وليست هي كل الطبيعة. وفي المقال الطويل الذي رد فيه على هذه الاتهامات وهو بعنوان «الخبرة، والمعرفة، والقيمة» Experience, Knowledge and Value ضمن كتاب «فلسفة جون ديوي» (الذي أشرف على إصداره بول آرثر شلب) رد ديوي مرة أخرى على الاتهامات وذكر، أن نظريته في المعرفة لا تتسق مع كوزمولوجيته الطبيعية Naturalistic Cosmology. ويجدر بالقارىء الذي يجد نفسه مهتماً بالجدل حول هذا الموضوع أن يرجع إلى مقال ديوي المفصّل في هذا الشأن. ولكن طالما أن علاقة نظرية البحث البرجماتية بالكوزمولوجيا البرجماتية علاقة جوهرية، فإنني أخصص بقية هذا المبحث والمبحث القادم لإيضاح هذه العلاقة وذلك لتدعيم بعض الأسباب التي تبين لماذا تتسق نظرية البحث البرجماتي مع الكوزمولوجيا الطبيعية أو الواقعية.[٢٢]

---

(٢١) اطلق ديوي في كتاب «المنطق» اسم الموضوعات Objects -موضوع هذا الكتاب- على الموضوعات الناشئة عن تنظيم متسلسل لما نسميه البحث»، فالأشياء توجد فقط كموضوعات إذا كانت قد حددت من قبل كنتائج للبحوث» (ص١١٩) وهذا استخدام خاص لمصطلح «الموضوع» object، وليس مصطلحاً عاماً يستخدمه البرجماتيون.

(٢٢) انظر أيضاً مقالي: «البرجماتية والميتافيزيقا» Pragmatism and Metaphysic. وأيضاً مقال سي. آي. لويس C.I. Lewis «بعض الاعتبارات المنطقية المتعلقة بالذهن» Some Logical Considerations Concerning the Mental.

إن نظرية البحث هي **بحث في البحث** inquiry into inquiry، لذا وكما يعتبرها ديوي باستمرار، فإنها تفترض مسبقاً أبحاث أخرى لموضوعات ذات صلة بموضوع الدراسة. أما اتهامه بأن المشكلة التي تدعو إلى البحث تكمن داخل مجال لا إشكالي على أساس بحث تلك الأبحاث الأخرى، فإن البرجماتي يعلن أن هذا الاتهام إنما هو «إقرار مبرهن عليه» Warranted assertion.

ولا تحل نظرية البحث العامة محل المباحث المحددة الأخرى بطبيعة الحال، لذلك فإن هناك تساؤلاً يدور حول عمر الأرض مثلاً يجاب عليه ببحث محدد يتناول هذا التساؤل. وإذا جاءت النتيجة التي نصل إليها في مثل هذا البحث المحدد متحدية، فإن هذا التحدي يجب أن يتم ببحث آخر في المشكلة، ولا يمكن أن يتم حله عن طريق نظرية البحث العامة. وهذا ما يحدث أيضاً في مثل هذه الإشكاليات فعلى سبيل المثال: هل سبقت الحياة التي ظهرت على الأرض حياة أخرى؟ أو ما إذا كنت قد ولدت؟ أو هل سيستمر العالم بعد موتي؟ إن الردود على مثل هذه التساؤلات لا يمكن أن تحدد عن طريق نظرية البحث العامة. وحتى إذا أدركنا أن البحث الخاص لا يستطيع أن «يعرف» ما سبقه من أبحاث أو يدرك سياقه اللاإشكالي Unproblematic Context، فإنه من الممكن أن يكون هذا صحيحاً فيما يتعلق بالأبحاث الأخرى، كما ذهب ديوي في مقاله الذي رد فيه على الاتهامات الموجهة إليه والسابق الإشارة إليه. وفي تصور البحث البرجماتي لا يوجد ما يسمى «الإسناد في البحث المركزي» Inquiry centric Predicament.

إذاً لماذا اتهم النقاد ديوي أنه يسلّم بكوزمولوجيا «مباشرة خالصة» Pure immediacy؟ وغالباً ما يتهموه كذلك بالنزعة المثالية من ناحية، ستبدو لنا الاعتبارات التي توصلنا إليها في الفقرتين السابقتين مهملة، ولكن من ناحية أخرى، اعتقد أن ذلك يعود إلى نقص معين في الصياغات التي عبّر بها ديوي عن موقفه.

ولا أعتقد أن ديوي استفاد بدرجة كافية من مصادر بذاتها، ذلك أن البرجماتي يجب أن يستفيد من كل موقف يتاح له إتاحة واضحة، هذا من ناحية العوامل الاجتماعية في التحقيق (البحث)، ومن ناحية أخرى هناك عوامل غير مباشرة في كثير من موضوعات البحث، وليس القضية هنا أن هذه الاعتبارات كانت غائبة عن وعي ديوي تماماً، ولكن القضية أنه لم يؤكد عليها تأكيداً كافياً.

وإذا تساوى بعض الأشخاص تساوياً جوهرياً في الخبرة مع الشخص الباحث - طالما أن الأربعة جميعاً برجماتيين - فسيكون البحث إذاً الذي يجريه أشخاص آخرين على الفرض الجزئي Particular hypothesis مساوياً من الناحية المنهجية مع عمليات البحث التي يقوم بها باحث بعينه.

وهكذا فإن تقارير الآخرين عن مولدي يمكنها أن تعطينا الدليل في عبارات أقررها إقراراً مبرهناً عليه أنني ولدت، حتى على الرغم من أنني لا أستطيع أن أجعل مولدي موضوعاً لخبرتي المباشرة.

إن مثل هذا الدليل حالة خاصة فقط للدليل غير المباشر: والموضوعات الفيزيقية يمكنها أيضاً أن تقدم الدليل بالتأكيدات المبرهن عليها بنفسي أو عن طريق الآخرين. ويقوم الجزء الأكبر من قبول العبارات العلمية والفهم المشترك على أساس هذا الدليل غير المباشر. وبوجه عام فإن أي آلة أو جهاز كما في شهادة الآخرين وأحكام آلات التصوير والمجاهر يمكنه أن يقدم دليلاً غير مباشر على أن الاعتماد على هذه الآلة أو الجهاز يمكن أن يكون - في حالات أخرى - دليلاً مباشراً.

وإذا كان هذا مسموحاً به، فإن قبول نظرية البحث البرجماتية العامة لا يؤدي في حد ذاته إلى قبول مثل هذه الكوزمولوجيا كنزعة ظاهرية Phenomenalism أو مثالية Idealism فلا يوجد دليل على عدم اتساق

منهجية ديوي وبين كوزمولوجيا النزعة الطبيعة الثقافية Cosmology of Cultural Naturalism.

٩- بعض مظاهر تصور ميد للموضوع

وهناك موقف يتشابه مع الموقف الذي ناقشناه في المبحث السابق ظهر في بعض تفسيرات فكر ميد. وبما أن الكتاب مهم، وبما أنه في حالة ميد حيث سيطر مأزق إشكالية معاني «الموضوع»(٢٣) فإنه يبدو من المهم أن نناقش -بصورة جدية- العلاقة بين منهج البرجماتية وكوزمولوجيا البرجماتية.

لاحظنا من قبل أن ميد يرى أن «الرمز الدلالي» Significant symbol هو أحد الرموز التي يتم استدعاؤها لناتج من نفس المنظومة يستجيب له مما يستدعي معه وجود رموزاً أخرى في المجموعة اللغوية. وهكذا فإنه عن طريق هذه الرموز يأخذ الرمز دور الآخر «بمعنى أن الرمز يتجه نحو الاستجابة لإشارات رمز آخر كما ستستجيب له الرموز الأخرى. وبالتوسع في هذه العملية يستطيع الرمز أن يأخذ دور الموضوعات الفيزيقية عن طريق إثارة المقاومة التي يعرضها الموضوع استجابة لضغط الرمز الآخر عليه. وبهذه الطريقة يستطيع الرمز أن «يتجاوز» (يعلو Transcend) الخبرة المباشرة بطريقة رمزية للرمز الآخر وذلك بأخذ دور الرموز الأخرى وموضوعاتها. ولهذا فلن يصبح هناك «لا معنى» Meaningless لقولنا إن الشخص يستطيع أن يفكر في قضية الأرض قبل أن يظهر عليها الإنسان أو في الخبرات المختلفة للموضوع أكثر مما يفكر في شخص آخر بحيث يجتاز التفكير في ذاته، كما لا يستطيع الإنسان أن يفكر، إذا كانت عبارات الإثبات السابقة عن الدليل غير المباشر مسموح بها، ولن يكون هناك أي اعتراض على أن نقول إن

(٢٣) المصادر الرئيسة التي عالج فيها ميد إشكالية الموضوعات Objects هي: «فلسفة الفعل» The Philosophy of Act، و«فلسفة الحاضر» The Philosophy of the Present.

ولا أعتقد أن ديوي استفاد بدرجة كافية من مصادر بذاتها، ذلك أن البرجماتي يجب أن يستفيد من كل موقف يتاح له إتاحة واضحة، هذا من ناحية العوامل الاجتماعية في التحقيق (البحث)، ومن ناحية أخرى هناك عوامل غير مباشرة في كثير من موضوعات البحث، وليس القضية هنا أن هذه الاعتبارات كانت غائبة عن وعي ديوي تماماً، ولكن القضية أنه لم يؤكد عليها تأكيداً كافياً.

وإذا تساوى بعض الأشخاص تساوياً جوهرياً في الخبرة مع الشخص الباحث - طالما أن الأربعة جميعاً برجماتيين - فسيكون البحث إذاً الذي يجريه أشخاص آخرين على الفرض الجزئي Particular hypothesis مساوياً من الناحية المنهجية مع عمليات البحث التي يقوم بها باحث بعينه.

وهكذا فإن تقارير الآخرين عن مولدي يمكنها أن تعطينا الدليل في عبارات أقررها إقراراً مبرهناً عليه أنني ولدت، حتى على الرغم من أنني لا أستطيع أن أجعل مولدي موضوعاً لخبرتي المباشرة.

إن مثل هذا الدليل حالة خاصة فقط للدليل غير المباشر: والموضوعات الفيزيقية يمكنها أيضاً أن تقدم الدليل بالتأكيدات المبرهن عليها بنفسي أو عن طريق الآخرين. ويقوم الجزء الأكبر من قبول العبارات العلمية والفهم المشترك على أساس هذا الدليل غير المباشر. وبوجه عام فإن أي آلة أو جهاز كما في شهادة الآخرين وأحكام آلات التصوير والمجاهر يمكنه أن يقدم دليلاً غير مباشر على أن الاعتماد على هذه الآلة أو الجهاز يمكن أن يكون - في حالات أخرى - دليلاً مباشراً.

وإذا كان هذا مسموحاً به، فإن قبول نظرية البحث البرجماتية العامة لا يؤدي في حد ذاته إلى قبول مثل هذه الكوزمولوجيا كنزعة ظاهرية Phenomenalism أو مثالية Idealism فلا يوجد دليل على عدم اتساق

منهجية ديوي وبين كوزمولوجيا النزعة الطبيعة الثقافية Cosmology of Cultural Naturalism.

٩- بعض مظاهر تصور ميد للموضوع

وهناك موقف يتشابه مع الموقف الذي ناقشناه في المبحث السابق ظهر في بعض تفسيرات فكر ميد. وبما أن الكتاب مهم، وبما أنه في حالة ميد حيث سيطر مأزق إشكالية معاني «الموضوع»[٢٣] فإنه يبدو من المهم أن نناقش -بصورة جدية- العلاقة بين منهج البرجماتية وكوزمولوجيا البرجماتية.

لاحظنا من قبل أن ميد يرى أن «الرمز الدلالي» Significant symbol هو أحد الرموز التي يتم استدعاؤها لناتج من نفس المنظومة يستجيب له بما يستدعي معه وجود رموزاً أخرى في المجموعة اللغوية. وهكذا فإنه عن طريق هذه الرموز يأخذ الرمز دور الآخر «بمعنى أن الرمز يتجه نحو الاستجابة لإشارات رمز آخر كما ستستجيب له الرموز الأخرى. وبالتوسع في هذه العملية يستطيع الرمز أن يأخذ دور الموضوعات الفيزيقية عن طريق إثارة المقاومة التي يعرضها الموضوع استجابة لضغط الرمز الآخر عليه. وبهذه الطريقة يستطيع الرمز أن «يتجاوز» (يعلو Transcend) الخبرة المباشرة بطريقة رمزية للرمز الآخر وذلك بأخذ دور الرموز الأخرى وموضوعاتها. ولهذا فلن يصبح هناك «لا معنى» Meaningless لقولنا إن الشخص يستطيع أن يفكر في قضية الأرض قبل أن يظهر عليها الإنسان أو في الخبرات المختلفة للموضوع أكثر مما يفكر في شخص آخر بحيث يجتاز التفكير في ذاته، كما لا يستطيع الإنسان أن يفكر، إذا كانت عبارات الإثبات السابقة عن الدليل غير المباشر مسموح بها، ولن يكون هناك أي اعتراض على أن نقول إن

---

(٢٣) المصادر الرئيسة التي عالج فيها ميد إشكالية الموضوعات Objects هي: «فلسفة الفعل» The Philosophy of Act، و«فلسفة الحاضر» The Philosophy of the Present.

مثل هذه الأفكار تعتبر كعمليات رمزية «مبرهن عليها». ولكننا نستخدم في هذه الحجة تعبيرات (مصطلحات) مثل «الموضوع» Object و«الموضوع الفيزيقي» Physical Object فما مدلول هذه العبارات عند ميد؟

يسمى ميد الموضوعات الخاصة بالخبرة مثل: الأشجار، والكراسي، والأشخاص «موضوعات حسّية»(*) Perceptual Objects. ففي أي خبرة تكون مثل هذه الموضوعات «لا إشكالية» unproblematic، وتستخدم في اختبار ما نسميه الفروض التي تظهر في عملية البحث. وهكذا فإن ميد يرى أنه حتى نظرية الإدراك الحسّي كنظرية متطورة في علم النفس تفترض الموضوعات الحسّية لاختبار النظرية.

ويذكر أنه يوجد ثلاثة أنواع من الصفات لمثل هذه الموضوعات الحسّية تتناسب مع مراحل الفعل لمدركيها(٢٤)، ولها صفات متباينة من حيث الألوان والأشكال المرئية إلخ ... تتطابق (تتناظر) مع الأنشطة الخاصة بالحواس المختلفة، عندما لا يتصل المدرك (بكسر الراء) اتصالاً فيزيقياً مع الأشياء. فالأشياء لها صفات فيزيقية (المقاس، الحجم، الوزن... إلخ) تتطابق مع الأنشطة التي تمت معالجتها ببراعة مع المدرك، ولها صفات متكاملة Consummatory qualities تتطابق مع مرحلة اكتمال الفعل الذي يلاحظه المدرك.

وفي عالم الخبرة العادية يمكن أن يقترب عدد من الأشخاص من منضدة ما، ويكون لكل منهم إدراكاته الحسّية المختلفة عنها، ولكل منهم هدف مختلف بإزائها، ومع ذلك يتفقون تماماً بشأن خواصها الفيزيقية، ولأنهم بإزاء رموز دالة على الجانب المادي سواء مرئي أم مسموع من العلاقة فإنهم يستطيعون فهم العلاقات الأخرى ويكوّنوا منها نتائج متشابهة بارعة. وعندما تتم عملية التجريد

(*) أي موضوعات مدركة إدراكاً حسياً. (المترجم)

(٢٤) انظر: كتاب «فلسفة الفعل» فصل مراحل الفعل، ص ص٢٣-٢٥.

الأكثر تغيراً من حيث المسافة والخواص الكاملة، فإننا نحصل على «الموضوع الفيزيقي» Physical object الذي يدرسه العلم.(٢٥)

وكتب ميد في الغالب عن مثل هذه الموضوعات الفيزيقية وبالطبع عن المسافة والخواص المتكاملة للموضوعات المدركة حسّياً التي تنشأ داخل الفعل، ولا يضرنا أن نتذكر أن ميد يعمل هنا كعالم اجتماعي يحاول أن يبين كيف طوّرت الكائنات البشرية خبرتها وتصورها عن الموضوعات الفيزيقية. إلا أن بعض نقاده فسّروا عبارته «داخل الفعل» Within the act على أنها تعني أن الكائن البشري يوجد أو يقوم بإظهار الموضوع الفيزيقي إلى الوجود حرفياً، وأن هذا الموضوع ليس له وجود «خارج» Outside مثل هذه الأفعال البيولوجية Biological acts(٢٦)، ولهذا أعلن الدارسون أن نتائج تحليل ميد نوع من «الأنية البيولوجية» أو «الأنا وحدية البيولوجية» Biological solipsism.

وبالتأكيد فلم يكن هذا في نية ميد أو في الروح العامة لعمله، أكثر من مثل هذا التفسير: فالكائن البشري يدرك بنيته شكل الفعل والموضوعات المدركة إدراكاً حسيّاً باعتبارها أساساً مشتركاً، وإلى حد ما محددة تحديداً مشتركاً. إلا أن ميد لم يذكر أبداً موقفه وهو أن الصفات الفيزيقية للموضوع كموضوع على وشك الإكتمال بواسطة الكائن البشري توجد عن طريق ذلك الكائن ذاته.

وعلى الرغم من ذلك، ما موقف «الموضوعات العلمية» Scientific objects (مثل الإلكترونات Electrons) التي لا هي موضوعات مدركة إدراكاً حسياً، ولا هي موضوعات مجردة لا يمكن إدراكها إدراكاً حسياً؟ يرى

---

(٢٥) انظر: «فلسفة الحاضر»، وعلى وجه الخصوص «الشيء الفيزيقي» Physical thing، ص ص١١٩-١٣٩.

(٢٦) انظر: مقال آرثر إي مورفي Arthur E. Murphy «اهتمام ميد بفلسفة الفعل» Concerning Mead's the Philosophy of Act.

ميد أن مثل هذه «الموضوعات العلمية» والنظريات التي تدور حولها يمكن أن يكون لها معناها، فقط من خلال الوظيفة الآلية التي تستخدم في البحث العلمي، وكتب ميد:

«إن الإتجاه الكلي للعلوم الطبيعية، كما تبدو - بوجه خاص- في الطبيعة والكيمياء هو إحلال موضوعات الخبرة المباشرة عن طريق الموضوعات المفترضة Hypothetical objects الموجودة فيما وراء الخبرة الممكنة. وكما أشرت ... يجب أن يخضع العلم التجريبي أيه نظرية لتجربة الخبرة المباشرة الكامنة في «الآن» إنها - في رأي - نظرية صحيحة Legitimate doctrine ... فهي يجب أن تكون ممكنة لأنها تأخذ في اعتبارها الموضوعات المفترضة الناتجة عن الخبرة مثل عبارات المناهج والمعادلات لضبط الموضوعات في عالم الخبرة الفعلية، وبكلمات أخرى، تلك التي نسميها الموضوعات الكامنة فيما وراء مجال الخبرة الممكنة وهي في الواقع الإجراءات المعقدة التي تضبط الخبرة الفعلية» (The Philosophy of the Act, pp. 291-92) إذاً فمثل هذه «الموضوعات العلمية» هي إجراءات معقدة لضبط الخبرة الفعلية» لا يمكن إنكارها، إنها فقط وكذلك - كما يبو في قول ميد - في موضوع آخر[٢٧]. ويبدو أن ميد ذاته يخلط في بعض الأحيان بين الأدوات المعرفية والكونية (الكوزمولوجية)... وإذا كانت الحجة قوية في الجزء السابق الذي عالجناه، فإن البرجماتية ليست في حاجة إلى مثل هذا الخلط.

---

(٢٧) انظر: مناقشة إرنست ناجيل للوقوف على مزيد من المعلومات بشأن موقف نظرية المعرفة من النظريات العلمية في الفصل السادس من كتابه «بناء العلم» The Structure of Science، وقد وافق رودولف كارناب ناجيل على تحليله الذي ذهب إليه في كتاب «الأسس الفلسفية للطبيعة» Philosophical Foundations of Physics.

١٠ - تعقيب على علم المناهج البرجماتي

إن أكثر ما في علم المناهج البرجماتي من جدة هو محاولته تناول الإشكاليات التقليدية في نظرية المعرفة داخل سياق نظرية البحث، وطالما أن البحث يتضمن استخدام الرموز، فكذلك يجب أن تستفيد دراسة البحث من نظرية العلامات (السيمياء)، لهذا فإن علم المناهج البرجماتي - يتفق مع التأكيد الأساسي لنظرية العلامات (السيمياء)، السلوكية - هو علم ذات توجه سيميائي، والمعرفة شكل من أشكال سلوك العلامة، ومفتوحة للبحث الموضوعي.

إن نوع البحث الذي تناوله البرجماتيون بالدراسة بصفة أساسية والفضل لديهم يرجع إلى البحث العلمي، المعروف بمعناه الواسع لكلمة «العلمي» Scientific وهو البحث الذي تتفق مصطلحاته الأساسية مع متطلبات القضية البرجماتية والذي توجد فروضه في مبدأ الملاحظة المتحقق. وتتفق تحليلات كل من بيرس وديوي لهذا النوع من البحث بشكل عام مع ظهور مشكلة التناول اللاإشكالي، وفرض (الإبعاد) الذي وضع لحل هذه الإشكالية، وتتطور نتائج هذا الفرض (القياسي)، وهذه النتائج ومن ثم الفرض يتم اختبارها عن طريق ملاحظة الفعل باستخدام مصطلحات (أو عبارات) نابعة من هذه النتائج المستنبطة. فإذا جاء الاختبار إيجابياً، فإن الإشكالية تختفي ويُعمم الفرض المتحقق. ويمكن استخدام النتيجة كفرض عندما تتصل بإشكاليات جديدة يجب مجابهتها.

وعلى ذلك فالفروق بين بيرس وديوي داخل هذا الإطار العام كبيرة ومهمة، لأنها تتعلق بحقيقة توجه بيرس الذي ينبع من العالم الطبيعي Natural Scientist، بينما توجه ديوي ينبع من العالم الاخلاقي Moralist. وقد اتجه بيرس نحو التأكيد على استمرارية البحث اللانهائية، بينما اتجه ديوي

نحو التأكيد على الموقف الإشكالي المحدد الذي يتضمنه البحث. ولهذا عُنيَ بيرس أكثر «بصدق» الفرض بشرط أن يتآزر مع البحث اللانهائي مستقبلاً بينما ركّز ديوي - على الرغم من اعترافه بتعريف بيرس «المجرد» «للصدق» - على «البرهان» Warrant الخاص بقضايا الإقرار Assertion من أجل حل مشكلة محددة. واتفق كلاهما على أن الفعل يتم بناءً على الفرض (الفعل الشرطي) الضروري للتحقيق التجريبي بالمعنى الواسع عند بيرس، إلا أن تأكيد ديوي كان على إعادة بناء الموقف الفعلي لكي لا يصبح الموقف إشكالياً. وقد تم إيضاح هذا الفرق في الفعل القائم على الملاحظة الضرورية في دراسة ظاهرة كسوف الشمس eclipse، كما يتكشف في تغيير الفعل للموقف عند حل مشكلة أخلاقية معينة. والتناقض بين بيرس كعالم وديوي كأخلاقي يبدو في مواقف أخرى: فإن ديوي بيّن أن هناك فرقاً بسيطاً بين البحث العلمي بالمعنى الضيق للتعبير/ المصطلح وبين البحث الأخلاقي، بينما كان بيرس يشك في قدرة العلم على حل المشكلات الأخلاقية.

أما في مجال المنطق، فبينما اتفق كل مَن بيرس وديوي على أن تفسير المنطق يتم في سياق البحث، فإن تحليل بيرس لقوانين نظرية العلامات (السيمياء) يختلف في التأكيد على الأقل عن تحليل ديوي لقوانين المنطق في عبارات أو مصطلحات Terms تعبر عن وضعها كمبادىء قبلية برجماتية As Pragmatic a Priori Principles في مجرى البحث.

واتفق كل من بيرس وديوي على أن البحث الذي يتوجه في الأصل نحو الإشكاليات الإنسانية الأساسية هي إشكاليات الفعل في المواقف الإشكالية، والذي يجب أن يوّلد إشكاليات جديدة خلال تطوره.

وأصبح البحث «مستقلاً» automonous عند هذا الحد، ويجب عليه أن يحل الإشكاليات الضرورية من أجل تحقيق تقدمه الخاص. واتفق الاثنان

على أن الرياضيات «صورية»، ولها «دلالات لا وجودية» Nonexistential in reference ومع ذلك تتطور داخل الإطار العام للبحث. واعتبر بيرس - على الرغم من ذلك - أن الرياضيات سابقة على المنطق من الناحية الفلسفية، وركز بدرجة أقل من ديوي علي وظيفتها الإجرائية Instrumental function في البحث اللارياضي nonmathematical.

واستطاع اتجاه البرجماتية نحو علم المناهج أن يجد مكاناً لكل من الاستدلال الصوري Formal reasoning والملاحظة التجريبية Empirical observation داخل عملية البحث، وهكذا أمكن تجنب المبالغات للنزعتين التقليديتين «العقلية» و«التجريبية». كما اختلف البرجماتيون حول محاولة كنط لحل الصراع وذلك عن طريق إحلال تصور إجرائي Operational أو برجماتي لما هو قبلي محل نظرية كنط التوفيقية في الأفكار القبلية.

ويرى البرجماتيون أن الفلاسفة يتطابقون في استخدام أنموذج البحث الذي قدّمناه، أما إذا كانت فلسفاتهم تنسجم دائماً مع هذه الرؤية أو تختلف، فإن هذا بالطبع تساؤل آخر.

ويجب أن ننتقل إلى الموضوع التالي عن علم القيم البرجماتي: ماذا قال البرجماتيون عن القيم؟ وهل تتضمن نتيجة بحثهم حلولا للمشكلات المتعلقة بها؟

الفصل الرابع

علم القيم (الأكسيولوچيا) البرجماتي

الفصل الرابع

علم القيم (الأكسيولوچيا) البرجماتي

١ - مكانة ديوي الرئيسة في علم القيم البرجماتي

إن جميع البرجماتيين الأمريكيين فلاسفة ذوي توجه نحو القيم، ففي بؤرة اهتمامهم نجد عقلانية الإنسان الموجهة Man's intelligence-guided ونشاطه الباحث عن الهدف Goal-seeking activity، فالنشاط بالنسبة إليهم لا يعتبر أبداً مجرد عاطفة، ولا مجرد حركة أثنوا عليها، فقد تصوروا الحياة من خلال عبارات الفعل موجهة نحو أهداف وغايات، فالحياة الإنسانية تتميز في درجتها عن الذكاء المنعكس الذي يستطيع توجيه مثل هذه الأفعال. وبينما يعتبر هذا التوجه نحو اعتبارات القيمة توجهاً عاماً لدى معظم البرجماتيين الكبار، فإن چون ديوي برز كفيلسوف قيم axiologist في الحركة البرجماتية. ومن ثم فإن هذا الفصل سيدور حول فكره، مع الإشارة إلى البرجماتيين الآخرين الذين لديهم اهتمامات أكسيولوچية (قيمية).

وكتب ديوي عبارة مهمة نقتبسها هنا تقول:

«إن مشكلة استرداد التكامل والتعاون بين معتقدات الإنسان عن العالم ومعتقداته عن القيّم والأهداف التي يجب أن يوجه إليها تصرفه إنما هي من أعمق إشكاليات الحياة الحديثة». (البحث عن اليقين، ص٢٥٥، The Quest for Certainty).

وقد كرّس ديوي حياته كمفكر وكإنسان لهذه المشكلة، ولم يكن ليقف موقفه المتشدد هذا سواء كان مقتنعاً به أم كان مدفوعاً إليه.

وفي العبارة المقتبسة من كتاباته التي ذكرناها منذ قليل فإن ديوي كان يمثل «معتقدات الإنسان عن العالم»، في عبارات أوليّة مبكرة تتناول هذه المعتقدات المتأثرة بالعلم. ورأى ديوي أنها من الناحية التاريخية توجه الإنسان الحديث نحو القيم كموضوع يتنازع عليه بين نمو الأفكار العلمية من ناحية والوسائل الفنية التكنولوجيا Technology التي ساعدت على تدعيم هذه الأفكار من ناحية أخرى، ورأى كذلك أن الرد بوجه عام على عدم التوجه الذي كان يكمن ليس فقط في ابتعاده عن العلم ولكن في توغله فيه إلى مدى بعيد: «لايكاد العلم يستخدم لتعديل الأفعال والاتجاهات الأساسية للناس فيما يخص الموضوعات الاجتماعية»؛ ومازلنا في انتظار هبوب الثورة العلمية العظيمة.[1]

وكان على ديوي وهو يتناول هذا العمل أن يطوّر نظرية عامة في البحث العلمي، وأن يعرض في ضوء هذه النظرية إشكاليات القيمة المسؤولة عن مثل هذا البحث، وقد طبّق توجهه المنهجي والأكسيولوچي العام على مثل هذه المجالات الخاصة مثل الأخلاق ethics، والفلسفة الاجتماعية، والتربية، وعلم الجمال، والدين، والفلسفة ذاتها.

ويمثل عمل ديوي الإجمالي بالتأكيد معظم الاسهامات التي لفيلسوف معاصر يواجه الحياة الحديثة. وذكر ميد أن: «چون ديوي هو فيلسوف أمريكا بأعمق المعاني».[2]

كما تم تقديم ديوي عام ١٩٢٠ في الجامعة الأهلية في بكين National University of Peking باعتباره «كونفوشيوس الثاني» The second Confucius. وكتب هوايتهد أن ديوي «هو القوة الذهنية الرئيسة التي تمد تلك

---

(١) چون ديوي، «البحث عن اليقين»، ص ص٣٢٤-٣٢٩.

(٢) چورج هربرت ميد، «فلسفات رويس، وچيمس، وديوي في إطارها الأمريكي»، وقد اقتبست الجملة من آخر عبارة في المقال.

البنية (قارة أمريكا الشمالية) بهدف مترابط[٣]. وفي السنوات الأخيرة على وجه الخصوص كانت هناك انتقادات بقدر ما كان بعضها خبيثاً إلا أن بعضها الآخر كان ممتازاً. إن ديوي كفيلسوف أكسيولوچي axiologist عالم أخلاق Moralist رجل يمكن الإعتماد عليه بوضوح.

٢- موضوع البحث في علم القيم البرجماتي

يتوقع القاريء من البرجماتيين أنه لكي نظل على صلة بتوجههم العام - فيجب أن يقوموا بتطوير نظرية القيمة التي تربط القيم بالفعل، والتي ترى أن مصطلحات القيمة المتميزة (مثل «الخير» Good وما ينبغي Ought في أكثر استخداماتها تميزاً، كمصطلحات تم تحليلها في النظرية البرجماتية العامة للمعنى، والتي تذكر التقويمات Evaluations مثل البحوث التي تتناول الموضوعات أو الأفعال التي يمكن تقويمها هي المسؤولة عن نفس الأنموذج العام للبحث الذي يحدث في العلم.

وقد تناول ديوي جميع هذه الكتابات بالتفصيل، وسنستخدم دراساته في «نظرية التقويم» Theory of valuation، والصحف التي كتبها في كتابه «المنطق» كمصدر رئيس لعرض وجهات نظره. ولم يضع ديوي نظريته الأكسيولوچية في نسق يضمه عمل ضخم مثل كتابه «المنطق» لبيان منهجه، ولكن دراسته في «نظرية التقويم» تعطينا على الأقل النقاط الجوهرية لموقفه الأكسيولوچي. ويوظّف ديوي في هذه الدراسة (ص٥) مصطلحات مثل «شيء ما جدير بـ ...» Prizing وتحديد القيمة لـ ... Appraising. ولبيان الفرق المهم بينهما يقول:

---

(٣) انظر: «تأثير چون ديوي John and His Influence» في: «فلسفة جون ديوي» إصدار بول آرثر شلب (الطبعة الثانية)، ص٤٧٨.

«عندما يركز المرء الإنتباه عن طريق استخدام الفعل من أجل التقويم To value، فإننا نجد أن الكلام الشائع يمنع استخدام هذا المصطلح استخداماً مزدوجاً، وإذا نظرنا نظرة سريعة في القاموس فسنجد أنه في الكلام العادي نستخدم كلمات «التقويم» Valuing و«القيمة» «المقدرة» Valuation استخداماً حرفياً لكي نحدد قيمة «شيء ما» وشيء جدير بـ Prizing بمعنى أنه شيء ثمين لتحديد القيمة ... Appraising بمعنى وضع قيمة لـ ... أو تحديد القيمة لـ ...».

وفي كتاب ديوي «المنطق» يستخدم تعبيرات مثل يستمتع بـ Enjoy و«يقوّم» Evaluate لبيان نفس هذا التمييز أو التمايز.

إذاً فإن «شيء ما جدير بـ ...» «أو الاستمتاع بـ...» هو نوع من الفعل أو السلوك المفضل[٤] تجاه شيء فعلي أو مثالي، وفي الكلام الشائع غالباً ما يستدعي ما هو جدير بـ ...» أو شيء ممتع فهو «قيمة» A value، ووضع قيمة لـ ... أو عملية التقويم - يستدعي- التناقض، وينتج عن البحث أن الشيء الفعلي أو المثالي هو شيء جدير بالتقدير، أو يجب أن يقدر. فالعلاقة بين شيء ما جدير بـ .. ووضع أو تحديد قيمة لـ... علاقة تبادلية، وعندما نجد أن الشيء المراد تقديره قد تحول إلى إشكالية وأصبح البحث يوجه إلى حل هذه الإشكالية، وعلى «سبيل المثال، فإنه لتحديد ما يجب تقديره، وما ينتج عنه من وضع قيمة له، سيحدد لنا شيء جديد جدير بالتقدير، أو يعززه باعتباره

---

(٤) استخدمت هذا المصطلح، ونادراً ما كان ديوي يستخدم مصطلح «التفضيل» أو الأفضلية Preference في أعماله، ولكن التعبير المفضل لديه (على الأقل في آخر حياته) كان السلوك المختار/ المرفوض Selective - rejective behavior (انظر المقال في مجلد ليبلي Lepley الذي أشار فيه إلى هذه الملحوظة). كما أن ديوي نفسه لم يستخدم مصطلح «علم القيم» Axiology بل كان يفضل عليه «نظرية التقويم» Theory of valuation كتعبير عام يستخدم في كلتا الحالتين «شيء ما جدير بـ Prizing ووضع القيمة لـ. أو تحديد القيمة لـ Appraising أو كتعبير جامع لسائر التقويمات Evaluations الأخرى.

كذلك. ومثال هذا البحث الخاص بوضع قيمة الشيء، مثل أي بحث آخر يحدث داخل نطاق اللاإشكالية، وفي هذه الحالة سيكون نطاق الأشياء الجديرة بـ ... لا إشكالية، ولكي يكون البحث مقنعاً، فإن علم القيم سيختص بدراسة الأشياء الجديرة بـ ... ووضع قيم لـ ... والعلاقة بينهما، موضع تجريبي، وستدخل دراسة وضع القيم أو التقويمات في إطار نظرية البحث العامة. ويمكن اعتبار علم القيم هو العلاقة المميزة لعلم القيم البرجماتي.

ومع ذلك فإن هذا الموضوع سيكون موضوعاً بسيطاً لدرجة أنه سيمثل وجهة نظر ديوي الدقيقة، وهي نظرة تتخذ على أية حال موقف الخصم من هذه الإشكاليات، ويجب أن نعود الآن إلى مثل هذه الموضوعات فيما بعد.

٣- اعتبار آخر لعلم القيم عند ديوي

إذا كانت الظاهرة الإمبريقية (التجريبية) الأساسية للقيمة موضوعة على أساس علاقتها بالسلوك كشيء جدير بـ .. أو كشيء يمكن الاستمتاع به، فسيبدو أنه من الطبيعي تعريف «القيمة، بأوسع معانيها، بأنها أي شيء يمكن أن يكون جديراً بـ .. أو يكون ممتعاً لـ .. وقد اتجه چيمس نحو هذا الاتجاه، فكتب في مقاله الفيلسوف الأخلاقي والحياة الأخلاقية:[٥] «إن ماهية الخير هي ببساطة ماهي لإشباع حاجة ما». وعرف رالف بارتون بيري - الذي أخذ «اهتمامه بنظرية القيمة» من مقال چيمس «النظرية العامة للقيمة»[٦] General Theory of Value عرَّف فيه أصل القيمة بأنها «أي موضوع لأي اهتمام»[*].

---

(٥) انظر: «المجلة الدولية لعلم الأخلاق» The International Journal of Ethics، ص ص٣٣٠-٣٥٤.

(٦) هذا الكتاب أضافه بيرس في كتابه «عوالم القيمة» Realms of value، والعملان من الاسهامات الكبيرة في علم القيم الحديث.

(*) Any Object of any interest.

وبحث سي. أي. لويس C.I. Lewis عن أساس تجريبي لمعنى عبارة الشيء ذو القيمة المباشرة»(*) فوجه في «الأشياء ذات القيمة والأشياء التي لا قيمة لها لمحتوى الخبرة المعطاه في الوقت الحاضر»(٧). لم يكن ديوي ذاته يفضل استخدام تعبير «القيمة» على كل شيء جدير بـ ... ولكن فقط على تلك الحالات التي يكون فيها الشيء مستحقاً للتقدير بعد تصور النتائج لهذا الاستحقاق. فالقيمة بهذا المعنى الضيق تتطلب على الأقل عملية ذهنية بسيطة، بينما لا يكون من الضروري أن تكون النتيجة كاملة التقويم أو التقدير، وعرّف ديوي «القيمة» في بحثه «البحث عن اليقين» بأنها المباهج التي تنتج عن الفعل الواعي» ص٢٥٩.

أما بحث الحكمة وهو المصطلح الدقيق لهذا التحديد الصارم لتعبير «القيمة» فإنه مثار جدل(٨)، غير أن الانتباه تركز في هذه النقطة فقط بسبب أهمية السؤال الذي يتناول وجهة نظر ديوي والتي لها مكان في موضوع «لا إشكالية القيمة A value unproblematic تلك الإشكالية التي تحيط بكل تقويم وتحدد الحدود التي تحتوي على حلول البحث المتعلق بالقيم. والإجابة هي «لا» إذا كانت القيمة التي يصبح من وظائفها تحديد البحث وهي نفسها محددة في ذلك البحث، وهي «نعم» إذا لم تكن هذه القضية ... فما موقف ديوي من هذه النقطة إذاً؟

(*) The immediately valuable.

(٧) «تحليل المعرفة والتقويم» An analysis of knowledge and valuation، ص٣٩٧، وليس هو أول من طبق مصطلح «القيمة» على الموضوع أو ساوى بينهما وقال: «هناك بعض الاحتمال لإشباع الخبرة» Some Potentiality of it for Satisfaction Experience، ص٥٢٨.

(٨) انظر: بحث «علم القيم كعلم السلوك المفضل» Axiology as the Science of Preferential Behavior في كتاب «القيمة» بحث جماعي، نشره: راي لوبلاي Ray Leplay، ص ص٢١١-٢٢٢.

لم يكن ديوي يريد أن تكون القيم ضمن البحث ولكنه أراد لها أن تكون «محددة فيه عن طريق عملية البحث ذاتها» (المنطق ص٥٠٣)، وشدّد على أن صلاحية أو برهان عملية التقويم لها علاقة بموقف إشكالي محدد. إن نتائج التقويم السابق لها علاقة بالطبع بحل المشكلة المحددة للقيمة، تماماً مثل العلاقة التي لحلول الأبحاث العلمية السابقة التي تتصل بحل المشكلة العلمية المحددة، ولكنهما في كلتا الحالتين بالنسبة لديوي هما مجرد وسائل (أدوات) Instruments لتكوين الفروض المتعلقة بإثبات مشكلة ما معطاة، ولكنها ليست معايير قياسية في عبارات يمكن أن نصدر عن طريقها حكماً أو نختبر بها إشكالية. إن الأهداف النهائية Ends in - view بالنسبة لأي موقف إشكالي معطى قد تكونت في ذلك الموقف ذاته واختبارها إذا كانت تحل الإشكالية المحددة في نفس الموقف. ولهذا فإنه يبدو من وجهة نظر ديوي أنه يوجد سياق لا إشكالي لكل بحث، ولكن لا يوجد سياق «غير إشكالي للقيمة» Value unproblematic في البحث الذي يتناول التقويم.

ومن ناحية أخرى، فإن ديوي كان محدداً عندما ذكر أننا «نقبل على التقويم فقط عندما تصبح القيمة إشكالية بالمعنى المادي المستمتع به» (المنطق ص١٧٢)، وهو محدد في الحالتين بأنه «ذلك الذي يحدد التقويم ولا يكون حكماً أبداً في موقف محدد كان محدداً من قبل». ويسمى أحياناً هذا العامل غير المحكم injudged factor بأنه عامل لا قيمة له أو غير مقوَّم unvaluable ولكنه يضيف: «إن الكلمة لا تعني شيئاً ذات قيمة عليا عند مقارنتها بالأشياء الأخرى أكثر مما تعني شيئاً قيمته صفر... إنما تعني، باختصار ذلك الحكم الذي يصدر ضد الحقيقة الواقعة الأولية لشيء ثمين محدد». (مقالات في المنطق التجريبي، ص٣٨٤).

إذاً، يبدو أن مصطلح «القيمة» سواء كان أم لم يكن، يطبق على موضوع جدير بالتطبيق، وهناك نقطة مهمة وهي أن التقويم الذي حددناه بأنه «ما هو جدير بكذا ...»، يحدث في موقف إشكالي يتضمن موضوعات لا إشكالية جديرة بالبحث، وإنها تمد السياق -على الأقل بجزء منها- الذي تستحقه الفروض ويمكن اختبارها به. وكما يبدو، فإن التقويم هو أحكام «معرفية» (إدراكية) جوهرية، تجريبية في طبيعتها وممكنة الاختبار التجريبي في المواقف اللا إشكالية التي تكون بعض موضوعاتها جديرة بالبحث. وقد اعتبرت هذه النقطة محورية في علم القيم البرجماتي.

٤ - علاقة التقويم بالنظرية العامة للبحث

نرى من المناقشة السابقة أن التقويم يتبع نفس منهج العملية العامة للبحث كما يحدث في التفكير العلمي، ولكي نتبين أن هذا الموقف كان من أهداف فلسفة ديوي الكبرى، ولكي نتبين أيضاً المدى الذي وصل إليه ديوي في هذه النقطة، فإن المجال الكلي لإشكاليات القيمة الإنسانية تظل مفتوحة لاستخدام نفس المنهج العام للبحث والذي له مثل هذا النجاح المثير في العلم، وعلى الرغم من ذلك فهناك بعض الأساليب في دفاع ديوي عن هذا الموقف، يجب أن نوضحها، كما أن هناك نوع من الغموض الذي يجب إزالته.

وقد رأينا في الفصل الذي عالج نظرية العلامات (السيمياء) البرجماتية أن ديوي أقر منذ البداية بالفرق بين «أحكام الواقع» Judgments of fact و«أحكام الخير» Judgments of good و«أحكام العادة» Judgment of Practice، ولكنه اتجه نحو اخضاع النوعين الأولين إلى النوع الثالث من الأحكام: وتقع أحكام الواقع وأحكام الخير فقط في نطاق احتياجنا لأحكام العادة، كما يستخدمان كأدوات لأحكام العادة. ولكن تحليل طبيعة هذه الأشكال الثلاثة من الحكم والعلاقة بينها يبدو أنها تعبر عن رغبة ديوي في كتاباته المبكرة.

ولم يوضح كتاب «المنطق» لديوي تماماً الكتابات المتضمنة للفرق بين أحكام الخير وأحكام العادة،ن ولم يؤكد ديوي[٩] عليها كثيراً على ما يبدو، وفي الحقيقة فقد استخدم مصطلح تعبير تعيين أو تحديد القيمة لـ ... (أو التقدير estimate) استخداماً متكرراً في سياق منهج البحث، ولكنه تم تحديده عن طريق «الأحكام الجزئية» Partial judgments التي تتجه نحو حكم التطبيق النهائي الذي يمثل الحل لإشكالية البحث (المنطق، ص ص١٣٣-١٤٠). وسواء اعتبرت هذه «الأحكام الجزئية، أم لم تعتبر كأحكام تطبيقية أولية فإن الأمر لا يبدو أنه واضح أمامي.

وعلى الرغم من ذلك فإن «أحكام الواقع» وتسمى الآن قضايا إعلانية أو لفظية Declarative or enunciative propositions واضحة تماماً، ولكنها تعتبر أيضاً «كأدوات» أو «وسائل» أو «ذرائع» Instrumentalities فنحتاج إليها في سياق البحث. ولهذا فإنه سيبدو أنه يوجد فقط نوع واحد من البحث وأعني به ذلك النوع المتمثل في أحكام العادة. وربما يعتقد أن هذا ما فهمه ديوي من البرجماتية.

وهناك صعوبات أخرى في كتابات ديوي لا يبدو أنها تسترعي انتباهنا وهي: أن مثل هذه البحث دائماً ما ينتهي بحكم من أحكام العادة، وقد اعترف أن البحث يتضمن بحوثاً Investigations أخرى لتحديد «الوقائع Facts» (الشروط الوجودية الزمنية من حيث الحاضر والماضي) لكي نتمكن من الشروع في البحث. ولا أري سبباً لعدم تسمية مثل هذه البحوث بحوثاً بمعنى Inquiries (أو بحوثاً فرعية Subinquiries)، ولا لماذا يجب أن تسمى نتائجها بأحكام العادة Judgments of practice.

---

(٩) لمزيد من الإطلاع على النصوص التي كتبها ديوي لبيان الفرق بين «الخير» Good و«الحق» Right، انظر كتابه «نظرية التقويم» Theory of valuation ص ص٤٧-٥٨.

وعلى سبيل المثال، فإذا كان البحث يدور حول مرض السرطان -كخطر يهدد البشرية جمعاء- وينشأ عن المشكلات التي تواجه الحياة الإنسانية، فلا شك أنه يبدو إذا كنا سنصف أو يجب أن نصف نتائج البحوث الفرعية وإذا كانت مواد معينة تعد مواد فعّالة تسبب مرض السرطان Cancerienic باعتبارها أحكاماً تطبيقية، أحكام عادة مثلما يجب على الأحكام أن تكون فإننا سنعتبر أحكام عادة مثلما يجب على الأحكام أن تكون، فإننا سنعتبر حقيقة هذه المواد جديرة بالتقدير، بينما لا تعتبر غيرها من المواد كذلك نتيجة لهذه البحوث الفرعية، ولكن الإعلان عن أن المادة المعطاة هي مادة سرطانية فعّالة أم غير فعّالة يبدو أنه لا علاقة له بالتقدير البشري سواء في مدلوله المادي أو في صيغته التعزيزية. ولهذا فإن هذا البحث المحدد أو البحث الفرعي لا يبدو أنه يتكشف عن نتيجة ما في الحكم التطبيقي.

وفي ضوء هذه الاعتبارات، فإنه من الحكمة أن نميز بين الإشكاليات بطريقة كنط والتي نعتقد أنها القضية التي تدور حول إشكاليات تستحق التقدير، وإشكاليات تتعلق بالفعل. وسوف تتكشف البحوث المعنية بهذه الإشكاليات عن نتائج يمكن صياغتها بأنواع مختلفة من التعبيرات الرمزية، وبهذه الطريقة يمكننا أن نميز بحوثاً بعينها، ومحددة القيمة، ووصفية(١٠) وجميع هذه الأنواع من البحث يمكن أن يشملها تعبير ديوي بمعناه الواسع فتصبح «عملية» ويعني أنها فقط يمكن أن تمثل الأنموذج العام للبحث الذي قام ديوي بتحليله وأصبح من الوجهة التاريخية علامة واضحة لعمل العلماء. وأن هذا سيكون متسقاً مع إدراكنا أن الأنواع الفرعية للبحث تختلف فيما بينها في نوع الإشكاليات التي تتناولها مع / في التعبيرات الرمزية التي تتكشف عنها. إن

---

(١٠) انظر كتابي «المعنى والمغزى» دراسة في علاقات العلامات والقيم.
Signification and Significance: A Study of the Relations of Signs and Values.

مثل هذا الإدراك سوف يحمي ديوي من اتهامه «بالنزعة العلمية أو التعالمية» Scienticism التي غالباً ما يدمغه بها النقاد وأعتقد أنها تلتصق به خطأ[١١]. ويحميه أيضاً من الاتهام المضاد بأن نظريته العامة في البحث تأثرت بتوجهه الأخلاقي الخاص[١٢]، وبالتالي فهو ليس «علمياً» بدرجة كافية.

٥ - مشكلة نظم علم القيم

إذا كان علم القيم يرتكز على ظواهر تجريبية للأشياء الجدِيرة بالتقويم وعلى نوع البحث الذي ينتج عنه التقويمات الخاصة بأحكام الخير، وأحكام ما ينبغي فإن الأنساق الأكسيولوچية المحددة يجب أن تختلف في طريقة التعبير عن الأنواع المحددة للأشياء الجديرة بالتقويم اختلافاً نسقياً، وتبعاً لذلك تختلف

---

(١١) إن تركيز ديوي على «العلم» Science كان في بدايته تركيزاً على الاتجاه العلمي Scientific Attitude وكتب ما يأتي عن هذا الموضوع، «يعرف الاتجاه العلمي هنا بأنه صفة كيفية Quality تبدو لنا أينما توجهنا في الحياة. إذاً ما الاتجاه العلمي؟ إنه من الناحية السلبية عبارة عن التحرر من قيود الروتين، والتعصب، والفكرة المتسلطة Dogma، والتقاليد غير الممحصة، والتجرد من الاهتمامات الذاتية. أما من الناحية الإيجابية فهو الرغبة في البحث، والفحص والتمايز، وفي الوصول إلى نتائج تقوم على أساس إقامة الدليل بعد طول معاناة لجمع كل الأدلة الممكنة. إنه النية (القصد) في الوصول إلى معتقدات ثابتة، وأن نختبر تلك المعتقلدات التي تأملناها ولكن على أساس من الحقائق التي تمت ملاحظتها، وأن نتعرف أيضاً على الحقائق التي لا معنى لها ولكنها قد تشير إلى أفكار ما، إنه (الاتجاه العلمي) في مقابل الاتجاه التجريبي الذي نفهم من خلاله أنه عندما تكون الأفكار ضرورية للتعامل مع الحقائق، فإنها تكون مجرد فروضاً تختبر عن طريق نتائجها التي نتجت عنها» (انظر نظرية القيمة، ص٣١).

(١٢) إن ديوي على وعي باحتمالات هذه النقطة، وذكر أنه لو تمكن من نقد أفكاره لوضع هذه القضية من أجل أن يدحضها. (انظر: الملحق في كتاب: فلسفة چون ديوي، اصدار بول آرثر شلب، ص 579. ff.

هذه الأنساق في تعبيراتها الخاصة بـ «القيمة اللاإشكالية» المحددة والمتضمنة في التقويمات المحددة. وسوف يشتمل علم القيم البرجماتي النسقي على مثل هذا العمل. ولا يوجد علم قيم برجماتي نسقي آخر يماثله.(١٣).

حقاً لقد قام بيرس بعمل تقسيم فرعي محدد للعلوم المعيارية Normative Sciences في الفلسفة، ذكر فيه أن المنطق كان يعتمد على الأخلاق Ethics، والأخلاق تعتمد على الجمال Aethetics، ولكن جاء هذا التقسيم في الأعمال المتأخرة لبيرس وقد ظل متناثراً(١٤)، ولم يكن موجهاً بنفس الطريقة كما في العمل السابق، ولم يحاول ديوي أن يربط علم القيم العام (على الأقل كما أنذر بهذا في كتابه «نظرية التقويم» Theory of valuation) بمعالجته لمثل هذه المجالات المحددة مثل علم الأخلاق وعلم الجمال. ومع ذلك فقد عُنيَّ البرجماتيون بدرجة كبيرة بالمجالات المحددة للقيمة، وسوف نتناول بعض أفكارهم عن علم الأخلاق، والنظرية السياسية، وعلم الجمال، والدين.(١٥)

ويجب أن نثبت هنا أولاً ملاحظة عامة، وهي أنه من الضروري في التوجه البرجماتي في جميع الحالات أن نضع الموضوع التجريبي للنسق في صيغة تساؤل ومن ثم فإنه من المهم أن نميز الكتابات النظرية العامة التي تتضمنها أنساق التقويمات المحددة التي قد يتناولها فيلسوف برجماتي بعينه. وعلى سبيل المثال، فإن الأخلاق النظرية ستعني بمثل هذه المشكلات كنوع من أنواع إرتياد مجال الإشكاليات الأخلاقية وكذلك لتحديد ماذا يعني بما نسميه فعلاً

---

(١٣) يعتبر كتاب «رالف بارتون بيري» «عوالم القيمة» Realms of value، السابق ذكره، اسهاماً عظيماً في هذا المجال.

(١٤) انظر: تشارلز ساندرز بيرس، «في المعايير والمثل» On Norms and Ideals بقلم فنست بوتر Vincent G. Potter.

(١٥) انظر: بحثنا القصير في ملحق هذا الكتاب بعنوان: «جون ديوي معلماً» John Dewey as Educator.

«صحيحاً من الناحية الأخلاقية» Morally right لتمييزه تقويمياً، فعل معين في موقف محدد كفعل صحيح من الناحية الأخلاقية. وهناك بعض الفروق المشابهة سيكون من الضروري الإشارة إليها في مجالات أكسيولوجية أخرى. وهناك فيلسوفان برجماتيان يمكن أن يتفقا في طبيعة علم القيم العام وفي إرتياد بعض الأنساق الأكسيولوچية الخاصة مثل ميد وديوي، اللذان اختلفا فيما إذا كان على الولايات المتحدة أن تلتحق بعصبة الأمم The League of Nations التي أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى، أو مثلما اختلف كل من چيمس وبيرس اللذان اختلفا في تأكيدهما على أهمية الفرد والمجتمع.

٦- علم الأخلاق البرجماتي

إن علم الأخلاق(*) هو العلم الذي يتناول نظرية السلوك المعقول أو الأخلاقي Moral behavior فما السلوك الصحيح إذاً؟ لقد اختلف

(*) تفرّق القواميس بين مصطلحيّ الأخلاق بمعنى Ethics والمعقولية أو التصرف السليم أو الصحيح Moral فتذكر القواميس أن علم الأخلاق Ethics هو:

١- فرع من فروع الفلسفة يتناول معيار اتباع الخير والصح ويقوّم الصح والخطأ.

٢- معايير التصرف أو تقنيات السلوك سلوك المهنة والشرعية (See: Macmillan Dictionary, New York, 1973, p. 350) بينما يذكر نفس القاموس أن مصطلح Moral هو:

١- أن يكون المرء صالحاً تبعاً لمعايير الصح والخطأ فنقول «شخص صالح» A moral person.

٢- ما يتفق مع معايير السلوك الصحيح، فنقول: «إنه الشيء الصحيح لفعله» The moral thing to do.

٣- بالنسبة إلى .. أو يهتم بمعيار التصرف الصحيح، فنقول: المناخ الصحيح (الصحيّ) للجامعة The moral climate of a University.

٤- ما يرتقي به الإنسان، أو يساعده على الترقي، أو ما هو في جانب التصرف الصحيح أو الخطأ. على سبيل المثال السلوك الجنسيّ Sexual Conduct، وهذا المصطلح من المصطلح اللاتيني morâlis أي ما يتصل بالأخلاق، mos والعادات والسلوك. واللفظان Moral Ethical يعنيان ما يتفق مع التصرف السليم (Ibid, p. 660) (المترجم).

الفلاسفة في إجاباتهم على هذا التساؤل: فبعض الفلاسفة يعتبر جميع الإشكاليات التي تتعلق بالتعقل والحكمة والحذر ومشكلات أخلاقية، أو أنها تختص بالتهذيب والحكمة، بينما لا يعتبرها الآخرون كذلك. وأعتقد أن جميع الفلاسفة البرجماتيين فكروا في السلوك الأخلاقي الصحيح من خلال مصطلحات اجتماعية، أي أننا لكي نأخذ في الاعتبار سلوك فردي لشخص ما من منطلق نقطة أخلاقية، فإن هذا الاعتبار للسلوك ينبع من نقطة تأثره بأشخاص آخرين فضلا عن تأثره بسلوكه الشخصي نفسه. إذاً فتقويم السلوك إنما هو بحث موجه لتحديد السلوك الصحيح أو السلوك الخطأ.

وكما ذكرنا في الصحف السابقة، فإنه من صفات التوجه الأخلاقي البرجماتي أن تنظر إلى الإشكاليات الأخلاقية من خلال عبارات تعبر عن المواقف الفريدة المحددة[١٦]. لهذا ذكر چيمس قوله «إن ماهية الخير هي ما يشبع حاجة ما» فقد نظر إلى الفعل الأخلاقي باعتباره تحقيق أكبر قدر ممكن من الخير في مواقف تتصارع فيها «الحاجات» Demands، ويقول چيمس:

«لا يوجد غير أمر واحد غير مشروط، وهو ما نبحث عنه بغير انقطاع بخوف وارتعاش، لذلك نصوت ونفعل، كما نسعى للحصول على أكبر قدر ممكن من الخير للكون... وكل معضلة حقيقية هي بمعناها الحرفي الدقيق موقف فريد، والتكوين الصحيح للمثل المدركة والمثل التي فشلنا في إدراكها هي أن كل قرار يوجد هو دائما كون غير مسبوق بشيء ولم يكن هناك قاعدة قبلية مسبقة مناسبة.[١٧] وكتب ميد عبارات مشابهة تتعلق بعلاقة القيمة بالفعل الكامل:

(١٦) لا يبدو أن هذا ينطبق على بيرس الذي ركز أكثر على «الحكمة المألوفة» أو المعتادة Customary morality أكثر من تركيزه على حل الإشكاليات الأخلاقية عن طريق البحث التأملي.

(١٧) وليم چيمس، «الفيلسوف الأخلاقي والحياة الأخلاقية» The Moral Philosopher and the Moral Life، ص ص٣٤٩-٣٥٠.

«صحيحاً من الناحية الأخلاقية» Morally right لتمييزه تقويمياً، فعل معين في موقف محدد كفعل صحيح من الناحية الأخلاقية. وهناك بعض الفروق المشابهة سيكون من الضروري الإشارة إليها في مجالات أكسيولوجية أخرى. وهناك فيلسوفان برجماتيان يمكن أن يتفقا في طبيعة علم القيم العام وفي إرتياد بعض الأنساق الأكسيولوچية الخاصة مثل ميد وديوي، اللذان اختلفا فيما إذا كان على الولايات المتحدة أن تلتحق بعصبة الأمم The League of Nations التي أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى، أو مثلما اختلف كل من چيمس وبيرس اللذان اختلفا في تأكيدهما على أهمية الفرد والمجتمع.

٦- علم الأخلاق البرجماتي

إن علم الأخلاق(*) هو العلم الذي يتناول نظرية السلوك المعقول أو الأخلاقي Moral behavior فما السلوك الصحيح إذاً؟ لقد اختلف

(*) تفرق القواميس بين مصطلحيّ الأخلاق بمعنى Ethics والمعقولية أو التصرف السليم أو الصحيح Moral فتذكر القواميس أن علم الأخلاق Ethics هو:

١- فرع من فروع الفلسفة يتناول معيار اتباع الخير والصح ويقوِّم الصح والخطأ.

٢- معايير التصرف أو تقنيات السلوك سلوك المهنة والشرعية (See: Macmillan Dictionary, New York, 1973, p. 350) بينما يذكر نفس القاموس أن مصطلح Moral هو:

١- أن يكون المرء صالحاً تبعاً لمعايير الصح والخطأ فنقول «شخص صالح» A moral person.

٢- ما يتفق مع معايير السلوك الصحيح، فنقول: «إنه الشيء الصحيح لفعله» The moral thing to do.

٣- بالنسبة إلى .. أو يهتم بمعيار التصرف الصحيح، فنقول: المناخ الصحيح (الصحيّ) للجامعة The moral climate of a University.

٤- ما يرتقى به الإنسان، أو يساعده على الترقي، أو ما هو في جانب التصرف الصحيح أو الخطأ. على سبيل المثال السلوك الجنسيّ Sexual Conduct، وهذا المصطلح من المصطلح اللاتيني morâlis أي ما يتصل بالأخلاق، mos والعادات والسلوك. واللفظان Moral Ethical يعنيان ما يتفق مع التصرف السليم (Ibid, p. 660) (المترجم).

الفلاسفة في إجاباتهم على هذا التساؤل: فبعض الفلاسفة يعتبر جميع الإشكاليات التي تتعلق بالتعقل والحكمة والحذر ومشكلات أخلاقية، أو أنها تختص بالتهذيب والحكمة، بينما لا يعتبرها الآخرون كذلك. وأعتقد أن جميع الفلاسفة البرجماتيين فكروا في السلوك الأخلاقي الصحيح من خلال مصطلحات اجتماعية، أي أننا لكي نأخذ في الاعتبار سلوك فردي لشخص ما من منطلق نقطة أخلاقية، فإن هذا الاعتبار للسلوك ينبع من نقطة تأثره بأشخاص آخرين فضلا عن تأثره بسلوكه الشخصي نفسه. إذاً فتقويم السلوك إنما هو بحث موجه لتحديد السلوك الصحيح أو السلوك الخطأ.

وكما ذكرنا في الصحف السابقة، فإنه من صفات التوجه الأخلاقي البرجماتي أن تنظر إلى الإشكاليات الأخلاقية من خلال عبارات تعبر عن المواقف الفريدة المحددة[16]. لهذا ذكر چيمس قوله «إن ماهية الخير هي ما يشبع حاجة ما» فقد نظر إلى الفعل الأخلاقي باعتباره تحقيق أكبر قدر ممكن من الخير في مواقف تتصارع فيها «الحاجات» Demands، ويقول چيمس:

«لا يوجد غير أمر واحد غير مشروط، وهو ما نبحث عنه بغير انقطاع بخوف وارتعاش، لذلك نصوت ونفعل، كما نسعى للحصول على أكبر قدر ممكن من الخير للكون... وكل معضلة حقيقية هي بمعناها الحرفي الدقيق موقف فريد، والتكوين الصحيح للمثل المدركة والمثل التي فشلنا في إدراكها هي أن كل قرار يوجد هو دائماً كون غير مسبوق بشيء ولم يكن هناك قاعدة قبلية مسبقة مناسبة.[17] وكتب ميد عبارات مشابهة تتعلق بعلاقة القيمة بالفعل الكامل:

---

(١٦) لا يبدو أن هذا ينطبق على بيرس الذي ركز أكثر على «الحكمة المألوفة» أو المعتادة Customary morality أكثر من تركيزه على حل الإشكاليات الأخلاقية عن طريق البحث التأملي.

(١٧) وليم چيمس، «الفيلسوف الأخلاقي والحياة الأخلاقية» The Moral Philosopher and the Moral Life، ص ص٣٤٩-٣٥٠.

ليس المسألة الأخلاقية مسألة إيجاد قيمة صحيحة تعلو على قيمة خاطئة، إنها مسألة إمكانية إيجاد فعل نراعي فيه إلى أبعد مدى ممكن جميع القيم التي يجب أن تتضمنه (فلسفة الفعل، ص٤٦٥). ليس لدينا حق أكثر من ذلك فيجب علينا ألا نهمل القيمة الحقيقية للشيء كما يجب أن لا نهمل واقعة ما في أي مسألة علمية. ففي حل مسألة ما يجب أن نأخذ في اعتبارنا جميع القيم التي لها بها علاقة. (المصدر السابق، ص٤٦١).(١٨)

وقد تم اختبار التركيز على «الموقف الوحيد أو الفريد» The unique situation الذي يحدث فن السلوك الأخلاقي والتقويم الأخلاقي على وجه الخصوص في نظرية ديوي الأخلاقية الدائمة، وهي دائمة، وعلى سبيل المثال، في الفصل الذي كتبه عن الأخلاق Morality في كتابه «التجديد في الفلسفة» Reconstruction in philosophy، بالإضافة إلى «نظرية التقويم» Theory of valuation. إن تحديد ما هو صحيح في الفعل أي ما يجب فعله بطريقة أخلاقية يشبه جميع أنواع التقويمات الأخرى، وهو تحديد ما هو مطلوب لحل موقف إشكالي محدد، فالفرض الأخلاقي المحدد يتكون في الموقف ذاته ولا يأتيه من خارجه:

«إن الإنتهاء إلى وجهات نظر هو تعيين قيمة أو تقويم الفعل كخير أو شر على أساس مطابقتها على ما ينفع Serviceability في مقابل السلوك الذي يتعامل مع حالات غرضية توجد لكي يتم الإعتراض عليها بسبب وجود بعض النقص أو الصراع بداخلها. إنها محددة القيمة بمعنى أن نقول إنها مناسبة أو غير مناسبة صحيحة أم غير صحيحة، صح أم خطأ، على أساس ما تمثله من حاجة requiredness لإنجازها هذه الغاية» (نظرية التقويم، ص٤٧).

(١٨) البحث الرئيس الذي كتبه ميد في علم الأخلاق هو «المنهج العلمي وعلوم الأخلاق» Scientific Method and the Moral Science إن نظرية ميد الخاصة «بالقيام بدور ما Role-taking، توقظ في نفس الإنسان اتجاهات القيمة لدى الآخرين.

إنه نفس النقد المتكرر لمثل هذه النزعة الموقفية Situationism في النظرية الأخلاقية وأيضاً السياسية والتي لها مكان في المعرفة الأخلاقية التراكمية وفي الحكمة. ولكن الحالة تختلف بالتأكيد بالنسبة لديوي، فهو يقول:

«نحن نشك في وجود أفكار الغايات والقيم الخاضعة للتعميم وعلى الرغم من ذلك فهي قد توجد ليس فقط كأفكار تعبر عن العادة وكأفكار لا تقبل النقد وربما كانت غير صالحة، ولكن وبنفس الطريقة أيضاً كأفكار عامة صحيحة تنشأ في أي موضوع ... لأن الأفكار العامة للسلوك في أي علم طبيعي تستخدم كأدوات ذهنية للحكم على حالات خاصة كما تنشأ الأفكار الأخرى، إنها في الواقع، أدوات توجه وتيسر تمحيص الأشياء في الواقع العيني التجريبي بينما هي أيضاً متطورة وتم اختبارها عن طريق نتائج تطبيقاتها في هذه الحالات» (نظرية التقويم، ص٤٤).

وفي المجلد التاريخي المهم عن «الأخلاق» Ethics الذي كتبه ديوي وجيمس هـ. تافتس James H. Tufts[١٩]، نجد أنهما ميزا بين الأخلاق «التأملية» Reflective و«العرفية» Customary أما اهتمامنا في هذه الصحف فإنه سيكون منصباً على العبارات الأخلاقية التأملية، ولكن طالما كانت العبارة المقتبسة الأخيرة واضحة، فإنه لا يمكن إنكار الغايات الأخلاقية العامة والمبادىء، ويشملها المبادىء الأخلاقية «العرفية»، كما إنه ليس من الضروري إنكار صحتها ولإمكان استخدامها كأدوات وسيلية Instrumentality، وعلى الأقل فإن بعضها يمكن حتى اعتباره قبلياً من الناحية الإجرائية أو العملية Operationally a priori بمعنى أن هذا العنوان قد استخدم من قبل، ولكننا سنظل نعتبرها ناشئة. الاهتمام بمسائل أو مشكلات أخلاقية محددة، ولكونها قد قننت مسبقاً فإننا نستطيع أن نواجه بها مسائل أخلاقية أخرى محددة.

---

(١٩) نشر كتاب كل من جون ديوي وجيمس تافتس عن «الأخلاق» Ethics عام ١٩٠٨ وظل لعدة سنوات أحد الكتب المهمة ذات الأثر البعيد في الفلسفة الأمريكية.

٧- النظرية السياسية: الديموقراطية كتصور أخلاقي

إن تفاعلات الأشخاص في أي عملية خاصة بالتفاعل الاجتماعي المباشر -أخلاقي أم غير أخلاقي- تتضمن بطريقة مباشرة التأثير على أشخاص آخرين، وهؤلاء الأشخاص الآخرين هم «الجمهور» a Public. ففي أي عملية خاصة بالتفاعل الاجتماعي المباشر يوجد «جمهور» مكوَّن من أشخاص غير أولئك الذين اشتركوا في التفاعل المباشر، ولكنهم متأثرون بهذا التفاعل، فكل عضو في المجتمع هو في الواقع جزء من الجمهور، وله علاقة بالتفاعلات الاجتماعية المباشرة بالأعضاء الآخرين في المجتمع. ويطوِّر أعضاء المجتمع -كجمهور- القواعد أو المعايير Norms أو المقاييس الخاصة بالتفاعل الاجتماعي المطبقة على جميع أعضاء المجتمع لكي يتم التحكم في المؤثرات العامة للتفاعل الاجتماعي، والأبعد من ذلك فإن هذه المؤثرات التي ذكرناها تنشيء بالضرورة مجموعة من القوانين، والأشخاص الذين يطبق عليهم هذه القوانين هم أعضاء في المجتمع السياسي، والأشخاص الذين يقومون بتنفيذ هذه القوانين يكونون الحكومة. إن النظرية السياسية هي الدراسة العامة للمجتمع السياسي.

وتعتبر الفقرة السابقة نقل بتصرف إلى حد ما لموقف ديوي الذي نشره في كتابه «الجمهور وإشكالياته» The Public and its Problems[٢٠]، وقد قدمناها باعتبارها الأساس لتفسير ديوي للديموقراطية الأمريكية وعلاقته بها.

ويتضح للقاريء في الحال أن كتاب «الجمهور وإشكالياته» يتناول العلاقة

---

(٢٠) يمكن أن نلاحظ وجود فرق بين «النظرية السياسية» التي وردت في كتاب «النظرية الأخلاقية» وبين العبارات المحددة عن المجتمعات السياسية، وبينهما وبين التقويم من حيث وصفه للمجتمعات السياسية، فإن الفكر السياسي والأخلاقي لدى ديوي يحتوي على كلا العنصرين المذكورين معاً آنفاً.

ذات الصلة بالموضوع[٢١] ويلاحظ أن ديوي لا يكتب كعالم سياسي يحاول أن يصف المؤسسات السياسية في الولايات المتحدة، ولكنه يكتب كأحد الأشخاص الذين يدينون الديموقراطية الأمريكية، ناقداً إياها بشدة في أعماله بالإضافة إلى ما وجده حوله ولكنه معنى بتحسين هذه المؤسسات السياسية ونشرها. ولم يعرف ديوي الديموقراطية في عبارات تاريخية، أو سياسية، أو وفق أنظمة اقتصادية معينة، فالديموقراطية بالنسبة إليه كانت تصور أخلاقي Moral Conception بصفة أساسية.

وكان هذا واضحاً منذ البداية ففي عام ١٨٨٨ ألقى بحثاً في جامعة ميتشجان The University of Michigan بعنوان: «أخلاق الديموقراطية» The Ethics of Democracy، تصور فيه الديموقراطية على أنها الأخذ بالمنهج الأخلاقي عند تناول المشكلات الاجتماعية، والمنهج الأخلاقي - كما فسره مؤخراً بالتفصيل - كان - كما رأينا - تطبيقاً للبحث وبصفة أساسية كما يبدو في العلم لحل مشكلات القيمة التي تنشأ في المواقف الاجتماعية. فالديموقراطية - في تصور ديوي - تستمد من التوجه الأخلاقي ليشمل هذا التصور المشكلات السياسية. إذاً ستصبح المشكلات السياسية مشكلات أخلاقية. وبما أن الغاية بالنسبة لديوي لحل أي مشكلة تختص بالقيمة، فإنها تتبلور في تعبيرات الوسائل المتاحة، والوسائل المتاحة تحدد قيمتها بتعبيرات تشمل مدى مناسبتها للغاية الناشئة حتى يكون اختيار الوسائل والغايات قد تقررا معاً.والفعل الأخلاقي - إذاً عند هذا الحد - هو فعل سياسي يجب أن يستخدم وسائل أخلاقية لمحاولة بلوغ الغاية الأخلاقية.

---

(٢١) انظر كتب ديوي «النزعة الفردية Individualism، و«القديم والجديد» Old and New، والنزعة التحررية والفعل الاجتماعي Liberalism and Social Action و«الحرية والحضارة» Freedom and Culture، و«إشكاليات الناس» Problems of Men.

وهناك طريقة أخرى للتعبير عن هذا الموقف وهي أن نقول إنه بالنسبة لديوي وچيمس وميد فإن وجهة النظر الأخلاقية تعتبر أن كل شخص يقف في موقف تقويمي إشكالي يعتبر هذا الموقف غاية في ذاته وليس وسيلة، وتدخل هذه الصياغة ضمن التراث الكنطي ومن ثم النصراني، وسيكون قبول الديموقراطية كتصور أخلاقي نتيجة لإتساع هذا الموقف ليشمل مشكلات المجتمع ككل.

وهناك نقطة إضافية يجب أن نركز عليها طالما أنها تبين أكثر الاسهامات المتميزة للبرجماتية الأمريكية في هذا المجال، فإن بيرس بتوجهه نحو المجتمع العلمي وعمليته الاجتماعية للبحث ينزع نحو التقليل من شأن النزعة الفردية. ولكن چيمس - على العكس - ركز على الأشخاص كأفراد ممجداً الفرد، بعد أن كتب موافقاً على أن «الجماعة أقل شأناً من الفرد»(*)، وكتب يقول: «دعونا نشعر بالغبطة ونحن نطلب الديموقراطية، فإن هذا لن يخنق الفرد، وهذا هو كل شيء».

وعلى الرغم من ذلك فإنه بالنسبة لديوي وميد نجد أن الفرد والمجتمع متلازمين تلازماً كاملاً، وكتب ديوي أن الفرد هو «مركز التجديد بالنسبة للمجتمع»(**)، أما ميد فقد سلم بأن الفرد المفكر، الواعي لذاته Self-Conscious والأخلاقي، يوجد فقط من خلال العملية الاجتماعية، إلا أن تمثيل الفرد بدوره يجعل المستويات الأكثر تعقيداً واختلافاً للمجتمع الإنساني ممكنة. ولذلك فإن المجتمع الإنساني بالنسبة لديوي وميد ليس نسيجاً فسيفسائياً a mosaic من أفراد مستقلين، وليس كل عضوي بحيث يعتبر الفرد دخيلاً عليه. وهكذا فإن تصورهما للديموقراطية يعد خليطاً شاذاً

(*) The group is inferior to individual.

(**) The reconstruction center of Society.

من استحسان للعبارة المشهورة، «دعه يعمل» Laissez faire والأنظمة السياسية التي تحتكر السلطة الاستبدادية totalitarian، ويبدو لي أن هذا الإدراك للمنفعة الكاملة لكل من الفرد والمجتمع هو أحد الإنجازات المهمة للحركة البرجماتية.

٨- علم الجمال والمظهر الجمالي للخبرة

ليس هناك دليلاً على أن التفسير العام للبرجماتية كفلسفة عملية Practically وانتهازية Opportunism وتجنح للنزعة التعالمية Scientism أفضل من المكانة العالية اليت نالتها الخبرة الجمالية Aesthetic experience وبالتالي ما وصل إليه الفن والفنانين من مكانة عالية منحها إياهم البرجماتيون الأمريكيون. حقاً، هناك المظهر الجمالي للخبرة التي يجب أن يستند إليه المعنى في سبيل بلوغ أعلى منزلة لهذه الحركة الفلسفية.

وعلى الرغم من أن المؤلفات الصادرة في علم الجمال ليست مركزة، فإنه لا يوجد عرض مناسب ممكن في صحف قليلة.[٢٢]. وسوف نركز الانتباه على وجهات نظر ديوي منذ أن بدأ عمله (وعلى وجه الخصوص «الفن كخبرة Art Experience) وهو ذو أهمية رئيسة في هذا الموضوع.

كتب ديوي في كتابه «التجديد في الفلسفة»:

---

(٢٢) هناك بحث لميد بالإضافة إلى ما ذكره ديوي في كتابه «الفن كخبرة» وبعض الفصول في كتابه «الخبرة والطبيعة» Experience and Nature بعنوان «طبيعة الخبرة الجمالية» The Nature of Aesthetic (وقد تم إعادة طبعه مع بعض الحذف في كتابه «فلسفة الفعل» في الصحف ٤٥٤-٤٥٧. والفصول ١٤-١٥ في كتاب لويس «تحليل المعرفة والتقويم»، وكتاب «الفن والحرية» (في مجلدين) لهوراس م. كالين Horace M. Kallen وكتاب «مقدمة في علم الجمال» An Introduction to Beauty بقلم «فان ميتر آمز» Van Meter Ames.

«حقاً، لايوجد تساؤل دال أمام العالم أكثر من التساؤل عن إمكانية ومنهج التوفيق بين اتجاهات العلم العملي والإدراك العالي للجمال»[٢٣].

وقد صدر كتاب «الفن كخبرة» عام ١٩٣٤ (وبعد ١٤ سنة) أجاب ديوي على هذا التساؤل، فقد وجه ديوي في هذا العمل الانتباه لما تتضمنه الممارسة اليومية للحديث عن «الخبرة»:

«(نقول) إننا حصلنا على الخبرة عندما تجري المادة المختبرة في مجراها إلى غايتها، عندئذ فقط تتكامل داخل مجرى الخبرة العام المحدد عن الخبرات الأخرى. وقد انتهى جزء من العمل بطريقة مرضية، فالمشكلة تجد لها حلاً، لقد انتهت المباراة، إن الموقف - سواء كان تناول طعام، أو ممارسة لعبة الشطرنج، أو إجراء محادثة، أو كتابة كتاب، أو الاشتراك في حماسة (مظاهرة) سياسية -، إنها جميعاً تقترب من الكمال وليس من الموقف، إن مثل هذه الخبرة كاملة وتتسم بفرديتها الخاصة المتفردة واكتفائها الذاتي. إنها الخبرة». (الفن كخبرة، ص٣٥).

ويضيف قائلاً:

«وفي الخبرة الجمالية المتميزة صفات تخضع لخبرات أخرى مسيطرة، تلك الخبرات النابعة أعني بها خبرات ضابطة، فالصفات التي توجد في الفضيلة والتي تتكامل في الخبرة هي خبرة متكاملة بمعناها الخاص». المصدر السابق ص٥٥.

ثم يضيف أيضاً قوله:

«إن الموضوع الخاص المتميز والمسيطر هو موضوع جمالي، ينتج عنه صفة الاستمتاع التي ترتبط بالإدراك الحسيّ الجمالي، وعندما تعلو العناصر التي

---

(٢٣) جون ديوي، «التجديد في الفلسفة»، ص١٢٧.

تحدد أي شيء وهي ما يمكن أن نسميها الخبرة الجمالية التي تسمو على الإدراك الحسيّ المجرد وتعلن عن نفسها». (المصدر السابق ص٥٧).

وعندما تتميز الخبرة الجمالية بهذه الطريقة فإنه يصبح من الواضح أن الجمال ليس نوعاً واحداً خاصاً من الخبرة يختلف اختلافاً بيناً عن الأنواع الأخرى منها، ولكنها مسألة درجة تأخذ فيها الخبرة صفة الاكتمال. ومن ثم يصبح لدينا خبرة جمالية، ومثل هذه الخبرة هي موضوع علم الجمال، ويعتبر الفن جزءاً من هذا الموضوع فقط، حيث أن الفن كنتاج إنساني يمكن النظر إليه باعتباره من إنتاج موضوعات تكوّنت على وجه الخصوص لكي تسمح بوجود الخبرة الجمالية وتؤكد عليها.

وطالما أن الإنتاج والإدراك الحسيّ في الفن أنشطة إنسانية وهي بالنسبة لديوي أنشطة إنسانية متشابهة تماماً، وطالما أن الحصول على خبرة جمالية- حتى عندما يثيرها العمل الفني- تتضمن نشاطاً متكاملاً فإنها جميعاً تتسق مع التوجه الفعلي للبرجماتية في علم الجمال عند ديوي. ولا ينتفي القول بالوسيلية Instrumental في فكر ديوي في هذا التحليل، أما بالنسبة للأعمال التي ينتجها الفنانون فإنها تعد كوسائل في عملية التغيير، وإضافة لبيئة الإنسان لكي يمد سيطرته على جميع نواحي التكامل في خبرته.

إذاً أين العنصر «التأملي» Contemplative في «التقدير الجمالي» Aesthetic appreciation؟ هناك مصدران على الأقل عند ديوي لهما علاقة بهذه النقطة. أحدهما يتمثل في إدراكه أن للخبرة وجهان: فهي موضوع معاناة undergoing، فضلاً عن أنها عمل، فإن ما يعانيه الإنسان نتيجة لعمله يمكن أن يكون هو ذاته رد فعل وبالتالي يصبح موضوعاً أو عنصراً جوهرياً للخبرة الجمالية. فتوجه ديوي نفسه توجهاً قوياً لدرجة أنه يعد توجه عالم الأخلاق الذي لا يؤكد تأكيداً مناسباً دائماً في كتاباته على «المعاناة» الناشئة عن الخبرة،

ولكن هذا الإهمال يصح في علم الجمال لديه وليس في علم الأخلاق.

والموضوع الأكثر أهمية أن ديوي يتيح في علم الجمال التأكيد البرجماتي العام على علم العلامات (السيمياء)، بينما يجد أنه من غير الضروري أن يفعل ذلك دائماً، فإنه يمكن أن يعبّر عن «الخبرة» وبهذا يكتسب نوعاً من الاتجاه التأملي إلى جانبه. إلا أن الدلالة الأكبر هي أنه في الحقيقة حتى إذا لم تكن جميع الأعمال الفنية علامات (سيميائية) وهذه نقطة مثار خلاف، فإن كثيراً منها يعد علامات أو أنها تتضمن علامات ما.

وفي كتاب «الفن كخبرة» نجد أقوالاً كثيرة لديوي فيما يتعلق «بالمعنى» الخاص بالفن، وعلى وجه الخصوص في الفصل الخاص بالموضوع المعبّر... The expressive object وقد مايز بين التعبير والبيان: «إن العلم يقرر المعاني، والفن يعبّر عنها».(*) (ص٨٤)، والنص الآتي يوضح هذا التمايز:

«يختلف الشعر عن النثر، وفن الجمال يختلف عن العلم، ويختلف التعبير عن التقرير، ويوجد في هذا الاختلاف شيء وما مختلفاً فيما يؤدي إليه من خبرة، إن المسافر الذي يتبع العبارة أو الاتجاه الذي تشير إليها اللوحة يجد نفسه في المدينة التي تشير إليها وبالتالي فإنه يحصل من خبرته الخاصة على شيء من المعنى الذي يخص هذه المدينة. فبإمكانه أن يحصل عليها إلى الحد الذي تعبّر به المدينة عن نفسها بالنسبة إليه، كما عبّرت مدينة تينترن أباي Tintern Abbey عن نفسها في قصيدة وردورث Wordworth... فإن قصيدة وردورث تختلف فيما تمنحه تينترن أباي من معنى. فبالنسبة لجامع الآثار والتحف. فالقصيدة .. لا تحدث أثراً ملائماً بالحجم الصحيح الذي في العبارة الوصفية ولكن بما يوجد في الخبرة نفسها. فالشعر والنثر، والتصوير

(*) "Science states meanings; art express them'.

والرسم تعطي أثراً ملائماً من خلال وسائل مختلفة لكي تصل إلى غايات مختلفة. فالنثر يتناول قضايا، ومنطق الشعر قضايا عليا، حتى عندما يستخدم ما يسمى نحوياً بالقضايا. فالثانية لها قصد، فالفن هو تحقيق مباشر للقصد» (الفن كخبرة، ص٨٥).

وعلى الرغم من أن ديوي لا يستخدم المصطلحات الواردة في علم العلامات الذي ورد في كتابات بيرس، فإنه يمكننا أن نرى من هذا النص ومن إشاراته المتكررة إلى الرسومات Paintings في الفن كخبرة، إن عمل الفن غالباً، وربما دائماً، ما يعتبر علامة صورية an iconic sign فالصورة هي النظرية التي تقوم بدور رئيس في أعمال بيرس المختلفة إلا أن لها إشارات معبّرة عن علم الجمال[٢٤] وتتمثل خصوصية العلامة الصورية في أن ما تشير إليه متضمن في العلامة الأداتية ذاتها، ولهذا فإذا كانت تشير إلى خبرة متكاملة فإن جزء من تلك الخبرة المتكاملة يكون متضمناً في العلامة الأداتية ذاتها.[٢٥] وهذه ليست القصة الكاملة لكيفية تفسيرتصور ديوي عن «المعنى المعبّر» Expressive meaning، ولكن هذا يوضح أن مصادر نظرية العلامات (السيمياء) متاحة لإيضاح تصور ديوي المشار إليه.

---

(٢٤) انظر: ماكس هوكت Max O. Hocott، «الأسس المنطقية لعلم الجمال عند بيرس» The Logical Foundations of Peirce's Aesthetics.

(٢٥) قام مؤلف هذا الكتاب بتطوير هذا الموقف في عدد من الدراسات. انظر: الفصل الخامس (الفن والعلامات والقيم Art, Signs, and Value) في كتاب: المعنى والمغزى Signfication and Significance، للاطلاع على مناقشة الموقف العام والإشارات للمقالات الأخرى. وهناك تحليل مصطلح «معبّر» Expressive في كتاب «الإشارات، واللغة والسلوك Signs, Language and Behavior، ص ص٦٧-٧١.

٩- الدين والقيم الإنسانية

كتب چيمس: «إن الدين مهما كان، هو مجموع ردود أفعال الإنسان بإزاء الحياة»(٢٦) ولم يعتقد چيمس نفسه أن هذا يعتبر معياراً كافياً عن الدين، كما لم يعتقد بيرس نفسه ذلك، فبالنسبة إليهما فإن الاعتقادات الإضافية موجودة في شيء آخر مثل الاعتقاد في قوى إلهية مقدسة يتعاون معها الشخص في درب الحياة. ولكن بالنسبة لچيمس فإن هذه الاعتقادات الدينية على وجه الخصوص تختلف اختلافاً بيناً بين الأفراد والحضارات ولذلك تأتي بمعنى ثانوي بالنسبة لوظيفة الدين الشائعة للإنسان الجديد فهي مجرد «مجموع ردود أفعال الإنسان بإزاء الحياة».

وعلى الرغم من أنه لم يكتب أحد من البرجماتيين، أو لديه كتابات من هذا النوع، مثل اللاهوتيين التقليديين، فإنهم تعاطفوا بلا استثناء مع الدور العام الذي يؤديه الدين في الحياة الإنسانية. وكان لكل من بيرس وچيمس اعتقادات قريبة مما تحتويه النصرانية اللاهوتية التقليدية، بينما نظر كل من ميد وديودي إلى الدين نظرة طبيعية. وطالما أنه من المستحيل التعامل مع موقف كل هؤلاء الرجال عن الدين في هذا الفصل، لذلك فإننا سوف نركز هنا بطريقة عشوائية على نحو ما على فكر ميد.(٢٧)

---

(٢٦) وليم چيمس، «تنوع التجربة الدينية» The Varieties of Religious Experience، ص٣٥.

(٢٧) بالإضافة إلى المراجع التي تم ذكرها لميد في هذه الفقرة فهناك مراجع أخرى مهمة تمثل وجهات نظر البرجماتيين في الدين منها: بيرس «مجموعة الأبحاث» Collected Papers، المجلد التاسع، الفقرات ٣٩٥-٥٥٦، وليم چيمس «تنوع الخبرة الدينية» The Varieties of Religious Experience، ديوي «الإيمان الشائع أو الفطري» A Common Faith إدوارد سكريبنر آمز Edward Scribner Ames «علم النفس الخبرة الدينية والصلوات والتأملات والدين The Psychology of Religious Experience Prayers and

وقد اعتقد ميد أن بعض فروض النصرانية «على درجة كبيرة من الأهمية في العالم الغربي» (فلسفة الفعل ص٤٦٦)، وكان أحد هذه الفروض يتناول معقولية العالم The intelligibility of the world، وقد منح هذا الفرض الرجل الغربي ثقة في أنساقه الذهنية سواء الفلسفية أو العلمية. بينما ساعدت نظريات أخرى مثل تلك النظريات الخاصة بأبوة الإله The fatherhood of God وإخوة الإنسان Brotherhood of man الرجل الغربي على الثقة في أنساقه العلمية، وقامت بدور مهم في الحركة الخاصة بالديموقراطية السياسية.

ومايز ميد بين وجهين من أوجه الخبرة الدينية: الوجه الصوفي و«الحاجة إلى الخلاص». وحاول أن يمايز بينهما باستخدام تعبيرات علم النفس الاجتماعي.

أما الوجه الصوفي للخبرة الدينية «فإنه ذلك الاتجاه لشعور الشخص نحو كل الناس وكل شيء عن أنفسنا». (العقل والذات والمجتمع، ص ٢٧٥) - واعتبره تعميماً كاملاً عن الدور المنوط به Role-taking نحو الأشخاص والأشياء:

«إن اهتمام الشخص هو اهتمام بكل الناس، وهناك توجه كامل نحو الأفراد، ويوجد التحام بين ضمير المتكلم me وضمير الفاعل I داخل الفرد، (المصدر السابق، ص٢٧٤) الموقف الاجتماعي يسود فوق جميع العالم (المصدر السابق ص٢٧٥).

واعتبر ميد أن «الحاجة إلى الخلاص» أهم وجه من وجهي الخبرة الدينية المذكورين آنفاً وتناوله بشيء من الاسهاب (فلسفة الفعل ص ص٤٧٥-٤٧٨)

Meditations, and Religion وهوراس كالين «العلمانية هي إرادة الإله» Secularism is the will of God. وهناك كتابان لي (مؤلف هذا الكتاب) لهما علاقة بالدين والقيم هما «درب الحياة: مقدمة إلى عالم الدين» Paths of Life: Preface to a World to a World Religion و«تنوع القيمة الإنسانية» Varieties of Human Value.

واعتبر الحاجة إلى الخلاص «ليست خلاص الفرد ولكن خلاص الذات كموجود اجتماعي» (ص٤٧٦) لأن النفوس الاجتماعية - طبقاً لرأي ميد - تتمثل في أننا دائماً ما نحمل نظاماً اجتماعياً مثالياً لا يوجد في الحالات التي نعيش فيها (ص٤٧٥). وكلما كان التناقض كبيراً، كلما كانت الحاجة للتغير الاجتماعي كبيرة، وكانت الحاجة للخلاص أكثر انتشاراً (ص٤٧٧). وتعود خبراتنا الدينية إلى إمكانية تطوير المجتمع لكي نحقق تلك القيم التي تمتلكها الكائنات الاجتماعية (ص٤٧٦)، ويسأل ميد بطريقة خطابية هذا السؤال: أليس أكبر عبقرياً في مجال الدين هذا الشخص الذي يحمل بمعنى ما معين في نفسه نظاماً اجتماعياً أعلى حيث اعتبر نظامه المباشر أعلى من غيره؟ (ص٤٧٧).

ويجب أن نلاحظ أن ميد لا يستعمل التفسير النفسي الاجتماعي Social Psychological بديلاً عن الخبرة الدينية بطريقة الميتافيزيقا الدينية التي استخدمها به كل من بيرس وچيمس، فهو يقول:

«لا توجد طريقة في الوقت الحالي نستطيع بها مع وجود أي ضمان أن نربط تاريخ الإنسان والقيم التي ظهرت في المجتمع بتاريخ الكون الفيزيقي».

(فلسفة الفعل، ص٤٧٨).

«كما لم ينظر ميد إلى اللاهوت Theology على أساس التقويمات التي نحتاجها لمجابهة المشكلات الاجتماعية والفردية. وقد تناول هذه الكتابات في بحثه النزعة التجريبية كفلسفة للتاريخ» Experimentalism as a philosophy of History. (فلسفة الفعل، ص ص٤٩٤-٥١٩).

ويقال إن ميد في هذا المقال يبين الفرق بين «الفلسفة الأوغسطينية عن التاريخ The Augustinian Philosophy of History التي ترى أن جميع القيم محددة وثابتة عن طريق السلطة وبين «فلسفة التاريخ الجديدة» The New Philosophy of History الناتجة عن التطور الاجتماعي (ص٥٠٤). في هذه

الفلسفة الجديدة للتاريخ التي يفضلها ميد بوضوح، يواجه الإنسان مشكلاته الاجتماعية كما تبدو له دون تغيير يذكر. ويعترف ميد أن بعض الملاحظات عن القيم «تحدث ... بعيداً جداً عن بداية الخبرة الفكرية (ص٥٠٤) ولكنه يعتقد - متفقاً مع النظرية الأخلاقية البرجماتية التي ناقشناها بالفعل - أن منهج العلم يجب أن يستخدم الآن لمواجهة مشكلاتنا الاجتماعية (ص٥٠٩) ورأي ميد هنا واضح للغاية فهو يؤكد على تطبيق المنهج العلمي ولا يطلب من العلماء أو «العلم» أن يحددوا له «ماذا يفعل» فلا الميتافيزيقا، ولا اللاهوت، ولا العلم يستطيعوا أن يحلوا محل نشاط التقويم الأخلاقي.

فإذا كانت فلسفة التاريخ للشخص من النوع التطوري، فإنه يجد معنى الحياة في تنظيم جميع القيم التي تتضمنها مشكلات التصرف (السلوك) Conduct والتفسير، والبحث عن إعادة بنائها بناءً يتفق مع السلوك الذي أدرك جميع الاهتمامات الموجودة بداخله (فلسفة الفعل، ص٥١٢).

وخلاصة القول، فإنه يمكن أن يقال إنه إذا كان جميع البرجماتيين قد تعاطفوا مع ملامح بذاتها في الدين، وإذا كان كل من بيرس وچيمس - عكس ميد وديوي - أنفسهم يتمسكان بشكل اللاهوت النصراني، فإن التأكيد المميز للبرجماتية كان على الدين كعنصر يعمل على التوجيه الكلي للإنسان وليس على الدين باعتباره نسقاً من المعتقدات اللاهوتية.

١٠ - تعقيب على علم القيم البرجماتي

إن إسهام البرجماتيين الأمريكيين في نظرية القيمة هو أحد انجازاتهم الفلسفية الكبرى. فمكانة ديوي الرائدة في مجال القيم واضحة للعيان. كما أن عمل چيمس أيضاً موجه نحو القيمة وله أهمية خاصة في موضوع الدين، ولكنه لم يتناول بطريقة فنية أكبر الكتابات الأكسيولوچية، ولا الموضوعات الأكسيولوچية على تنوعها، بنفس الطريقة التي تناولها به ديوي. وعلى الرغم

من أن كل فلسفة بيرس يتخللها نظريات خاصة بالقيمة، إلا أن تناوله المحدد لموضوعات أكسيولوجية جاء في أخريات حياته، وعنى أكثر بمكانة العلوم المعيارية في بنائه الفلسفي أكثر من تحليله المفصل لتعبيرات أو مصطلحات القيمة والتقويم. أما تصور ميد عن المرحلة المتكاملة للفعل وتحليله لدوره، فهو على درجة وثيقة بالمشكلات الأكسيولوچية، غير أنه لم يجعل عرض هذه الصلة محور اهتمامه. ويظل ديوي فيلسوف القيمة (الأكسيولوچي) المؤيد البارز للحركة البرجماتية ومن ثم كان اهتمامنا منصباً أولاً على هذا الفكر.

وما فعله البرجماتيون بوجه عام عند تناولهم لنظرية القيمة هو وضعهم لمكانة القيم داخل سياق حياة الكائن الإنساني الحيّ في علاقته بعالمها، ومكانة التقويم داخل النظرية العامة للبحث. وهكذا أصبحت الأكسيولوچية (علم القيم) علماً تجريبياً، ومن ثم أصبح توجه علم القيم نحو النزعة التجريبية والسلوكية.

والقيم كظاهر تتم بالملاحظة عزلت كل ما يتعلق بالسلوك، وعلى الرغم من ذلك فقد تم ذلك بالتفصيل؛ لأن هذا الذي تم اختباره أو سيتم اختباره يدعو «للإعجاب» (بيرس)، ولأنه يمثل صفات الموضوع الذي يسمح بتمام الفعل (ميد)، ولأنه يشبع «الاحتياجات» (چيمس)، ولأنه يتصل بموضوعات الأشياء الجديرة بالتقدير، أو بمعنى أدق، بتلك الأشياء الجديرة بالتقدير والتي تحدث بعد مشاركتها لتلك النتائج الجديرة بالتقدير (ديوي).

والشائع عن هذه النظريات هو تصور أن الفعل غرضي Purposive أو موجه نحو غاية ما Telic، أو موجه نحو هدف ما Goal - Oriented، وهي تعبيرات تحتاج تطبيقاتها إلى أن تكون لديها القدرة على تعزيزها عن طريق الملاحظة. ولا يتضمن هذا أن جميع الأفعال ذات «هدف» أو أنها تهدف إلى غاية end - in - view. وما يتعلق مثلاً بكلب «ذاهب إلى البيت»، فإن دوافعه

هي أن هناك موقفاً بعينه فقط سيسمح له بأن تكتمل غايته، وأن حركاته ستؤدي به إلى الوصول إلى هذا الموقف. وهذا لا يتطلب أن يكون هدف الوصول إلى البيت بالنسبة للكلب هو نهاية المطاف، وعلى سبيل المثال، إن ما يحدد الهدف - وهذا التحديد بالذات - يتم تحديده على الأقل بطريقة جزئية عن طريق حركاته الفعلية. وكثيراً من أفعال السلوك البشري على الرغم من أنه قد يكون كله يهدف إلى غاية بطريقة رمزية.

ويمكن النظر إلى التقويم وعلى الخصوص عند ديوي كبحث يحدد ما هو جدير بالتقويم في موقف إشكالي يختص بالقيمة Value - Problematic Situation، وذلك في موقف أصبح فيه التقدير إشكالياً. ومثل هذا البحث يتشكل من خلال النزوع نحو نهاية المطاف، واختباره بعبارات تتناول قدرته على حل الإشكالية التي يقصد حلها. ويمكن أن يكون بحث التقويم - وبالنسبة لديوي يجب أن يكون - نفس الأنموذج العام للبحث الموجود في العلم، ويكمن الفرق في نوع المشكلة وعلى سبيل المثال فالقيمة أو مشكلة الجدارة هي ما تحدد ضرورتها. وبالمثل، يمكن أن يكون هناك أنواع خاصة من مشكلات القيمة، وستعكس الفروق الخاصة بالتقويم في البحوث الأولية سواء كانت في طبيعتها أخلاقية أو سياسية أو جمالية.

وسيحدث نفس الشيء في كل تلك البحوث وفي أي حالة خاصة محددة في سياق لا إشكالي، وهو لا إشكالي بالنسبة لذلك الموقف. وستقيم نتائج البحوث الناجحة المختلفة صرحاً معرفياً قائماً على تأكيدات مبرهن عليها بالنسبة لديوي كما ستستخدم مثل كل النظريات التعميمات كأدوات وليس كاعتقادات Dogmas عند تناول مشكلات جديدة خاصة بالقيمة.

ويوجد هناك اتفاق معقول في القيم اللاإشكالية العامة لدى البرجماتيين المختلفين أنفسهم وهي مهمة بالنسبة للمنهج العلمي، والديموقراطية، والأخلاق. ولم يمنع هذا بالطبع من وجود فروق معينة بينهم. وهذا المفهوم سيتضح إذا مايزنا فيه بين النظرية في طبيعة القيم العامة للشخص والتقويمات وبين القيمة الشخصية والتقويمات الفردية للشخص.

ويبدو لي أن الصعوبات الفنية الرئيسة في علم القيم البرجماتي تكمن في الواقع في أن البرجماتيين لم يطوروا، كما لم يطبقوا نظرية عامة في العلامات (السيمياء) على تحليل الجمل والعبارات الأكسيولوجية وغير الأكسيولوجية، ولهذا فليس من السهل أن نتأكد من العلاقة بين «أحكام الواقع» Judgments of facts و«أحكام الخير» Judgments of Good وأحكام العادة Judgments of Practice ببعضها البعض أو بعلاقتها بالقضية البرجماتية.

في بعض الأحيان مايزوا بين الحكمين الأخيرين، وفي أحيان أخرى لم يمايزوا بينهما كما أن العلاقة لأحدهما أو لكليهما «بحكم الواقع» لم تكن واضحة دائماً، وكنتيجة لهذا فإن علاقة البحث الأكسيولوجي وغير الأكسيولوجي أصبحت علاقة غامضة. وقد لاحظنا منذ البداية أن علم العلامات (السيمياء) البرجماتي - وهو مهماً كما يبدو- ظل علماً غير مكتمل في تطوره، ويتضح مرة أخرى علم الاكتمال هذا في النصوص البرجماتية التي تناولت علم القيم.

أما التقويمات فإنها تحتوي على «محتوى معرفي» Cognitive content عبقري أو على «معنى ذهني» Intellectual Purport وليس فقط تعبيرات عن الانفعالات أو محاولات للتأثير على الآخرين، فإن هذه التقويمات تدل على وجود ملامح مهمة في علم القيم البرجماتي. وهذه النظرية تناولها جميع البرجماتيين على المشاع. فهي نظرية محورية في نسقهم ككل.

الفصل الخامس

علم الكون (الكوزمولوچيا) البرجماتي



الفصل الخامس

علم الكون (الكوزمولوچيا) البرجماتي

١ - الكوزمولوچيا أو الميتافيزيقا

كان من الممكن أن نعنون هذا الفصل بعنوان «الميتافيزيقا البرجماتية» وإذا فعلنا ذلك نكون قد أخذنا حقاً بمصطلح بيرس[1] وقد تساءل بيرس ماذا يتبقى من الفلسفة إذا قبلت القضية البرجماتية، تلك القضية التي تحدد الفروض المسموح بها من تلك التي تقبل التحقيق، وكانت إجابته كالآتي:

«... إن ما يتبقى من الفلسفة هو سلسلة من المشكلات القابلة للبحث باستخدام مناهج الملاحظة الخاصة بالعلوم الحقيقية ... وبهذا تعتبر البرجماتية نوع من الوضعية الأصيلة Prope- Positivism ولكن ما يميزها عن الأنواع الأخرى هو : أولاً- احتفاظها بالفلسفة الخالصة، ثانياً- قبولها التام للأساس الرئيس لمعتقداتنا الجوهرية، وثالثاً- إصرارها الهائل على صدق الواقعية المدرسية Scholastic realism ... ولهذا، فبدلاً من مجرد السخرية من الميتافيزيقا مثلما فعل أصحاب الوضعية الأصيلة الآخرين، باطلاق الضحكات الساخرة الطويلة، فإن البرجماتي يستخرج منها (الميتافيزيقا) ماهية ثمينة، مما يمكن استخدامه ومنحه الحياة وإلقاء الضوء على الكوزمولوجيا والفيزيقا، وفي نفس الوقت فإن التطبيقات الأخلاقية للنظرية ستكون إيجابية وفعّالة، وهنا استخدامات أخرى كثيرة ليس من السهل تصنيفها». (المجلد الخامس الفقرة ٤٢٣).

---

(١) يعتبر بيرس كل من الأونطولوچيا (علم الوجود) Ontology والكوزمولوچيا (علم الكون) Cosmology والدين فروع من الميتافيزيقا (انظر المجلد، الفقرة ١٩٢).

ويعتقد هنا بيرس أن البرجماطيقية Pragmaticism تستخلص «ماهية ثمينة»، من الميتافيزيقا، تخدم «الكوزمولوجيا والفيزيقا» وما تبقى Residue منها هو الميتافيزيقا التقليدية التي سادت لفترة طويلة وتقوم على الملاحظة - ومن ثم فإنها ستصبح «ميتافيزيقا علمية» Scientific metaphysics، وبهذا المعنى ستكون الميتافيزيقا بالنسبة لبيرس جزءاً من الفلسفة - ونظرية في الواقع، أما الأجزاء الأخرى فستكون ظاهرية Phenomenology أي دراسة ما هو ظاهر، والعلوم المعيارية (علم الجمال، والأخلاق والمنطق). وسنلقي الضوء على ملامح ميتافيزيقا بيرس في التو والحال.

ومع ذلك، فإذا كان عنوان هذا الفصل «الكوزمولوچيا البرجماتية» فإنه يبدو أن العنوان المفضل هو «الميتافيزيقا البرجماتية». وغالباً ما كان بيرس ذاته يبدي ملاحظات سلبية على الميتافيزيقا التقليدية. أما ديوي -الذي استخدم المصطلح كما في كتابه : الخبرة والطبيعة - فقد اعتقد أن المصطلح يكون غامضاً إذا ما طبق على نظرياته. واستخدم ميد المصطلح بوجه عام بنوع من الاستخفاف. وبالنسبة لمعظم كتّاب تاريخ الفكر الفلسفي فقد كانت «الميتافيزيقا» معارضة للعلوم التي تقوم على الملاحظة. أما بالنسبة لكتّاب معاصرين كثيرين فما زال هذا الموقف صادقاً.[٢] ومن ثم فالأسباب بالنسبة للحركة البرجماتية - سواء كانت أسباباً داخلية أم خارجية - فيبدو أنه من المرغوب فيه أن نتحدث عن «ميتافيزيقا برجماتية» في هذه المناقشة الحالية، ولهذا فإن التعبير «كوزمولوچيا» استخدم على الرغم من خلفياته الخاصة

---

(٢) وهذا هو الغالب عند بعض البرجماتيين، فالميتافيزيقا لدى سي. أي. لويس تتكون من جمل وعبارات تحليلية ولكن بدون محتوى كوزمولوچي. (انظر: الفصل الأول من كتابه: العقل ونظام العالم Mind and World- Order وقد بيّنت فكرة مشابهة إلى حد ما في كتابي «العلامات واللغة والسلوك» ص ص١٧٥-١٧٨، وهكذا تم التمييز بين الكوزمولوچيا والميتافيزيقا.

مثل الحقيقة التي تقول إن علم الكون عند بيرس عبارة عن جزء فقط من الميتافيزيقا وعلى أية حال، فإن الاهتمام هنا سينصب على نظريات البرجماتية عن «العالم» أو «الكون» The Universe أو الكون Cosmos شاملاً مكانة الإنسان في هذا الكون.

ويجب أن يكون مثل هذا الكون - بالنسبة للبرجماتي - موجود على أساس الخبرة، ويجب أن يكون نافعاً مبدئياً، ومنسجماً مع ذاته، وستختلف نتائج العلوم الخاصة عن العلوم فقط في تعبيراتها ومصطلحاتها بصفة عامة. لهذا يجب أن يكون الكون موجوداً، وأن يتم اختباره على ضوء المدى الكلي للخبرة[٣] ولكن لأن نقول هذا فإننا نجابه مشكلة أساسية مرة أخرى وهي: ما تصور البرجماتي عن الخبرة؟

٢ - الخبرة كمحتوى

لقد ناقشنا باستفاضة في الفصل الثاني النظرية البرجماتية في الخبرة وعلاقتها بالبحث ونظرية المعرفة، وسوف نتناول هنا الخبرة وعلاقتها بالكون.

وقد ثار جدل شديد في الحركة البرجماتية بإزاء هذه المشكلة الموروثة فيما يخص قبول تراث الفلسفة التجريبية الإنجليزية من جهة، وقبول النظرية التطورية البيولوجية من جهة أخرى، أما بخصوص الفلسفة التجريبية الإنجليزية

---

(٣) يتسق هذا النقد مع عدد من الفروض حول الكون Cosmos، وفي الواقع توجد عدة اختلافات بين البرجماتيين عند تناولهم لعلوم الكون Cosmologies، وبالتالي فلا توجد «كوزمولوجيا برجماتية موحدة» يمكن أن نخرج بها من هذه المناقشة. بل إن الفروق البادية في وجهات النظر الخاصة بالكوزمولوجيا متسقة تماماً مع الواقع بالنسبة للمعنى والمنهج، تماماً كما يتفق عدد من علماء الطبيعة على استخدام المنهج العلمي، ولكنهم في ذلك يختلفون في نفس الوقت عند تناولهم للفروض طبقاً لذات المنهج، ومثال ذلك الفروق العلمية المعاصرة فيما يختص بأصل القمر ونشأته.

فإن «الخبرة» كانت موضوعاً يشتمل محتواه على مثل هذه التعبيرات: الإحساسات Sensations الإنطباعات الحسّية Impressions الصور الذهنية images، الأفكار Ideas والآراء (الأفكار) Thoughts، وتم وصف هذا المجال الفكري ككل بعبارات مثل: الفردية Individual والخصوصية Private والذاتية Subjective والذهنية Mental والوعي بالشعور Conscious، ومن ثم المشكلة التاريخية لعلاقة الخبرة بالعلم ككل.

وبالنسبة للبرجماتيين فقد كان چيمس أقرب إلى التجريبيين الإنجليز، وكان من بين الفروق الرئيسة التي يختلف فيها عن التجريبية التقليدية إدراكه الأوسع لمحتويات الخبرة، وهي تشمل العلاقات فضلاً عن عدم الاستمرارية Discontinuities، وهذا يناسب أكثر الخبرة الفنية التي تعتبر موضوعاً للفلسفة وبهذه الروح صاغ نظريته في «التجريبية الأصيلة» Radical empiricism واحتوت النظرية في جانب منها على المصادرة المنهجية ومؤداها: أن «الأشياء الوحيدة القابلة للمناقشة بين الفلاسفة أشياء معروفة بعبارات مأخوذة من الخبرة».[4]

وكان موقف چيمس من الكوزمولوجيا قريباً للغاية من هذه المصادرة المنهجية، أعني أن الواقع «الكون» ذاته يتم فهمه من خلال تعبيرات أو مصطلحات تأتي عن طرق الخبرة، وسميّ هذا الجزء من نظرية التجريبية الأصيلة «فلسفة الخبرة الخالصة»[5] Philosophy of pure experience.

---

(٤) انظر مقدمة كتاب وليم چيمس «معنى الصدق» The Meaning of Truth، ص ص xii-xiii، حيث تجد الصياغة الكاملة للنظرية التجريبية الأصيلة والنص المقتبس هنا من ص xii.

(٥) وليم چيمس «مقالات في التجريبية الأصيلة» Essays in Radical Empiricism نشره «رالف بارتون بيري» ص١٩٣. وقد ذكر چيمس في ص١٩٥ أن فلسفة الخبرة الخالصة لا تشمل الفروض التي تتخطى الواقع تجريبياً The Hypothesis of transempirical reality وذكر في ص١٩٣ أن الخبرة ككل تمتليء بذاته Self Containing ولا تعتمد على شيء خارجها Experience as a whole is self- Containing and leans on nothing.

ومن المهم أن نلاحظ عند الأخذ بهذا التصور بعين الاعتبار أن هناك إختلافاً آخر مهم لچيمس عن تصور الخبرة الإنجليزية التقليدية، فلم تعد الخبره مفهومة كمجال ذهني خاص، أو حتى لوعي أو شعور بمحتويات معينة، ولكن «الخبرة» أخذت ببساطة كاسم للمحتويات ذاتها، وتستطيع هذه المحتويات أن تدخل في علاقة فردية معطاه مما يكسبنا «المعرفة المباشرة» Knowledge by acquaintance، وبعضها يمثل نفس المحتويات، مثل موضوعات الإدراك المباشرة التي يمكن أن تصبح مؤشرات لمحتويات أخرى تؤدي إليها، ويستعد الفرد لقبولها، وأن يقوم مقامها، وعند هذا الحد، فإنها تكسبنا «المعرفة» وهي بمثابة محتويات أخرى، والكون ككل يصبح ببساطة مجموع الخبرة الخالصة Pure experience.[٦]

ويعد هذا من الناحية التاريخية خطاً جديداً في الفكر، وربما أظهر چيمس من خلاله جرأته التأملية إنها النزعة التجريبية الخالية من العوائق الذهنية والذاتية والتي احتوتها الكوزمولوجيا. وقد فتحت هذه النظرية من الناحية التاريخية الطريق إلى فلسفة أمريكية واقعية جديدة، بالإضافة إلى نظرية وظيفة الشعور.

أما من ناحية العبارة الموهمة للتناقض، فإن تساوي الطبيعة أو الواقع أو الكون مع الخبرة ينبثق عنه مصطلح «الخبرة» بأي معنى من المعاني، فهو يبدو على الأقل في لب معنى القضية البرجماتية. فإذا كان كل شيء في ذاته ومن ذاته «خبرة» إذاً فإن مصطلح «الخبرة» يفقد قوته الذهنية أو الإدراكية، ومع

---

(٦) لاتوجد مادة عامة «مطلقة» تتكون منها الخبرة بمعناها الواسع ولكن توجد مواد كثيرة طالما أن هناك طبائع Natures للأشياء التي تقع تحت خبرتنا ... إن الخبرة ما هي إلا اسم جمعي A collective name لكل هذه الطبائع المحسوسة ...».

«انظر مقالات في التجريبية الأصيلة، ص ص٢٦-٢٧. لاحظ أن چيمس من الفلاسفة القائلين بالتعدد ولا يأخذ بمبدأ الواحدية. (المترجم)

ذلك فربما أمكن الإستعانة بهذا الاستخدام على أسس أخرى فإذا قلنا إن «X» (إكس) عنصر من عناصر الخبرة فلن يوجد هناك مجال لأن نقول أي شيء آخر عنه مهما كان. ومن الواضح أن چيمس نفسه يعتقد في تجريبيته الأصيلة في شكلها الكوزمولوجي أي الكوني والبرجماتية كنظريات مستقلة. وقد ذكر أنه ليس من الضروري بالنسبة للبرجماتي أن يعتنق التجريبية الأصيلة.[٧]

٣- الخبرة كتفاعل

يتميز تصور الخبرة باعتباره نوع خاص من تصورات المحتوى الذاتي للفلسفة الغربية في مرحلة ما بعد العصور الوسطى، فهو يناوىء بالضرورة إذا قبله الشخص - كما فعل البرجماتيون- نظرية التطور البيولوجية لأن هذه النظرية تصبح لا معنى لها إذا لم يجد الشخص عالماً يتضمن كائنات حية تنقسم عند تفاعلها، وعلى هذا قد يقبل مصطلح «الخبرة» قبولاً ظاهرياً إذا ما أشارت الخبرة إلى أنواع معينة من العلاقة بين الكائنات الحية وبين عالم الطبيعة الرحب وتعتبر هذه الكائنات جزءاً منه. إن «الخبرة» تدل على نوع خاص من التفاعل أكثر من دلالتها على نوع خاص مما تحتويه هذه الخبرة «فالخبرة» تصبح حدثاً داخل الكون[٨] - بناءً على هذه النظرية فإن الخبرة لن تصبح محتوى يختلف في نوعه عن بقية الكون. كما أن الكون لن يصبح «عالماً من الخبرة الخالصة».

(٧) قال چيمس: «لا توجد علاقة منطقية بين البرجماتية، كما فهمتها، وبين نظرية أ قمتها حديثاً تعرف باسم «التجريبية الأصيلة» فالأخيرة مستقلة تماماً. لأن الشخص يمكن أن يرفضها تماماً ويظل برجماتياً» (المقدمة في البرجماتية، صix).

(٨) إذاً الأمر بالنسبة لميد هو أن المرور بالخبرة يعتبر عملية طبيعية وعلى نفس مستوى الواقع مثل كل العمليات الطبيعية الأخرى (فلسفة الفعل ص٥١٧. CF. pp. 405-06, 423, 517).

وتمثل النظرية بهذا الاسم موقف ديوي بوضوح كما صاغه في الطبعة الثانية (١٩٢٩) من كتاب «الخبرة والطبيعة» (Experience and Nature) إذ يقول في ص٤٩:-

«إن الخبرة هي شيء ما بالإضافة إلى أنها موجودة في الطبيعة. وما لم نمر به فهو ليس بخبرة، أما الطبيعة فهي الحجارة، والنبات، والحيوانات، والأمراض والصحة، ودرجة الحرارة والكهرباء ... إلخ، فالأشياء التي تتفاعل معاً بطرق معينة هي ما نسميه بالخبرة؛ إنها ما نمر به أي ما خبرناه في الحياة -الواقع- أي الطبيعة إنها الارتباط بطرق أخرى معينة مع موضوع طبيعي آخر - الكائن البشري- كما تبين لنا أيضاً كيف تتفاعل الأشياء.

لاحظ في هذه الصياغة أن الخبرة مساوية لعبارة «الأشياء التي تتفاعل معاً بطرق معينة»، ولم يحدد ديوي هنا هذه «الطرق» ولكنه قال فقط إن الخبرة تحدث فقط في حالات تعتبر على درجة عالية من التخصص، مثل تلك التي توجد في الكائنات العضوية الراقية والتي تتطلب بدورها بيئة متخصصة. ولا يوجد دليل على أن الخبرة تحدث في كل مكان وكل زمان» (ص٣٠) وتوجد إشكاليات أخرى مثل كيف نحدد هذه الحالات. كما لا تعتقد مدارس فلسفية معينة مثل فلاسفة الظواهر Phenomenologists وبعض فلاسفة الثنائية Dualists في أن هذه الحالات يمكن وضعها في مصطلحات خاصة تمثل «النزعة الطبيعية» عند ديوي. وعلى الرغم من ذلك، فإن تلك الإشكالية لا تهمنا في هذا الموضوع.

ومن المهم أن نتذكر أنه بإزاء الخبرة وعلاقتها بالطبيعة، فإن الكوزمولوجيا لدى جميع البرجماتيين على الرغم من وجود بعض الفروق الأخرى وهم -منذ البداية- ليسوا ديكارتيين Non-Cartesian ويقال الأمر هنا بمعنيين: إن الخبرة ليست عالماً «ذهنياً» يختلف في نوعه عن بقية الكون، كما أن الخبرة ليست شيئاً خاصاً Private أو «شخصياً» Personal موروثاً على الأقل فهناك

بعض الأشياء التي يمكن أن نختبرها بأكثر من مختبر واحد experiencer. وهكذا فإن جميع البرجماتيين الأربعة يقبلون نظرية الخبرة «الاجتماعية» أو «العامة». ولكي نتأكد من هذا فإنه توجد خبرات خاصة ولكن تلك الخبرات يمكن أن نميزها فقط في مقابل الخبرات العامة.

إن النظرية البرجماتية في الخبرة، على الرغم من اختلافها عن التصورات الديكارتية والتجريبية الإنجليزية والذهنية (العقلية) فهي تشبه من عدة وجوه التصور الأرسطوطاليسي للخبرة، غير أن النظرية البرجماتية لها بعض الملامح المعينة وهي تمثل وجهات النظر الخاصة والذاتية في الخبرة، كما أنها تتضمن في طياتها الأهمية التي تلح عليها الفلسفة الأوروبية إلحاحاً شديداً.[٩]

إذاً فالخبرة بالنسبة لبيرس وميد وديوي هي جزء من الكون، وتقع داخل الكون، وطالما أن الكوزمولوجيا في هذه الفلسفة يجب أن توضع على أساس الملاحظة، فإن الكون كخبرة مكتسبة هو الأساس الذي يجب أن تقام عليه المقولات الكوزمولوجية العامة والنظريات. وأن يتم اختبارها على نفس الأساس. وقد كتب ديوي: «إن الخبرة ليست فعلاً a verb يقوم بطرد الإنسان من الطبيعة ولكنها وسيلة لتثبيته باستمرار في قلب الطبيعة.[١٠]

---

(٩) ذكر ميد بالتفصيل المعنى الذي يمكن أن يقال على أساسه إنه حدد وجهات نظر محددة للمرور بخبرة العالم على أنها خبرة خاصة وذاتية وسوف نشير إلى هذا فيما بعد وأعتقد أنه يجب أن نلاحظ أن البرجماتيين استراحوا لقولهم بنظرية الخبرة على الرغم من أن بعض نقاط هذا الفصل تبدو صحيحة، والدليل القوي على ذلك الفروق التي ظهرت في الفصول الأولى بين عاميّ ١٩٢٥، ١٩٢٩ والتي أوردها ديوي في كتابه «الخبرة والطبيعة». والمحاولة الفردية لجيمس في قوله بالخبرة الخالصة دليل آخر. وهناك فروق كثيرة في قول بيرس بالخبرة. أما لويس فقد أنكر بشجاعة تعريف الخبرة وربطها بالسلوك وهو تعريف يعتقد فيه لويس أن برجماتيين آخرين يذهبون إليه «فالخبرة» و«النزعة التجريبية» لم يعودا بالتأكيد عبارات ومصطلحات لا إشكالية Unproblematic Terms.

(١٠) ديوي «الخبرة والطبيعة» طبعة ١٩٢٩، صiii.

٤ - المقولات الثلاث عند بيرس

إن الفلسفة بالنسبة لبيرس هي علم يقوم على الملاحظة، وتختلف عن العلوم الخاصة في أنها «تمتلىء بذاتها بملاحظات يمكن أن تكون في متناول خبرة كل إنسان عادي» (المجلد الأول، الفقرة ٢٤١). والملاحظة تقوم على نوعين: ملاحظة ظاهرية Phenomenological observation بمعناها العام فالظاهرية تتناول «كل ما يبدو أنه يظهر بأي معنى» وملاحظة العلامات Observation of signs. ويعتقد بيرس أن الملاحظة الظاهرية تكشف على الأقل عن ثلاثة أنواع من الظواهر: الكيفيات Qualities وردود الفعل الفجة الساذجة Brute reactions بين شيئين لشيء ما مع شيء ما آخر، ورد الفعل الاعتيادي Habitual reactions. وقد استخدم بيرس مجموعة من المصطلحات المتعددة للتعبير عن أنواع الظواهر الثلاثة وهي «الكيف» Quality، «ورد الفعل» Reaction، و«الوسيط» Mediation (المجلد الأول الفقرة ٥٣٠)؛ وكذلك «الكيف» و «الواقعة» Fact، و«القانون» Law، وكذلك الإمكان Possibility و«الوجود» Existence و«العادة» Habit، وأكثر الأسماء عمومية هي «الشعور» Firstness و«الإرادة» Secondness و«الاعتقاد/ المعرفة» Thirdness. «الشعور» يوصف بأوصاف متعددة منها «الكيف» و«الإمكان» و«الصدفة» Chance، و«التلقائية» Spontaneity، و«الإرادة» التي تعرف برد الفعل، والواقعة، والوجود؛ و«الاعتقاد/ المعرفة» وبالوسيط، والقانون، والعادة والكلية Unitersality والعمومية generality، والاستمرارية Continuity، وهذه هي مقولات(*) بيرس الثلاث، ويقول عنها بيرس «ربما لا يكون من الصحة أن

(*) لاحظ استخدام بيرس للمصطلح الكنطي وذلك لعمق تأثير فلسفة كنط في بيرس وسوف نعني بمصطلح Firstness الشعور ونرمز له بالحرف (.F)، ومصطلح Secondness الإرادة ونرمز لها بالحرف (.S) والمصطلح Thirdness الاعتقاد/ المعرفة ونرمز لها بالحرفين (.Th). (المترجم)

نسمي هذه المقولات تصورات؛ فهي غير محسوسة لدرجة أنها تعتبر كنغمات أو آثار خفيفة للتصورات» (المجلد الأول، الفقرة ٣٥٣).

واعتقد بيرس أن دراسة العلامات تدعم التحليل الثلاثي للظاهرة، فقد وجد ثلاثة أنواع رئيسة فقط للعلامات وهي الصورة icon، والدليل Index والرمز Symbol. وثلاثة أنواع فقط من القضايا، تعتمد على عدد الموضوعات التي تحتاجها المحمولات Predicates لتكوين قضية كاملة ويسميها القضية الواحدية monadic، والقضية الثنائية Dyadic والقضية الثلاثية triadic، ويوضحها «س أحمر»، «س يضرب ص»، و«س يعطي ص لواو». وقد عدّ بيرس هذه الأنواع الثلاثة من العلامات والقضايا درجات لثلاثة مقولات عامة ومنذ أن اعتقد أن هذا التحليل كشف عن ثلاثة أنواع فقط من العلامات وثلاثة أنواع من أشكال القضايا اعتبر أن هذا دليل قوي على وجود ثلاث مقولات فقط للواقع وفي الواقع.

وعلى الرغم من ذلك فإنه من الملاحظ أن بيرس لم ينكر في بعض الأحيان أنه قد توجد تصورات أخرى عامة مثل المقولات الثلاث التي اعتبرها أساسية (المجلد الأول، الفقرة ٥٢٦). كما يلاحظ أيضاً أنه بينما يجب أن تكون المقولات التي استخدمها بيرس في فلسفته بمعنى محدد إذا تم اختبارها، فإن هذا لا يعني أنها موضوعات خاصة «بالإدراك الحسيّ Perception؛ لأن «تصور الخبرة أوسع من الإدراك الحسيّ» (المجلد الأول، الفقرة ٣٣٦) وأخيراً فإنه بالنسبة لصعوبة تطبيق قضية بيرس البرجماتية على تحليل معنى المقولات ذاتها، فإنه يجب أن نتذكر أن بيرس لم يطبق المعنى بدقة على المعيار الذي عبر عنه في صياغته المبكرة للقضية البرجماتية.

إن علم المصطلح والتحليل عند بيرس إذا قورنا بالمقولات فإنهما لا يقومان بدور بارز في كتابات أي برجماتي آخر. ومع ذلك فإنني أعتقد أن البرجماتيين

الذين ننظر إليهم هنا بعين الاعتبار مهما كان علم المصطلح لديهم، فإنهم نسبوا الصفات التي ذكرها بيرس في مقولاته الثلاث للكون. وطالما أن بيرس كان يعني أن الفيلسوف الاسمي nominalist(*) هو أي إنسان ينكر واقعية المعرفة Thirdness فإنه ينتج عن هذا أن أي فيلسوف من الفلاسفة البرجماتيين يعتبر فيلسوفاً اسمياً بالمعنى الذي قصده بيرس.

وليس من الصعوبة بمكان أن نجد أثراً لمقولات بيرس في كتابات ديوي، وسوف نركز اهتمامنا على كتابه «الخبرة والطبيعة»(11) حيث تحدث فيه ديوي عن «اختلاط كل من الكلية والفردية Singularity والصدفة» في الطبيعة (ص48) فكانت معارضته للنزعة الاسمية واضحة (ص ص84-85): وكتب أن «الطريقة المستمرة للفعل المنظم ليست دقيقة» (ص196) وأن «كل معنى هو معنى عام أو كلي» (ص187) وتقوم نظرية الكيف في فلسفة ديوي بدور مهم فهو يقول في كتابه «الخبرة والطبيعة» إن جميع الموجودات ... لها كيفيات خاصة بها» (ص108) وأنه يوجد شيء ما لا يمكن التنبؤ به، تلقائي، غير مصاغ، وفوق الوصف ... في أي موضوع نهائي» (ص117). وكتب ديوي ذاته مقال يتعاطف فيه مع بيرس بعنوان «نظرية بيرس في الكيف»(**) أما بالنسبة «للإرادة» (S)، فإن تصور ديوي الضيق للخبرة جعلها «أفعال واخضاعات

(*) الاسمية Nominalism من اللاتينية nomina مذهب يتبنى أصحابه وجهة نظر معاكسة للمذهب الواقعي حول طبيعة المفاهيم العامة ويرى أصحاب الاسمية المتطرفة أن المفاهيم العامة مجرد اسماء للأشياء الواقعية، وليس لها ما يقابلها في الواقع البشري كما قال بيير أبيلار (1079-1142) وسميت باسم التصورية Conceptualism وبلغت أوجها عند وليم أوف أوكام. (المعجم الفلسفي المختصر) ص ص33-34) (المترجم).

(11) صدرت الطبعة الأولى من كتاب «الخبرة والطبيعة» عام 1925، والطبعة الثانية عام 1929، وكان الترقيم في الطبعتين واحداً ماعدا أجزاء من الفصل الأول.

(**) Peirce's Theory of Quality.

لعمليات ما»(*) (أو اخضاع لخبرة ما undergoings، ص٣٥٨)، وذكر معبرا عن ذلك أنه «لا يوجد فعل بدون رد فعل»(**) (ص٧٣)، وأن «الفعل والتفاعل فقط يمكنهما أن يغيرا أو يعيدا صنع الأشياء» (ص١٥٨) وهناك تحليل مشابه يمكن أن نحلل به أعمال ميد.

ويبدو أن چيمس يمكن أن يكون الاستثناء المحتمل لوجهة النظر بأن جميع المقولات الثلاث لدى بيرس موجودة لدى جميع البرجماتيين، وبالتأكيد فقد ركز چيمس على «الشعور» (.F) مثل الإمكان والكيف والوسيط Indeterminateness أكثر من تركيزه على الإرادة. (.S) مثل رد الفعل أو الاعتقاد/ المعرفة (.Th) (مثل القانون أو العمومية، وكتب چيمس إن «الخبرة الخالصة هي اسم آخر للوجدان Feeling أو الإحساس Sensation (مقالات في النزعة التجريبية الأصيلة، ص٩٤) ويعني «الجوهر» Substance أن مجموعة من الإحساسات سوف تتكرر (بعض المشكلات في الفلسفة، ص٦٢). وبالتأكيد فإن «الأشياء الملموسة» في رد الفعل الفج أو الساذج ليست واضحة وضوحاً كاملاً لدى چيمس كما هي لدى بيرس أو ميد ومع ذلك فإن تركيز چيمس المتواصل على التعددية Pluralism وهي النظرية التي تقول بإن الأجزاء المختلفة للواقع يمكن أن تكون لها علاقة متخارجة (كون متعدد A Pluralistic Universe ص٣٢١) ويمكن أن لا يستثنى منها إمكان حدوث ردود الأفعال بين هذه الأجزاء والتي توجد بالتأكيد، وعند ذلك الحد تكون أقوال چيمس متسقة مع قوله بالإرادة (.S). ومن الواضح أن چيمس أدرك المقولة الثالثة وهي الاعتقاد/ المعرفة (.Th)، فقد أصر على الاستمرارية Continuities داخل الخبرة أو صيرورة الخبرة، كما أصر في ذات الوقت على

(*) Doings and Sufferings.

(**) قانون نيوتن لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه. (المترجم)

وجود مبدأ اللااستمرارية Discontinuities، وسيسمى هذه النظرية «تعددية الاتصال» Synechistic Pluralism، وهو يعزوها لبيرس ولبرجسون كما يعزوها لنفسه.[١٢]

٥ - الكوزمولوجيا عند بيرس: النزعة المثالية التطورية

الكوزمولوجيا البرجماتية كوزمولوجيا تطورية مطردة: بمعنى أن الكون أمكن تصوره من خلال الحركة البرجماتية كعملية متطورة، ولكن داخل هذا الاتساق العام يوجد اختلاف أو فرق بين النزعة المثالية التطورية عند بيرس وبين النزعة الطبيعية التطورية عند ديوي وميد، فقد أطلق بيرس على كوزمولوچيته «مثالية من طراز مثالية شيلنج a Schelling fashioned idealism» التي اعتبرت الموضوع أو الشيء مجرد موضوع شيء متخصص ومعزول عزلاً جزئياً عن إدراك العقل[١٣] (المجلد السادس، الفقرة ١٠٢)؛

---

(١٢) انظر چيمس، «كون متعدد» ص ص FF ٣٩٥، وهو ينفي التفسير الذي قدمه چيمس وينتمي فيه إلى الاتجاه الاسمي nominalistic، حيث ربط بين المذهب الواقعي والمنطقي وبين التفكير التجريبي. وانظر كذلك «بعض مشكلات الفلسفة» ص١٠٦. وهناك أيضاً إشارة لمقولات بيرس بما فيها «الاعتقاد/ المعرفة» (.Th) أشار إليها چيمس وذكر في كتاب «رالف بيري» R. B. Perry «فكر وشخصية وليم چيمس» The Thought and charac-ter of William James. (المجلد الأول، ص٣٢٥).

(١٣) علّق جالي W.D. Gallie في كتابه «بيرس والبرجماتية» على كوزمولوچية بيرس باعتبارها صورة العالم World Picture أي يمكن اعتبار العالم علامة صورية an iconic sign بالمعنى الذي ذكره بيرس في عبارته. وقد أشار بيرس ذاته إلى أنه لم يطوّر تصور الصور Icon مثلما طوّر تصور الرمز. ومن الصدق أن نقول أن بيرس استخدم نظرية الصورة The notion of icon بطرق مهمة في فلسفته الرياضية والجمالية، إلا أن تصور الصورة يمكن أن يكون له صلة بالنسبة لتفسير بيرس ذاته، وقد اقترح «جالي» النظر إلى نظرية الصورة من ناحية أهميتها في فهم أفكار الكوزمولوجيا بما فيها الكوزمولوجيا عند بيرس، وهي جديرة باهتمامنا.

وكتب ميد عكس ذلك، «إنني أرغب في تقديم فكرة نشوء العقل مثل فكرة النشؤ في الطبيعة، والذي يبلغ ذروته في المجتمع وهو المبدأ وصورة الارتقاء» (فلسفة الحاضر، ص٨٥). ففي الحالة الأولى يعتبر نشؤ الكون ذهنياً من الناحية الجوهرية، وفي الحالة الثانية يعتبر العقل كشيء ناشيء داخل الطبيعة المتطورة. والكتابات كما تبدو معقدة، إلا أننا نستطيع أن نلقي بعض الضوء على سبب وجود هذه الفروق الكوزمولوجية.

قدَّم بيرس تصوره عن الكون المتطور في نص شهير تحتويه هذه الكلمات:- «إنه من مثل هذه المواد نستطيع بناء نظرية فلسفية بصفة رئيسة، لكي نعيد تقديم صورة المعرفة التي خلَّفها لنا القرن التاسع عشر، ودون أن نتعمق تساؤلات مهمة أخرى عن النسق الفلسفي نستطيع أن نتنبأ بسهولة نوع الميتافيزيقا التي نكّونها بطريقة مناسبة من هذه التصورات وسوف تشبه من ناحية ما بعض التصورات القديمة فضلاً عن احتوائها على تصورات حديثة من ناحية أخرى، ومنها سيكون لدينا «فلسفة كونية. وسيفترض منذ البداية وهو فرض بعيد بعداً مطلقاً - وجود عماء من الوجدان غير المشخص، وهي بلا رابط أو انتظام وسيكون وجودها لا كما ينبغي أن تكون. هذا الوجدان ينتقل إلى هنا وهناك انتقالاً خالصاً كيفما شاء، وسوف يميل نحو التعميمات، وستزول حركاته الأخرى، ولكن بعد أن يكون قد ترك أثراً متزايداً وهكذا يبدأ النزوع نحو العادة، ومنها ومع مبادىء التطور الأخرى، سوف تنشأ كل أنظمة الكون، وفي هذا الوقت سيعود للحياة عنصر الصدفة الخالصة - على الرغم من ذلك- وسوف تظل أنظمة الكون موجودة حتى يصبح العالم صحيحاً صحة مطلقة، عاقلاً معقولية مطلقة، ومنسقاً تنسيقاً متماثلاً وسيتبلور فيه العقل أخيراً على المدى البعيد في المستقبل (المجلد السادس، الفقرة ٣٣).

وعلى الرغم من أن بيرس لم يشر في هذا النص إلى مقولاته، فإنه ليس من الصعوبة بمكان أن نفسر النظرية التي عبَّر عنها في تلك العبارات «عماء

الوجدان غير المشخص» و«البعيد بعداً مطلقاً» وبداية فهو الشعور (.F) (الكيف، الوجدان، الإمكان، التلقائية). و«العادة» أو الاتجاه نحو التعميم فهو الاعتقاد / المعرفة (.Th) الاتصال، العمومية، العادة، الفكر، العقل. وهذا «الاعتقاد / المعرفة» يظهر في الوجود عن طريق التطور التدريجي (الإرادة) (.S) والعالم هو العقل «المتبلور» والذي سيكون صحيحاً على المدى البعيد في المستقبل بل و«صحيحاً صحة مطلقة»، «عاقلاً معقولية مطلقة»، و«منسقاً تنسيقاً متماثلاً».

وهكذا فإن (الاعتقاد / المعرفة) والعقل يحوّل الشعور أي الإمكان إلى أشكال محددة من الإرادة (الوجود). وطالما أن «المادة» Matter والإرادة المعطاه تعطينا صفة محددة للعقل بصفة أساسية، فإنه يمكن اعتبارها «عقلاً متخصصاً ومعزولاً عزلاً جزئياً» وبناءً عليه فإن العملية ككل التي يتم فيها تبلور العقل ذاته في عالم محدد تصبح عملية كوزمولوجية لحقائق معقولية الذات Concrete reasonableness، وهذه هي «النزعة المثالية الموضوعية» Objective idealism عند بيرس.

ولا يوجد فيلسوف برجماتي آخر ذكر مثل هذا النوع من الميتافيزيقا المثالية. وهناك من النقاد من ناقش فكرة ميتافيزيقا بيرس هي خليط من الأفلاطونية Platonic، وفلسفة شيلنج Schellingean، والهيجلية Hegelian لا تسبق من الناحية الزمنية الفلسفة البرجماتية لدى بيرس فقط ولكنها لا تتسق معها. وبالتأكيد إذا ركز شخص ما على «لب» Hard - Core القضية البرجماتية فإنه يستطيع أن يتبين الصعوبات التي تواجهه في تفسير الكوزمولوجيا المثالية باستخدام مجموعة من العبارات مثل إذا تم القيام بأفعال كذا وكذا، فإننا سنحصل على نتائج كيت وكيت القائمة على الملاحظة، ولكننا رأينا من قبل أن بيرس لم يأخذ في اعتباره تفسير هذا «اللب» على أنه نتاج كامل له رموزه

ذات المعنى. وقد فكر بيرس بالتأكيد في فلسفته البرجماتية التي ترتكز على كوزمولوجيته المثالية الشرطية hypothetized idealistic cosmology وهي شرطية طالما أنه لم ينكر كل دعاوي فلاسفة الدوجماطية الغائية Finality بدلاً من معارضتها.

ويؤكد بيرس باستمرار على الطريقة التي تتغير بها أي حالة موجودة بالفعل في الفكر الإنساني. وهكذا فالشخص يفتح النافذة المغلقة لكي يغير الهواء الفاسد في الحجرة، وهنا أمكن تصور أن «الإمكان» هو النافذة المغلقة التي تم فتحها وتؤدي فكرة الحصول على هواء نقي في مثل هذه الظروف إلى فعل هو فتح النافذة بالفعل، وبهذا تتحقق الإرادة في عملية الفكر و(الاعتقاد/المعرفة) كما تحقق الإمكان (الشعور)(١٤)، وأصبحت الظاهرة الملحوظة ظاهرة مقروءة على نطاق واسع أي أصبحت أنموذجاً طبق الأصل لعلم الكون عند بيرس. ولكن ما البرهان على هذا المدّ الكوني المتمثل في التصرف الإنساني المميز؟ يجيب بيرس: «إن المبدأ أو قضية الإتصال -التي ينبغي علينا أن نفترض على أساسها وجود الأشياء وجوداً متصلاً ومستمراً بقدر ما نستطيع ... (المجلد السادس، الفقرة ٢٧٧). والكون الذي يمكن تصوره يتصل بالكون الذي يمكن أن نلاحظه «بقدر ما نستطيع»(*) إذاً فعملية الفكر الإنساني صورة من الفكر الكوني، ويستطيع الإنسان أن يثق في هذا الاستدلال طالما أنه على المدى البعيد يتطابق أو يتفق مع طبيعة الأشياء. ويمكن تدعيمه بحيث يصبح فكرة المعقولية Reasonableness أنموذجاً للحياة؛ لأن الحقائق العقلية الذاتية هي حقائق الواقع الكوني.

---

(١٤) يوجد المثال الذي يذكره بيرس عن النافذة المفتوحة في المجلد الخامس في الفقرة ٤٣١.

(*) As far as we can.

ويمكن تحديد علاقة برجماتية بيرس بنظرياته الكونية تحديداً قاطعاً إذا تذكرنا أن مفسّر الرمز يسمى في المرحلة المبكرة بالفكر Thought، وقد وصفه في تحليله الأخير بعبارات تدور حول عمومية «العادة» وقد تأثر بيرس تأثيراً كبيراً بحقيقة واضحة مؤداها أن مفسر الرمز يتجه بدوره لكي يصبح هو ذاته رمزاً له مفسره الخاص، ويعتبر مثالاً على الاستمرارية أو الصيرورة.

وأخيراً فإن واقعية الرمز تتضمن عمومية العادة، وتتوقف على القانون أكثر ما تتوقف على مجموعة من ردود الفعل الفردية. وقد تأثر بيرس بالعلاقة الضيقة لتصورات الرمز، والفكر، والعادة، والقانون، والعمومية، والاستمرارية، حقاً، لقد تأثر بهم لدرجة أنه استخدمها بالتبادل وجمع كليهما لكي تكون معاً مقولة (الاعتقاد/ المعرفة) (.Th) ويمكن أن نسمي الاعتقاد/ المعرفة باسم العقل واعتباره كموجه لتحقيق الإمكان، وكانت النتيجة أن ظهرت النزعة المثالية الموضوعية عند بيرس. وعلى الرغم من مطابقة العقل للاعتقاد/ المعرفة(١٥) فإن هذه المطابقة تقوم كما رأينا -على اتجاه بيرس الذي يساوي بين الفكر والرمز والعادة والقانون كنتيجة طبيعية لاعتماده الكامل على مبدأ الاستمرارية. ولكن إذا أخذ مبدأ عدم الاستمرارية بجدية مثل مبدأ الاستمرارية فإنه سيكون من الممكن ألا نساوي بينهما، مثال ذلك، تساوي الفكر بالعادة أو القانون، وهكذا فإنه سيسمح بالاعتقاد/ المعرفة باعتبار أنها صورة مطلقة للكون دون أن يعتنق ميتافيزيقا النزعة المثالية الموضوعية، و«سينشأ العقل» عندئذ في وجود ظروف طبيعية معينة، بدلاً من أن يكون

---

(١٥) إن التعبير «نفسي» Psychical تعبير واسع فضفاض بالنسبة لاستخدام بيرس له، أكثر من «العقل» Mind حيث يشمل الشعور والاعتقاد/ المعرفة، بينما يعتبر العقل وهو مناط التفكير والاعتقاد/ المعرفة، والنفس كشعور تشتمل بوجه عام على كل من النفس والعقل والفكر، ولكنها (النفس) لا تحتاج لأن تفعل هذا. (انظر بيرس، المجلد الخامس، الفقرتين ٣٦٥-٣٦٦).

هو نفسه مصدر الوجود ومنبعه Fountain of existence مثل هذه النزعة الطبيعية التطورية تصورها جيمس من قبل، وطورها ميد تطويراً كبيراً.

٦- إنكار جيمس لوجود الشعور

أراد وليم جيمس في كتابه «مبادىء علم النفس» Principles of Psychology أن يقدم علم نفس متقدم باعتباره علماً تجريبياً، وحاول أن يتجنب بقوة كتابات أساسية معينة تنسب إليه كفيلسوف وصادر ببساطة أو افترض في هذا الكتاب دون مناقشة وجود عالم العقل والأفكار والشعور Feelings وعالم الأشياء الخارجة عن الذهن، وأن تلك العقول تعرف مثل هذه الأشياء الخارجة عن الذهن، وقد قبل جيمس هذه «الثنائية المنهجية» Methodological Dualism من أجل إقامة علم النفس ثم من أجل إقامة نظرية عامة عن وجود وقائع نفسية أو ذهنية معينة بصفة جوهرية.

وقد لاحظنا من قبل، عند مناقشة تصور الفيلسوف البرجماتي للخبرة، أن جيمس كفيلسوف تعدى هذا الموقف الثنائي الذي افترضه بصورة مؤقتة في مبادىء علم النفس «ولم يعد يفكر في المحتويات التي تم اختبارها كأشياء موجودة في الطبيعة النفسية أو الذهنية للفرد. وعلى سبيل المثال، فاللون البني الذي يمكن أن يعتبر «فيزيقياً» إذا نظرنا إليه في علاقته بالمكتب، إذا كان هذا هو لونه، و«ذهنياً» إذا نظرنا إليه في علاقته بالسيرة الذاتية لشخص ينظر إلى المكتب البني. وبهذا يصبح اللون البني لا ذهنياً ولا فيزيقياً.

وقد أخذ جيمس خطوة ثانية حاسمة عندما برهن على أن التفكير في شيء ما (الشعور بمعنى يشعر بـ) ليس نوعاً خاصاً أيضاً من «الوجود» أو «الكيان» Entity أو «المادة الخام» Stuff (*) ولكنها مسألة وظيفية لعنصر واحد

(*) اطلق برتراند رسل في كتابيه «تحليل العقل» The Analysis of mind و«تحليل المادة» The analysis of matter على المادة Stuff لفظ المادة المحايدة Neutral وهي التي تدخل في تركيب نسيج العالم بشقيه المادي والمعنوي. (المترجم)

في الخبرة المقدمة كبديل لوظيفة أخرى وذلك عن طريق توجيه التصرف (السلوك) في مقابل البديل الآخر. ولم يستفد چيمس ذاته كثيراً من مصطلحات العلامات (المصطلحات السيميائية) Semiotic Terminology، ولكن ليس من العدل أن نقول في هذا التحليل، إن الشعور بمعنى الشعور بشيء هو توظيف للعلامات وأن أي شيء نفهمه يمكن أن يوظف كعلامة. «فالعقل بهذا المعنى هو عملية العلامة a Sign Process. وهذا الجانب في فكر چيمس أمكن تصوره من قبل في فصل التصور[١٦] وما صاغه چيمس في «مباديء علم النفس» صاغه بوضوح في مقاله عام ١٩٠٤ بعنوان «هل الشعور موجود؟». Does Consciousness Exist?

وكانت إجابة چيمس عن هذا التساؤل البلاغي قاطعة «لا، الشعور» كفكر ليس نوعاً من الوعي الخالص: إن الأفكار في الواقع مصنوعة من نفس مادة الأشياء[*] (ص٣٧)، فالتمييز بين الفكر والشيء، بين العارف والمعروف، هو تمييز وظيفي ينشأ من الخبرة. وإذا سمينا الشيء الموجود في الخبرة «مدرك حسيّ a Percept» إذاً فإن التصور هو مدرك حسيٌ بديل لمدركات حسيّة أخرى تقوم بتوجيه السلوك إليها، وهي التي «نعنيها». وعندما يتم الحصول على هذا الموقف الوظيفي فإننا نقول في هذا التحليل إن لدينا شيء «في العقل». فالشعور يدل على نوع العلاقة الخارجية، ولا يدل على مادة بعينها أو وسيلة لمعرفة الوجود (ص٣٥).

وكتب بيرس لچيمس معلقاً على مقال «هل الشعور موجود؟» في نفس

---

(١٦) يذكر ميد أن الفصل الذي كتبه چيمس عن التصور يمثل موقفه الأخير من البرجماتية ومصدر أفكاره الثرية التي اعترف كل من رويس وديوي أنها معزوة له.

انظر فلسفات رويس وچيمس وديوي في إطارها الأمريكي، ص٢٢٣.

(*) Thoughts in The Concrete are made of the Same stuff things are.

شهر ظهوره (انظر المجلد الثامن، الفقرات ٢٧٩-٢٨٥). ومن الواضح أن بيرس لم يفهم ما كان يهدف إليه چيمس وكتب إليه يقول: «إن بحثك هذا أصابني بالارتباك منذ بدايته وسيظل المقال أمامي حتى أستطيع أن أكتشف ماذا تهدف من ورائه (المجلد الثامن، الفقرة ٢٧٩). ورد عليه چيمس بخطاب ذكر فيه أنه يهدف إلى إقامة نظرية مؤداها أن الشعور يعني المبدأ الأساسي لكل خبرة أو كما تبدو في بعض الوظائف أو العلاقات بين أجزاء معينة من الخبرة» (اقتبسها الناشر في الحاشية ٣١ من المجلد الثامن الفقرة ٢٨٥). وقد عبر چيمس في تحليله للشعور ووظيفته والعلاقة بينهما عن نظرية مغايرة لنظرية بيرس والتي تفيد أن الذهن علامة مطلقة تعبر عن الواقع ولن يؤدي موقف چيمس إلى كوزمولوچيا ذات نزعة مثالية موضوعية وكان من المفهوم من الوجهة الإنسانية لماذا لم يفهم بيرس إلم يهدف چيمس بدور العلاقة والوظيفية في تحليله للشعور؟

إن هدا الاختلاف المهم لا يجب أن يقف حجر عثرة أمام حقيقة مؤداها أن چيمس وبيرس اتفقا في اعتبار العقل «كالتفكير في»، أو «الشعور بـ» كعملية للعلامة أو الرمز. وأن الاختلاف بينهما يكمن في البعد الكوني الذي أعطاه كل منها للعمليات الخاصة بالعلامة.

٧- ميد Mead: اللغة والعقل والذات (النفس)

أشرت في الفصل الذي تناولت فيه نظرية العلامات (السيمياء) البرجماتية إلى أن أعظم اسهام ميد Mead في نظرية العلامات كان تحليله السلوكي للرمز اللغوي؛ فاللغة الإنسانية بالنسبة لميد دراسة محكمة دقيقة للاتصال الإشاري الحيواني، وفيه اكتسبت العلامات دلالة عامة بأن لها مفسر سلوكي عام لدى كل من تصدر عنه الإشارة حالياً أو مستقبلاً على حد سواء. واحتلت الأصوات المنطوقة Uttered Sound في تحليله مكاناً رئيساً

مهماً لأن شخصاً ما سمعها من شخص آخر ينطق العلامة بنفس الطريقة التي ينطقها بها الآخرون، ومن ثم اعتبرت اللغة المتكلمة أنموذجاً طبق الأصل لكل أشكال اللغة الأخرى، وقد افترض ميد مسبقاً أن اللغة عملية اجتماعية في مظهرها، ولكنها كوّنت بدورها وبعد ظهورها مجتمعاً إنسانياً معقداً، وعقل إنساني Mind ونفس أو ذات Soul. وهكذا بحث ميد انطلاقاً من اقتناعه بالعملية البيولوجية الطبيعة سبب ظهورها أشكال أعلى من المجتمع الإنساني، ومن الشخص ذاته.

وعرّف ميد العقل على أساس اقتناعه التام بأهمية الرموز التي تتعلق بوظيفة اللغة باعتبار أن العقل ليس عالماً نفسياً داخلياً، وكذلك المخ في الكائن الحيّ، ولكنه نمطاً من السلوك يتفاعل عن طريقه الأفراد فيما بينهم ومع العالم المحيط وذلك من خلالها وسيط من الرموز اللغوية(١٧) وعلى الرغم من ذلك فإن العملية اللغوية عملية اجتماعية من الناحية الداخلية internalized(١٨) بمعنى أن الإنسان يستطيع أن يتحدث إلى نفسه صامتاً أو بصوت عالٍ، سواء

(١٧) يقول-ميد في كتابه «العقل والذات والمجتمع ما يأتي ص١٣٣:

«لا تكمن العمليات الذهنية في الكلمات بقدر ما يكمن ذكاء الكائن الحيّ في العناصر المكّونة للنظام العصبي المركزي، فكلاهما جزء من عمليات تحدث بين الكائن الحيّ والبيئة، وتؤدي الرموز دورها في هذه العملية مما يجعل الاتصال غاية في الأهمية وإذا استبعدنا اللغة فالاتصال بالرموز يحدد مجال العقل ومن السخف أن ننظر ببساطة إلى العقل من منظور الكائن الإنساني الفرد، على الرغم من وجود مركزه هناك، إنه ظاهرة اجتماعية بصفة جوهرية».

(١٨) يتحدث بيرس عرضاً عن «العالم الداخليّ» The inner World باعتبار أنه ينشأ بوضوح عن العالم الخارجيّ، Outer (المجلد الخامس، الفقر ٤٩٣، ويتحدث عن الفكر باعتباره شكلاً من أشكال الحوار dialogic in form (المجلد السادس الفقرة ٣٣٨) وقد ناقشت هذه الأفكار وما يشابهها عند ميد في مقال مبكر بعنوان «بيرس وميد والبرجماتية».

كان وحده أم في وجود آخرين. وإن الفكر بالنسبة لميد هو عملية داخلية جوهرية تستخدم فيها الرموز اللغوية؛ إنه تفكير منعكس عندما يتجه لحل المشكلات التي يجابهها الإنسان في السلوك ويمكن تعزيز الفروض الموجودة عندما تعمل في العلن، غير أنها قد لا تكون - في هذه الحالة سواء - لكي نقول إنها «ذاتية» تماماً في «العقل» in the mind، ولكن تظل رموز اللغة عمليات تجرى في الطبيعة حتى وإن كانت داخلية، بل وحتى إن كانت ذاتية بهذا المعنى؛ لأن الكائن الحيّ هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة.

إن موقف ميد أيضاً سوغ استخدامات معينة للتعبير «الخاص»؛ لأن الإنسان يستطيع إلى حد ما أن يلاحظ ذاته ويلاحظ صفاته الذاتية وسلوكه بما فيها علامة السلوك التي لا يستطيع أن يلاحظها مباشرة عن طريق الآخرين. فالخصوصية هنا موضوع يتعذر الحصول عليه ليتم ملاحظته عن طريق الآخرين، ولكن مثل هذه الخصوصية لا تتطابق مع ما هو «داخليّ» inside، وهو ما يعتبر حدود الكائن الحيّ، لأنه من الممكن أن يكون هناك شخص يلاحظ شيئاً ما، مثل ملاحظة زهرة معطاه، مثلما يلاحظها عالم نبات منعزل في ذات الوقت.

وهكذا استطاع ميد في تناوله لموضوع السلوك أن يجد دلالة (معنى) لمثل هذه المصطلحات مثل «الذاتية» و«الخصوصية» وقد استطاع ذلك حتى دون حل الإشكالية الثنائية الديكارتية الذهنية والفيزيقية التي تدخل ضمن تحليله.

ما الذات التي جاءت في تحليل ميد والتي تستطيع أن تتخاطب مع نفسها؟(١٩)

---

(١٩) لإلقاء مزيداً من الضوء على الذات انظر كتاب ميد «العقل والذات والمجتمع» وعلى وجه الخصوص الصحف ١٣٥، ٢٢٦ وأيضاً مقاله «أصل الذات والرقابة الاجتماعية The genesis of the self and social control. وقد أشار جيمس إلى أن الإنسان يختلف عن سائر الحيوانات الأخرى بما أسماه الشعور بالذات Self consciousness أو المعرفة

#

اعتبر ميد أن الصفة الجوهرية للذات هي وعيها بذاتها Self Consciousness بمعنى أن لديها القدرة على أن تكون شاعرة أو حاصلة على وعيّ بذات الشخص كموضوع. وقد وجد مثل هذا الوعيّ بالذات في اللغة وهي سبب الخاصية الاجتماعية للرموز اللغوية، فالشخص يستدعي في نفسه الاتجاهات التي تستدعيها الرموز اللغوية لشخص آخر لدى الآخرين، ومن ثم فالرموز التي تدل على ما في عقل الشخص ذاته، يستجيب لها شخص آخر كما يستجيب له الآخرون، ومن ثم يصبح الموضوع بالنسبة لشخص ما أصبح شاعراً بذاته - يصبح ذاتاً وهكذا فإن الذات هي ذلك الكائن العاقل الذي أصبح على وعيٍ بذاته، وبهذا المعنى اعتقد ميد أن الحيوانات بخلاف الإنسان ليست ذواتاً، طالما أنها تفتقر إلى التقنيات اللغويات التي تجعل وعيها بذاتها ممكناً في رأيه.

وقد ذكرنا في هذا الملخص النقاط الرئيسة لنظريات ميد في العقل البشري الخاصة بعملية الرمز اللغوي. وفي النفس الإنسانية ككائن عاقل قادر على وضع ذاته في إطار دلالته الرمزية إذاً ما الملجأ والمعنى الكوزمولوچي لإنسان شديد الإقتناع بذاته؟

المعرفة المنعكسة عن ذاته ككائن مفكر Reflective Knowledge of Himself as a Thinker، وذلك في كتابه «مباديء علم النفس» المجلد الثاني، ص٣٥٩، ولكنه لم يفسر قوله هذا في مصطلحات أو تعبيرات لغوية محددة. ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة لعبارة بيرس التي يقول فيها: لقد أصبحنا على وعيّ بذاتنا عندما أصبحنا على وعيّ باللاذات not-self.

We become aware of ourself in becoming aware of the not-self.

المجلد الأول، الفقرة ٣٢٤.

٨- النسبية الموضوعية في عالم الكون عند ميد

تتضمن الخبرة بالنسبة لميد وطبقاً لوجهتي نظر البرجماتية التجريبية والبيولوجية، تفاعلاً ديناميكياً بين الكائن الحيّ النشط وبين الموجودات المحيطة به في العالم، وهو تفاعل حسَّاس. وفي هذه العملية التفاعلية فإن كل من الكائن الحيّ كخبير والعالم كخبير آخر يتبادلان عملية التفاعل. وقد اعتبر ميد أن مثل هذه العلاقة الديناميكية هي كما تتبدى للعقل من زاوية معينة، وهكذا قال ميد بمعنى شامل عن التعبير الاحتمالي أن مظهر الموضوع كما يبدو للعقل هو مظهر اجتماعي: فطبيعة شيء ما كما تبدو للعقل محددة على الأقل في جانب منها بطبيعة الأعضاء الآخرين الذين يشتركون معه في المظهر[٢٠] ولكن ما هذا

---

(٢٠) انظر: ميد «فلسفة الحاضر» ص٧٧ حيث استخدم فيها مصطلح «النسق» بدلاً من المنظور Perspective، وعلاقة هذه التصورات هي إحدى المؤلفات التي استخدمها الطلاب بعد ذلك عندما تناولوا فكر ميد الكوزمولوچي. وقد استقبل عمل ميد باعتباره عالم نفس اجتماعي وعلى هذا الأساس وجهت إليها العناية والتصفيق، غير أن أحداً لم يتناول فكرة الكوزمولوچي بعد، وهو على نفس الدرجة من الأهمية. وعلى طلاب المستقبل أن يحاولوا بعناية استكشاف العلاقة بين فكر ميد وميتافيزيقا هوايتهد Whitehead ونظرية النسبية في الطبيعة. وأود أن أسجل هنا نقطتين ذكرهما لي هوايتهد في أكتوبر ١٩٣٣ الأولى: إنه اعتقد أن فكره جسَّد كل أفكار البرجماتية الرئيسة، الثانية: اعتقاده بأن الحركة البرجماتية يمكن أن تقوي بدرجة عظيمة إذا طورت تصور مفهوم الكوزمولوچيا ومن رأيه أن الكوزمولوچيا التي تناولها هو نفسه يبدو أنها كانت من النوع الذي يحتاج إليه الناس. وذكر هوايتهد في ملاحظته أنه قرأ لتوه كتاب ميد «فلسفة الحاضر» مما جعله يضع ميد في مرتبة عالية، غير أن موت ميد غير المتوقع على أثر أزمة قلبية heart attack عام ١٩٣١ منعه من تطوير الكوزمولوچيا التي يعد كتابه «فلسفة الحاضر» جزءاً منها فقط، كما منعه من مقارنة كتاباته مع كتاب هوايتهد «العملية والواقع» Process and Reality الذي ظهر بعد فترة قصيرة من موت ميد، كما تناولت مناقشات ميد لأفكار هوايتهد أعماله المبكرة فقط، وبرغم ذلك فقد كان لهذا العمل تأثيره على تطور ميد خاصة في بحثه المهم الذي قدمه بعنوان «الواقع الموضوعي للمنظورات The Objective Reality Perspectives عام ١٩٢٦، ونشره عام

#

الشيء الذي يتبدى للعقل وسيكون له تأثير بدوره عندما تدخل منظورات أخرى في النظر إلى العقل؟ إن هذا هو المعنى الثاني للتعبير «اجتماعي» وهكذا يمكننا أن نميز بين معنيين لهذا الاستخدام الواسع لتعبير اجتماعي: يشير المعنى الأول إلى التأثير المتبادل لكلا العنصرين داخل النسق، بينما يشير الآخر إلى تأثير شيء ما في النظام على شيء آخر في نظم أخرى. وهذا ما يمكن أن نسميه تفاعل النظم أو الأنساق systems or intraperspectives الاجتماعية وتداخل النظم أو الأنساق الاجتماعية interperspectival or intersystemic على الرغم من أن ميد ذاته لم يستخدم هذه التعبيرات.

وعندما يتحد المعنيان الاجتماعيان مكونان ما أسماه ميد «المبدأ الاجتماعي»[21] The Principle of Sociality فإنه يسمى الخواص الجديدة أو الغريبة والتي تنشيء شيء ما عندما يدخل عليها نسق جديد بالخواص «المنبثقة» أو «الناشئة كنتيجة طبيعية أو منطقية».

ويمكن إيضاح المبدأ الاجتماعي على المستوى الإنساني بحالة صبيّ نشأ في مجتمع صغير يدخل الجامعة مما ينتج عن اتصاله بالآخرين في المجتمع الصغير ملامح وصفات معينة في شخصيته، «فهو صبيّ من مدينة صغيرة»،

١٩٢٧ في: Proceedings of the Sixth International Congress of Philosophy وأعيد نشره في كتاب «فلسفة الحاضر» (الصحف ١٦١-١٧٥) وكذلك في كتاب A. J. Reck بعنوان «كتابات مختارة لجورج هربرت ميد».

Selected Writings of George Herbert Mead الصحف ٣٠٦-٣١٩.

(٢١) انظر «فلسفة الحاضر»، ص ص٥١-٥٢، و ص ص٧٦-٧٧ ويوجد بها عبارتان عن المنظورات Perspectives كالأتي:

أ - إن النظام هو «العالم في علاقته بالفرد وعلاقة الفرد بالعالم» فلسفة الفعل ص١١٥.

ب- إن النظام هو العلاقة المستمرة لبناء (أو تكوين) Structure الطبيعة التي تتضمن التغير في تكوينها (المصدر السابق ص١١٨)

كما ستؤثر ملامح شخصيته هذه بدورها ردود أفعاله داخل مجتمع الجامعة، إلا أن ملامح جديدة ستنبثق في شخصيته بسبب تفاعله مع الآخرين في الجامعة، وستستمر هذه العملية في كل موقف اجتماعي مقبل يعيشه، وبالطبع فإن ما ذكر ينطبق على أي شخص آخر يتفاعل معه الصبيّ من مدينة صغيرة أخرى في الجامعة.

فالفرد في جانب منه هو ما هو عليه بسبب المنظورات التي كان عليها وهو عضو فيها، فطبيعته تختلف عن شخص خارج كل هذه المنظورات، ومع ذلك فلن نستطيع أن نذكر طبيعته بطريقة شاملة بتعبيرات أو مصطلحات تبين موقفه من هذه المنظورات، كما لن نستطيع - بالطبع - أن نذكر في تعبيرات تشمل مجموعة من المنظورات المحددة طالما أن ملامح جديدة لشخصيته تنبثق عنها إذا دخل في مواقف نظمية جديدة.

والآن نطرح سؤالاً كوزمولوجياً مؤداه: هل يمكن مدّ هذا النوع من التحليل ليشمل صفات الكون؟ من الواضح أن ميد كان مقتنعاً بإمكان مده. «فلا توجد ناحية في الكون ليس لها منظوراً» Perspective. (فلسفة الفعل، ص٤٩٥)[٢٢].

وقد ميز بين ثلاثة مستويات رئيسة تنظم المنظورات، وهي المستوى غير العضوي The inorganic، والمستوى العضوي The organic والمستوى الذهني The mental[٢٣]، وناقش في مواضع عدة كيف أن موضوعات كل مستوى هي موضوعات اجتماعية بمعنى أن كل مستوى (في ذاته) بسبب

(٢٢) في مناقشة جرت بيني وبين أينشتين Einstein حول هذا الموضوع، وجدنا أن رأيه كان بالنفي، فالنسبية الموضوعية Objective relativism معروفة للعالم عن طريق «العلم» Science وليس عن طريق الميتافيزيقا.

(٢٣) انظر: هربرت ميد «فلسفة الفعل»، ص ص٦٠٦-٦٠٧.

علاقتها بالأعضاء الأخرى لكل منا ومعها جميعاً المنظورات التي تدخل فيها. وعند كل مستوى يتم تنظيم المنظور من خلال الحقيقة التي مؤداها أن الأعضاء في منظور دائماً ما تحدث في المنظورات الأخرى أيضاً. ولكن المستويات الثلاثة هي نفسها منتظمة في علاقتها ببعضها البعض عن طريق نفس المبدأ الاجتماعي Principle of Sociality، وهكذا فالحياة هي انبثاق(*) يحدث تحت ظروف معينة من مستوى غير عضوي، وكذلك المستوى الإنساني (أو الذهني) ينشأ بدوره عن مستوى عضوي تحت ظروف معينة. وينظم المبدأ الاجتماعي هذا الكل المعقد من المنظورات، ويشكل الكون.

وليست هذه هي المناسبة لكي نحاول أن نرسم فيها الخطوط الكبرى بالتفصيل، أو أن ندافع عن هذه الكوزمولوچيا التطورية المنبثقة. ولكن يمكن أن نلاحظ العديد من الملامح المميزة:

أولاً- في هذه النظرية نجد الكون هو (كما كان عند چيمس) «واحداً» One في بعض النواحي و«كثير» Many في نواح أخرى، ويتمتع الكون بالوحدة Unity بمعنى أنه لا يوجد مكون واحد منظم معزولاً عن بقية المكونات، وعلى سبيل المثال، فإذا كانت بعض أجزاء الكون تبدو مفقودة أحياناً، فإننا نجدها في المنظورات الأخرى، ومن ثم فالكون «واحد» كوحدة منتظمة من المنظورات as an organized system of Perspectives، ولكنه ليس واحداً بمعنى أن هناك منظور واحد فقط هو الذي يشمل الكون a single all-inclusive Perspective. فكل

(*) ترى نظرية الانبثاق Emergent Theory أن العقل الإنساني يكتسب خصائص جديدة عند انبثاقه وشأنه عن الجسم خلال تطوره البيولوجي، وهي تختلف عن خصائص البدن بعيدة عن متناول دراسات علم وظائف الأعضاء. د. محمود زيدان، في النفس والجسد، ص١٨٩ (المترجم).

شيء على علاقة منظمة ببعض الأشياء الأخرى، ولكن ليس بجميع الأشياء الأخرى أو يمكن أن نقولها بطريقة أخرى، لا تشمل جميع المنظورات جميع الأعضاء على المشاع. ومن ثم فالتعددية Plural-ity أساساً كالوحدة Unity ففكر ميد مثل فكر چيمس، له مكان في تقدير عدم الاستمرارية اللاصيرورة discontinuities والاستمرارية أو الصيرورة Continuities.

ثانياً- إن الموقف هو موقف نزعة طبيعية تطورية an evolutionary naturalism أكثر منه كما عند بيرس نزعة مثالية تطورية an evolutionary idealism. ويعتبر العقل بالنسبة لميد، منبثقاً عن شيء ومن ثم فهو على مستوى واحد من تنظيم المنظورات، ولا يعني هذا أن ميد ليس لديه مكان لمقولة بيرس في الاعتقاد/ المعرفة (Th.)، ويعد المبدأ الاجتماعي حقاً أساساً للكون ككل، ولكنه في حد ذاته شكل من أشكال الاعتقاد/ المعرفة: ماذا ستكون مM في علاقتها المنظورية مع ل L والتي تعتمد في جزء منها على ما تكونه مM في علاقتها المنظورية من ن N. ولكن حيث أن بيرس يتجه لمساواة العقل بالاعتقاد/ المعرفة، فإن نظرية ميد في الواقع تعالج العقل كصورة منبثقة عن الاعتقاد وليس كصورة متطابقة معه. ويتبع هذا أنه لن يوجد شيء في نظرية ميد متطابق مع تصور بيرس عن الكون مثل عملية معقولية الذات As a process of Concrete reasonableness والتي ينشأ عنها الاعتقاد/ المعرفة مثل العقل. والشعور (F) الخالص مثل الإمكان عالم محددة وإرادة عاقلة A World of Determinate and Rationalized Secondeness مثل الوجود أو التحقيق فجميع مقولات بيرس تجد لها مكاناً في نظرية الكون لميد. ولكن في الإطار العام لكوزمولوچيا ميد فكل مقولة من هذه المقولات يجب أن

تكون متضمنة في الأخريات. ومن ثم فلن تكون هناك احتمالات Possibilities دون تحقيقات، ولا توجد وقائع فعلية (تحقيقات) Actualities دون اعتقاد/ معرفة متضمن في المباديء الاجتماعية - وهكذا فإن الانبثاقات emergents هي احتمالات للتحقيقات، والتحقيقات هي ما تكونه فقط من خلال اشتراكها في عدد من العلاقات المنظورية مع التحقيقات الأخرى. فعند ميد وكذلك عند ديوي تظل مقولات بيرس صفات للواقع، ولكن تحولت النزعة المثالية التطورية عند بيرس إلى نزعة طبيعية تطورية عند ميد.

وطالما أنه في مثل هذا الموضوع الخاص بالكوزمولوچيا فإن صفات أي شيء هي صفاته بمقتضى علاقته المنظورية بالأشياء (الموضوعات) الأخرى، فيمكن أن يقال عن الصفات إنها «نسبية بطريقة موضوعية» Objectively relative، ويمكن أن نسمي علم الكون الذي يعمم هذا المبدأ علم كون النسبية الموضوعية. وفي القسم التالي سوف يتم تطوير ومناقشة هذه النظرية باستفاضة أكبر وسيثور السؤال الخاص الذي يدور حول علم الكون البرجماتي ككل باعتباره علم نسبيّ موضوعيّ تطوريّ An evolutionary objective relativism science.

٩- تعقيب على الكوزمولوچيا البرجماتية (الميتافيزيقا)

وضع بيرس ميتافيزيقاه باعتبارها نظرية عامة عن الواقع على أساس المعلومات التي أمكن الحصول عليها من علم الظواهر (المنطق) وتم مراجعتها باستخدام نتائج العلوم الخاصة. فالميتافيزيقا التي يمكن تصورها هي علم يقوم على الملاحظة ويختلف فقط في درجة العمومية عن العلوم الخاصة. تصور يختلف عن تصور نظريات الميتافيزيقا «التأملية» أو «العقلية» والتي تتميز عنها بقوة من حيث المنهج وصحة نتائجها عن العلوم التي تقوم على الملاحظة

ونادراً ما يستخدم البرجماتيون - ماعدا بيرس - مصطلح «الميتافيزيقا» وإن استخدموه فباستخفاف، ومن ثم فإننا استخدمنا مصطلح علم الكون Cosmology في هذا الفصل بدلاً من الميتافيزيقا.

وينفرد علم الكون البرجماتي بملامح خاصة مثل التصور اللاديكارتي عن الخبرة، ومقولات الشعور (F.) والإرادة (.S)، الاعتقاد / المعرفة (.Th)، ونظرية العلامات (السيميائية) عن العقل، والنسبية الموضوعية التطورية، ويبدو لي أن هناك اتفاق جوهري بين البرجماتيين الأربعة علي الملامح الثلاثة الأولى.

وتعتبر الخبرة مجالاً خاصاً تماماً، لكن ليس في كل موضع كما يختلف ما هو ذهني اختلافاً واضحاً وبصفة أساسية عن بقية الكون، ومن خلال تطورها (الخبرة) أصبحت البرجماتية توضع في مقابل هذا النوع الخاص من الثنائية وعلى العكس، فقد اعتبر مجال الخبرة كجزء من الكون ومتصلة به. أما الاتجاه الرئيس فهو التأكيد على اعتبار الخبرة متضمنة في تفاعل الكائن الحيّ مع بقية العالم - وعلى وجه الخصوص تعتبر عودة إلى تصور أرسطوطاليس «ولغة كل يوم» وفي نفس الوقت هناك إدراك لبعض نواحي خاصة أو ذاتية للخبرة، وفي هذا المقام فعندما حاولت البرجماتية تناول الخبرة حاولت أن تكون عادلة أمام الخواص المسيطرة للديكارتية التقليدية الحديثة The Cartesian - in - Spired - modern tradition.

وعلى الرغم من ذلك لم يستفد أحد من البرجماتيين الآخرين من مقولات بيرس: الشعور والإرادة والاعتقاد/ المعرفة، فجميعهم أدرك ملامح المقولات الخاصة بالواقع «الإمكان» و«الواقعية» الفعلية actuality و«العمومية» بشكل أو بآخر.

وقد تناول كل البرجماتيين الكبار العقل بمصطلحات خاصة بعملية العلامات. وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت فروق كبيرة في التأكيد على

أهمية العقل ومداه الذي تصوره، مثلما نجد في الفروق بين النزعة المثالية التطورية لدى بيرس والنزعة الطبيعية التطورية لدى ميد.

أما الصفة الرابعة البارزة وهي - النسبية الموضوعية التطورية - فإنه قد ثار سؤال منطقي حول ما إذا كانت الوجهة النسبية الموضوعية - ولو أنها ليست وجهة تطورية - يمكن أن تعتبر بحق قد طبقت على علم الكون البرجماتي ككل.

ويجب أن نعترف في الحال أنه لا يوجد فيلسوف برجماتي آخر طوّر بوضوح وعمومية شكل النظرية كما ينسب لميد. ولكن هناك أمثلة كثيرة وتحليلات محددة لدى البرجماتيين الآخرين تبدو لي أنها دخلت في أصل النظرية. وهكذا كتب بيرس:

«... إن كل شيء بيّن لنا هو بيان ظاهري عن أنفسنا. وهذا لا يمنع إمكان وجود ظاهرة لشيء ما بدوننا، تماماً مثل قوس قزح Rainbow الذي يعد إعلاناً فورياً عن كل من الشمس والمطر» (المجلد الخامس، الفقرة ٢٨٦)(٢٤).

وأكثر من ذلك فقد كتب بيرس هذه العبارة الأكثر اتصالاً بالموضوع:

«والنظرية التي تتناول وجود مثل تلك الأشياء الأخرى يجعلنا في مثل هذه المكانة البارزة في حياتنا مما يقنعنا أن الأشياء الأخرى توجد أيضاً بفضل ردود فعلها مع بعضها البعض» (المجلد الأول، الفقرة ٣٢٤).

وأسهب چيمس في عباراته التي قال فيها إن «كل شيء له بنية في الحقيقة ولا مهرب من ذلك» (كون متعدد ص٣١٩)، وقال:

---

(٢٤) لاحظ أيضاً مناقشة بيرس المهمة عن «الألوان النسبية بالنسبة لعضو أو حاسة الإبصار وبالتالي فهي علاقة «خارجية» External (المجلد السادس الفقرتان ٣٢٧-٣٢٨). وتوجد في المجلد الخامس الفقرة ٤٥٧ مناقشات كثيرة مشابهة. وفي كتاب چورج ميد «فلسفة الحاضر» ص ص٧٣-٧٤، وهي مناقشة عامة «للصفات الثانوية» Secondary qualities.

«إن عالمنا المتعدد Multiverse هو الذي يجعل الكون مستمراً، فكل جزء على الرغم من أنه يمكن ألا يكون، وأن له علاقة واقعية أو مباشرة، إلا أنه مع ذلك يتحرك في بعض علاقاته الممكنة أو المباشرة مع كل جزء آخر من خلال الحقيقة القائلة بأن كل جزء يرتبط مع الجزء الذي يليه مباشرة بطريقة متلاحمة لا سبيل إلى الخلاص منها» (المصدر السابق، ص٣٢٥).

بينما ذكر ديوي، الذي أخذ موقفاً سماه «آرثر مورفي» Arthur E. Murphy «النسبية الموضوعية» Objective relativism، ذكر في موقفه هذا «أي شيء يتغير طبقاً لمجال التفاعل الذي يدخل فيه» (الخبرة والطبيعة ص، ٢٨٥).

ولم يطبق ميد نفس العبارة بالضبط على موقفه هذا الخاص «بالنسبية الموضوعية»، ولكن هناك مواضع كثيرة استعمل في كل منها عبارات «الموضوعي» Objective و«العلاقة» Relation في نفس الجملة:

«تماماً مثل شيء موضوع على مسافة وهذا الشيء له قيمة منظورة تعتمد على علاقة العين بخطوط الضوء التي تميل إلى الالتقاء عند نقطة واحدة... لذلك فإن ما يسمى الصفة الحسّية للشيء يمكن أن تتم رؤيته على مسافة تنبثق كنتيجة لعلاقتها بالضوء الحاس أمام الشيء، وهذه الصفة هي صفة موضوعية كما أنها صفة منظورة، مثال ذلك، اختصاص شيء بشيء آخر على الرغم من وجوده على مسافة ما» (فلسفة الفعل، ص٢٨٣)[٢٥].

إن علم الكون النسبيّ الموضوعي هو بمعنى ما تعميم ما هو متضمن في

---

(٢٥) قارن هذه العبارة التي وردت في ص٣٣٠ من كتاب «العقل والذات والمجتمع» ومؤداها أن الأشياء تكون ملونة، وذات رائحة سارة أو مؤلمة، بشعة أم جميلة، وذلك في علاقتها بالعضو الحاس». وكتب ميد في موضع آخر «إن حاسة الذوق المحظوظة والأعضاء المنفعلة (أو التي تعاني) موجودة بنفس المعنى مثل المدركات الأخرى أو الأشياء في أصل نشؤ الذات والرقابة الاجتماعية» ص٢٥٧.

"The Genesis of the self and Social Control".

التفسير البرجماتي للخبرة، الموجود في العلاقة بين الكائنات الحيّة وبين العالم الذي يكوّن الخبرة وبين كل من العالم والكائن الحيّ مما يمكن من تحقيق صفات لا يمكن تحقيقها بطريقة أخرى. وتم تعميم هذه الحقيقة الأخيرة عن علاقات الخبرة ولكنه ألغىً الحاجة التي يحصل عليها دائماً الكائن الحيَّ الحساس تحت ظروف خاصة يمكنها معها الحصول عليها، والنتيجة هي: علم كون نسبيّ موضوعي. ويبدو لي أن علم الكون البرجماتي - بالإضافة إلى كونه بوجه عام عملية أو كوزمولوجيا مؤقتة فإن لديه نواة النسبية الموضوعية التي تحقق تطورها الكامل لدى ميد عند معالجته للخبرة كنظام أو معالجته إجرائياً Transactional.

وتتلائم النسبية الموضوعية مع ملامح أخرى كثيرة للفكر البرجماتي، مثل معالجة القيمة في علاقتها بالفعل المكتمل، وتناول نظرية العلامات التي تدل فيها العلامات فقط من خلال الوسيط على فعل المفسر.

ولهذه الأسباب فإن النسبية الموضوعية تبدو تحديداً مناسباً لكوزمولوچيا برجماتية أكثر تميزاً.

الفصل السادس

البرجماتية في الوقت الحاضر



الفصل السادس

البرجماتية في الوقت الحاضر

١ - في وحدة الحركة البرجماتية

بيّنت المناقشات السابقة أنه على الرغم من أن فلسفة البرجماتيين الأمريكيين ليست فلسفة مغلقة على ذاتها وأحادية النسق، إلا أنه يوجد قدر كبير من الاتفاق المشترك بين بيرس، وچيمس، وميد، وديوي، وقد حدث هذا في جميع مجالات الفلسفة التقليدية، فإذا لم تكن البرجماتية نسقاً بالمعنى التاريخي، فإنها مصاغة بصورة أكثر نسقية من أن يدركها الناس على وجه العموم. إنها فلسفة مفتوحة كحركة جماعية فريدة تقريباً في تاريخ الفكر الفلسفي. ولا يكوّن أعضائها مجموعة من المريدين (الحواريين) المخلصين حول سيّد مفكر واحد، ولكنهم مجموعة من المفكرين المبدعين المتفاعلين الذين قاموا بتطوير صرح فلسفي عام من أوجه متعددة، وكانت النتيجة الكلية هي إحدى الانجازات العقلية العظيمة خلال المائة سنة الأخيرة.

وقد تم استعراض الموضوعات العامة الرئيسة لهذه الحركة الفلسفية والتي ركزت على الإنسان ككائن نشط يبحث بذكاء عن القيم - لكي يستطيع أن يتحكم في مستقبله. واتخذت نظرية العلامات (السيميائية) السلوكية أساساً لها. كما قامت هذه النظرية مقام «الأورجانون Organon للحركة. وعلى هذا الأساس، وبتأثير منهج العلم القوي، اتخذت نظرية المعرفة التقليدية (الابستمولوجيا) شكلاً جديداً في نظريات البحث، وتم تفسير المنطق والرياضيات داخل نظرية البحث التي اتخذت النظرية السيميائية أساساً لها،

وعولجت نظرية التقويم كشكل خاص لنفس نوع البحث العام الموجود في العلم، وأصبحت محور المشكلة في هذا البحث، وتناولت هذه الحالة الخاصة الشيء الذي يستحق التقدير في موقف أصبحت فيه عملية التقدير مسألة إشكالية، هذا النوع من نظرية القيم (الأكسيولوچي) يمكن أن يسمى النظرية الأكسيولوچية، أي نظرية السلوك المفضل على الرغم من أن هذه العبارة لم يستخدمها الفلاسفة البرجماتيون أنفسهم. وأكبر الفروق بين الفلاسفة البرجماتيين تجدها في نظرياتهم التي عالجت علم الكون (أو الميتافيزيقا) ولكن حتى هنا يوجد اتفاق على أن البحث الكوزمولوچي يجب أن يتم توجيهه واختباره عن طريق الملاحظة Observation، وأن العالم الذي تم اختباره بكل ثراؤه يجب أن يعتبر كجزء وقسم من الواقع الكلي الذي أمكن إدراكه بكل أبعاده وأكثر من ذلك، فطالما أن كل البرجماتيين الكبار يساوون بين العمليات الذهنية وبين عمليات العلامة فإن هناك اتفاق عام على ما يمكن أن نسميه نظرية سيميائية (أو علاماتية) للعقل.

إذاً، هذه الموضوعات العامة تميز الفلسفة البرجماتية في جوانبها الفنية وتعطيها دورها المميز، نظرية علامات (سنيميائية) سلوكية a behavioral semiotic ومنطق يتم تفسيره على أساس سيميائي، ونظرية معرفية موجهة نحو دراسة البحث ونظرية في القيم معنية بدراسة السلوك المفضل (وهو الشيء الجدير بالتقدير Prizing وتعيين أو تحديد قيمة شيء ما Appraising) ونظرية في الخبرة تعد مكملة للكون، ونظرية سيميائية في العقل. وهذه هي الموضوعات العامة الكبرى، وهي حصاد جديد بالفعل.

وليس معنى هذا أن ننكر وجود الفروق بين بيرس، وچيمس، وميد، وديوي - الفروق في شخصية كل منهم، وفي نوعية المشكلات التي تناولوها، وحتى في نوعية الحلول المقترحة لها. فكل منهم فيلسوف على طريقته الخاصة، وكل منهم يمكنك قراءته والاستفادة من قراءته دون أخذ الآخرين في الاعتبار.

حقاً، وحتى الآن فإنها حركة برجماتية واحدة، «واحدة في كثير» One in many. وسأناقش فقط هذه الواحدية Oneness لأنها مبهمة كالكثرة -many ness، ومن بعض الوجوه، فإن تجميع الكثرة يكوّن «الواحدية». وعلى سبيل المثال، ما قاله بيرس عن العلامات وما قاله ميد عنها مختلف جد الاختلاف حقاً، ولكنهما لا يناقضان بعضهما البعض، وكلاهما أسهم اسهاماً كبيراً في نظرية العلامات بطريقة مؤثرة. أو يمكن أن نقول على سبيل مثال آخر، إن تركيز بيرس الشديد على المجتمع The Community وتركيز جيمس الشديد على الفرد ساعد على إقامة علاقة تبادلية غنية بين النزعتين الفردية والاجتماعية والتي تركت تأثيرها بقوة على ميد وديوي[1]. وإذا بحثنا في البرجماتية عن إطار يشمل مجالات الفلسفة التقليدية، فإننا سنعتبر عمل جميع الرجال الأربعة عملاً متكاملاً بوجه ما من الوجوه.

وفي الفصل التمهيدي حاولت أن أعدد أربعة عوامل في الموقف الثقافي الذي وضعت البرجماتية أصوله والتي قبلها البرجماتيون على أنها عوامل لا إشكالية. أعتقد أنه واضح الآن من التحليل السابق أن هذه العوامل الأربعة عملت معاً بهذه الطريقة: جميع البرجماتيين تجريبيين، وجميعهم يحترم العلم والمنهج العلمي، وجميعهم شعر بتأثير علم الحياة (البيولوجيا) التطوري عليه، وعمل جميعهم كإنسانيين داخل إطار المثل الديموقراطية الأمريكية.

وكان عقد الثلاثينيات من هذا القرن فترة ذات أهمية خاصة في تاريخ الفلسفة البرجماتية الأمريكية. وفي نهاية هذه الفترة كانت كل الأعمال الكبيرة لمؤسسي الحركة البرجماتية متاحة: المجلدات الستة الأولى لبحوث بيرس (Collected Papers)؛ المجلدات الأربعة تضم أعمال ميد؛ وكتب ديوي «الفن كخبرة» و«نظرية التقويم» و«المنطق» و«الإيمان الشائع أو الفطري»

---

(1) انظر: ديفيد ل. ميلر David L. Miller «النزعة الفردية: التقدم الشخصيّ والمجتمع المفتوح» Individualism: Personal Achievement and the Open Society.

A Common Faith والحرية والثقافة (أو الحضارة)، اكتملت جميعها خلال السنوات الخمس التي ظهر فيها هذا الإنتاج الملحوظ.

ولكن شهد عام ١٩٣٩ بداية الحرب العالمية الثانية، وتميزت هذه الحرب بظهور عهد جديد في الثقافة الأمريكية. وكان من المستحيل أن نتناول بنفس العمق في هذه الفترة العصيبة الحصاد الغني لأعمال بيرس وميد وديوي التي كانت متاحة خلال فترة الثلاثينيات.

وأكثر من ذلك فقد جوبه الفلاسفة الأمريكيون خلال تلك الفترة بالحركات الفلسفية الأوروبية القوية: الوضعية المنطقية Logical empiricism الفلسفة التحليلية الإنجليزية المتأخرة Late British Analystic Philosophy الظواهرية أو فلسفة الظواهر Phenomenology، والوجودية Existentialism فضلاً عن تمركز معظم جهود الفكر الفلسفي في الولايات المتحدة خلال الثلاثين سنة الأخيرة حول هذا التحدي. وبدا لبعض المفكرين أثناء تلك الفترة أن البرجماتية أصبحت ذات أهمية تاريخية فقط.

وعلى الرغم من ذلك فقد برهن الموضوع على أنه ليس بمثل هذه البساطة، فبالنسبة لبعض المفكرين الأمريكيين، وغالباً ما هم على أجنحة الفكر وليسوا تحت دائرة الضوء على المسرح الفلسفي، عملوا بجد خلال السنوات الأخيرة، وقد استوعبوا الأحداث من حولهم وأحياناً ما كانوا يقومون بتطوير اللب التاريخي للفكر البرجماتي من بعض نواحيه.

وثبت أيضاً أن الحركات الأوروبية الأربع المذكورة في الفلسفة لها علاقة ببعض أوجه الفلسفة البرجماتية بطرق لا تقبل الشك على المدى البعيد. واضطروا أن يتعاملوا إلى حد ما مع عادات ثقافية مختلفة ومع مشكلات مشابهة. وأحياناً مع نفس النتائج وإن عبَّروا عنها بطرق مختلفة. وهذه البداية يجب أن نعيها، كما أننا يجب أن نقوم بعقد بعض المقارنات منذ البداية، وكان

من نتيجة هذا العمل أن عادت إلى الظهور بعض أفكار بيرس وچيمس وميد وديوي إلى بؤرة الاهتمام، وأصبحت أفكاراً «معاصرة» Contemporay مثل أي أفكار أخرى في فلسفة اليوم.

٢ - البرجماتية في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر

يدور العمل الرئيس في البرجماتية الآن في الولايات المتحدة وبصفة مبدئية ولكن ليس بطريقة شاملة حول التفسير Interpretation والتقرير (التقويم) Assessment وتناولت أعمال بيرس الجزء الأكبر من هذا النشاط بلاشك. وقد أضاف الناشر آرثر بوركس Arthur W. Burks مجلدين آخرين لبحوث بيرس (Collected Papers) صدرا عام ١٩٥٨، فأصبح إجمالي عددها ثمانية[٢][*]. وأصبحت مخطوطات بيرس على الميكروفيلم متاحة الآن

---

(٢) انظر: بيرس، المجلد السابع «العلم والفلسفة» Science and Philosophy، والمجلد الثامن «مراجعات ورسائل وثبت بالأعمال» Reviews, Correspondence and Bibliography.

(*) نشرت المجلدات الستة لهذه الأبحاث بالأسماء الآتية (وهي من وضع الناشرين وليست من وضع بيرس):-

١- المجلد الأول: مبادىء الفلسفة	Vol. I. Principles of Philosophy (1931)
٢- المجلد الثاني: عناصر المنطق	Vol. II. Elements of logic (1932)
٣- المجلد الثالث: المنطق الصحيح	Vol. III. Exact logic (1933)
٤- المجلد الرابع: أبسط الرياضيات	Vol. IV. The simplest Mathematics (1934)
٥- المجلد الخامس: البرجماتية والبرجماطيقية	Vol. V. Pragmatism and Pragmaticism (1934)
٦- المجلد السادس: الميتافيزيقا العلمية	Vol. VI: Scientific Metaphysics (1935)

ثم نشر بوركس عام ١٩٥٨ المجلدان السابع والثامن بعنوان:

Pierce, C.S.., Collected Papers (Vols. 7-8)
(Edited by: Burks, A.W.., U.S.A., 1958)

انظر د/ عزمي إسلام، المنطق الصحيح. تراث الإنسانية العدد ٢ المجلد السابع (بدون تاريخ) ص١٤٩ (المترجم)

في مكتبات جامعة هارفارد. وأسفرت جهود محبي بيرس عن إنشاء جمعية تشارلز ساندرز بيرس Forum تدور فيها المناقشات حول فلسفته وغيرها. وظهر حديثاً عدد من الكتب عن بيرس، وقد أشرت إلى بعضها في الحواشي السابقة من هذه الدراسة، وأنهى ماكس فيش Max H. Fisch في هذا الوقت قائمة طويلة - طال انتظارها - عن أعمال بيرس.

واستمر إدراك أهمية فكر ميد في الإزدياد، وأجرى توم كليفتون كين Tom Clifton Ken دراسة مفصلة عن أعمال ميد الفلسفية والاجتماعية والنفسية[3]. ولم يحظ كتابيه «فلسفة الفعل» و«فلسفة الحاضر» بالاهتمام الفلسفي الذي يستحقانه وهما يمثلان الأفكار الكوزمولوچية (الكونية الطبيعية) عند ميد. ويعد هذا جزءاً مهماً من فكر ميد المتأخر حيث وضع فلسفته عن الفعل في مكانها الكوزمولوچي. وسوف يتناول ديفيد ل. ميلر هذه الموضوعات في الدراسة التي يجريها الآن عن ميد.

أما الاهتمام الأكبر المتزايد الذي يمنح لوليم چيمس مؤخراً فقد كان قليل العناية بچيمس كفيلسوف برجماتي ووجهت الدراسات عنه نحو الاتجاهات الفينومينولوجية في كتابيه: «مبادىء علم النفس» و«مقالات في التجريبية الأصيلة» وكذلك تضميناته الوجودية في كتاب «تنويعات الخبرة الدينية»[4]. وعلى الرغم من ذلك فإن الاهتمام بچيمس لم يقف عند حد هذه الكتابات، بل إن هناك مقتطفات أدبية عديدة حديثة لفكره ككل[5] ويعد تركيزه على

---

(٣) انظر: توم كليفتون كين «النظرية الاجتماعية للمعنى والخبرة عند چورچ هربرت ميد» George Herbert Mead's Social Theory of Meaning and Experience.

(٤) انظر: چون وايلد John Wild، التجريبية الأصيلة عند وليم چيمس The Radical Empiricism of William James.

(٥) انظر: «كتابات وليم چيمس The Writings of William James أصدره چون ماك درموت John J. McDermott، ومقدمة لوليم چيمس Introduction to William James، أصدره أندرو ريك Andrew Reck.

الحرية والنزعة الفردية والتعددية الموضوع الثابت لتلميذ چيمس وصديقه هوراس كالين Horace Kallen خلال عمله الوظيفي الطويل والمتميز معه.

وهناك دراسة بدأت تصدر (الآن) بعنوان «مشروع ديوي: بحث جماعي عن كتابات ديوي» وتركز هذا المشروع في جامعة إلينوي الجنوبية Southern Illinois University، ويشمل مجلس إدارة الناشرين من بين أعضائه: جورج أكستل George E. Axtelle، وجو آن بويد ستون Jo Ann Boydston، وموريس إيامز S. Morris Eames، ولويس هان Lewis E. Hahn، ووليم ليز William A. Leys[6]، كما أصدرت هذه المجموعة عام ١٩٦٧ نشرة بعنوان «نشرة ديوي» A Dewey News Letter بينما قدم سيدني هوك Sidney Hook الطريقة التي فكر بها ديوي بنشاط ملحوظ[7] ودافع عنها بثبات. واحتوت «مجلة الفلسفة» Journal of Philosophy خاصة على العديد من المقالات عن الخبرة مما مكّن من استمرار تأثيرها ربما أكثر من نظرياته الاجتماعية في ذلك الوقت. ونأمل أن يصدر جورج دايخويزن George Dykhuizen ثبت بالمقالات الممتازة التي أصدرها ديوي خلال حياته العملية الطويلة.

ولن نحاول أن نصف التأثير بعيد المدى للبرجماتيين الكبار على الفلاسفة الأمريكيين المعاصرين، أو على الفلاسفة الأوروبيين الذين جاءوا للإقامة في الولايات المتحدة. فهذا التأثير له دراسة قائمة بذاتها. ويمكنك أن تجد المادة التي

---

(٦) كان س. موريس إيامز S. Morris Eames ضمن هذه المجموعة وكتب عدداً من المقالات عن ديوي. وكان المجلدين الأول ،الثاني قد صدرا عامي ١٩٦٨/٦٩ ويحتويا على الأعمال المبكرة لجون ديوي، وقد أصدرتهما مطبعة جامعة إلينوي الجنوبية Southern Illinois University Press.

(٧) توجد المصادر في ثبت مراجع كتاب «سيدني هوك والعالم المعاصر» Sidney Hook and the Contemporary World الذي أصدره بول كورتز Paul Kurtz وصدرت كذلك مجموعة حديثة من أعمال هوك بعنوان «البحث عن الوجود» Quest for Being.

لها علاقة بهذا المبحث في عدد مختارات «الفلسفة البرجماتية Pragmatic Philosophy التي أصدرتها «أميلي رورتي» Amelie Rorty، وفي مجلة الفلاسفة الأمريكيون الجدد The New American Philosophers التي أصدرها «أندرو ريك» وفي «نحو إعادة الاتحاد في الفلسفة Toward Reunion in Philosophy التي أصدرها «مورتون هوايت» Morton G. White، وفي مقال «موري مورفي» اتباع كنط: برجماتيو كمبردج Kant's Children: The Cambrigre Pragmatistis.

ويلقى الآن فكر لويس C.I. Lewis عناية كبيرة، ويمكن الإشارة إلى أحدث المجلدات التي تحتوي على مقالات لويس الفلسفية بعنوان «فلسفة سي. آي. لويس» The Philosophy of C.I. Lewis التي أصدرها بول آرثر شلب، وقد بقيت بعض الكتابات التي لم يصدرها قبل وفاته عام ١٩٦٤، ثم ظهرت تحت عنوان: «القيم والأمور الإلزامية» Values and Imperatives التي أصدرها چون لانج John F. Lange.

٣- البرجماتية والفلسفة الأوروبية المعاصرة

أما فيما يتعلق بالعلاقة العامة بين البرجماتية وبعض الحركات الأخرى في الفلسفة المعاصرة مثل التجريبية أو الوضعية المنطقية، والفلسفة التحليلية الإنجليزية المتأخرة، والفينومينولوجيا، والوجودية، فإنه من الملاحظ أن هذه الحركات الخمس تطورت مستقلة بعضها عن البعض الآخر على أسس مختلفة من التقاليد الثقافية، فيما عدا بعض الدمج الذي حدث بين الفينومينولوجيا والوجودية فإنها لازالت حالة خاصة، ذلك أن العاملين في إحداهما نادراً ما يعرفون ماذا تم في الحركات الأخرى. ومع ذلك فإنه بقليل من إعمال الفكر ندرك أن بين هذه الحركات عدداً من الملامح على وجه العموم، وقد ساعد

التحليل السابق للبرجماتية في معرفة إلى أي مدى كانت هذه الفروق المسموح بها صحيحة بل ومتكاملة إلى حد بعيد.

وتشترك هذه الحركات الخمس في ملامح عامة منها إيجاد عدد من المفكرين الجادين وليس مجرد القيام بعمل هوامش على أعمال أستاذ واحد. وكانت لهم غايات لا نهائية وليس مجرد إقامة «أنساقاً» بالمعنى التاريخي، **وصبغوا جميعاً بصبغة تجريبية متحررة في مقابل الحركات التحليلية التقليدية للخبرة والميتافيزيقا التأملية التقليدية، وعلى وجه الخصوص تلك ذات الطابع الديكارتي Cartesian Type وكانوا جميعاً ذوو توجه إنساني man Oriented -** فقد بدأوا جميعاً على الأقل من الإنسان كمحور أساسي - أفعاله، وخبرته، ولغته، وتكويناته اللغوية، وتوجهاته التي تتسم بالإيمان، بشيء ما Attitudinal orientations. وكانت مظاهر التوجه نحو الإنسان هي الصفة المصاحبة في مختلف هذه الحركات؛ لأن المشكلات التي عنوا بها كانت جد مختلفة. وكان يبدو أن اعتبارات العداء المتكرر بين أعضاء الحركات المختلفة، بالنسبة لما له صلة بمشكلة ما قد لا يكون للآخرين نفس التقدير فلم يكن ليبدو أن لها أهمية تذكر. ومع ذلك فإنه طالما أن المحور الأساسي ينصب على خبرة ونشاط الإنسان، فإنه يجب أن تكون هناك تأكيدات Emphasis ونتائج للحركات المتباينة مكملة لبعضها البعض ولاينفي بعضها البعض.

ويفترض التحليل السابق للحركة البرجماتية منظوراً واحداً نستطيع أن نرى من خلاله هذا التكامل. فكل حركة من الحركات الأربع الأخرى المذكورة في الواقع تركز على إحدى الإشكاليات الرئيسة والتي أخذتها الحركة البرجماتية ككل.

وعلى سبيل المثال فقد ركزت كل من الوضعية المنطقية لجماعة فيينا Vienna Circle على وجه العموم ومعها فلاسفة البرجماتية - وبيرس على وجه الخصوص - على المنطق الصوري Formal Logic وعلى المحك

التجريبي (الوضعي) للتصور العلمي ذات المعنى، وعلى الفروض. واتفقت الفلسفة التحليلية الإنجليزية في شكلها اللغوي الذي وضعه فتجنشتين Wittgenstein بطريقة عامة وفجة مع الفلسفة البرجماتية في ربط المعنى بالفعل. أما بالنسبة للفينومينولوجيا فإن لها مكاناً بارزاً في فلسفة بيرس وچيمس، وفي كثير من كتابات ميد (كما في فلسفة الحاضر) حيث احتوت هذه الفلسفات على خواص فينومينولوجية وعنى الوجوديون في صورة جد مختلفة بالاتجاه أو بطريقة الحياة المناسبة للإنسان الحديث. وأصبحت هذه الإشكالية أساسية لدى جميع البرجماتيين، وعلى وجه الخصوص عند چيمس وديوي. وهكذا فإن هذه الحركات الأربع كلها اهتمامات واضحة اشترك فيها جميع البرجماتيين، وحتى الآن فإذا كانت الحركة البرجماتية تعتبر تكويناً كاملاً، فإن الحركات الأخرى في الفلسفة المعاصرة يجب أن تبرهن أيضاً على تكاملها. وتعتبر الحركات الخمس جميعها كتخصصات فلسفية محاولات يدعمها الإنسان الحديث Present - day man لكي يفهم ذاته وأنشطته فضلاً عن أنها محاولات لوضع الإنسان نفسه في بؤرة هذه الحقبة الزمنية الخاصة بالتحول الأساسي في التاريخ البشري.

إن المحاولة الجادة في النظر إلى الفلسفة المعاصرة وبهذه الطريقة ستكون عملاً كبيراً، وسيتطلب الأمر دراسات للحركات الفلسفية الأخرى مثل تلك المحاولة التي تبذل في الفلسفة البرجماتية، ثم تجرى دراسة مقارنة لمثل هذه النتائج لاكتشاف ما في هذه الحركات المختلفة من اتفاق على وجه العموم، ويقع مكمن الاختلاف في كشف المدى الذي وصلت إليه في الواقع من الناحية التكاملية. ومن الواضح أن مثل هذه «الفلسفة المعاصرة المقارنة» بعيدة عن حدود هذه الدراسة.

وعلى الرغم من ذلك فهناك فروض كثيرة متشابهة بين الفلاسفة في الحركات المختلفة. وعلى كل حال فإن الحواجز المحددة قد تم إزالتها بالفعل،

ونتوقع أن يستمر هذا الوضع لفترة أخرى ويمكن أن ندرك القوى والمصادر المتعددة للفلسفة المعاصرة في علاقتها بالعمل الذي شمل كوكبنا على اتساعه The Planet - wide task حتى يفهم الإنسان الحديث ذاته ويستعد لمستقبله.

٤ - البرجماتية كتعبير عن الثقافة الأمريكية

يتركز اهتمامنا الرئيس على البرجماتية باعتبارها مجموعة من الأفكار، وليس باعتبارها منحني للتاريخ الثقافي[٨] ولكننا لم نشر بعد إلى بداية ظهور المبدأ الملائم للبرجماتية ذاتها، فالفلسفة تنشأ عندما يشعر أشخاص معنيين بوجود مشكلات ما في ظروف اجتماعية معينة. وبهذا المعنى فإن الفلسفة وأي نوع آخر من العلامات يمكن أن يقال عنها أنها «تعبر» عن قالبها الأساسي الثقافي حتى ولو لم تشر بشكل خاص إلى ذلك القالب. وكما أشار ديوي فإن الفلسفة سواء كان ذلك ضمنياً أم صراحة قد تنظر نظرة تفضيل إلى قالبها الثقافي أو قد تكون رد فعل في مقابل الموقف الذي تم تطويره. إن الفلسفة البرجماتية تعبير عن الثقافة الأمريكية من وجهتين: فهي (أولاً) تقوم بتدعيم بعض النواحي المحددة لهذه الثقافة (وثانياً) تقوم بنقد جوانب معينة أخرى منها وهكذا يصدق على جميع البرجماتيين المؤسسين.

---

(٨) يمكن الرجوع إلى كتاب «البرجماتية والثقافة الأمريكية» Pragmatism and American Culture الذي أصدره «جيل كنيدي» Gail Kennedy ويحتوي على عدد من المقالات كتبها البرجماتيون ونقادهم وثبت بالمراجع ويحتوي كتاب هـ. إس ثاير H.S. Thayer «المعنى والفعل» Meaning and action على مناقشة لهذا الموضوع. وهناك كتب أخرى لها علاقة بنفس الموضوع كتبها هربرت شنيدر Herbert W. Schneider منها «تاريخ الفلسفة الأمريكية A History of American Philosophy له ترجمة عربية بقلم د/ محمد فتحي الشنيطي وكتاب مورتون هوايت Morton, White «الفكر الجماعي في أمريكا» Social Thought in America وكتاب رايت ميلز Wright Mills «علم الاجتماع والبرجماتية» Sociology and Pragmatism (المترجم)

واعتقد بيرس أن الإنجاز السياسي للولايات المتحدة تمثل في اتحادها الاختياري وفي اعتقاده أن هذا يمكن أن يكون أنموذجاً لتطور آخر لشكل المجتمع الإنساني[٩]. ولكن بيرس كان شديداً في نقده عندما أدان «إنجيل النهم» Gospel of greed الذي يعرِّض أمريكا للخطر، وفي المقابل عرض «إنجيل الحب» Gospel of love. ورحب چيمس بالنزعة الفردية والتعددية معها، ولكنه عارض بوضوح عبادة «معبودات النجاح» The bitch goddess success والسياسة الأمريكية الامبريالية في ذلك الوقت. وربما كان ميد أكثرهم تفاؤلاً بنتاج العمليات الناتجة عن العمل في الولايات المتحدة، ولكنه كان على وعي كامل بإمكان إعادة البناء الاجتماعي المستمر والمتمثل في تزايد مطلب المثال الديموقراطي: لذلك ركز اهتمامه خلال حياته على مثل هذه الكتابات التي تدور حول الاستقرار الاجتماعي The Social Settlement والرافض ذو الضمير اليقظ The Conscientious objector، والتعليم الصناعي industrial education وتحويل «الإحساس الإجباري إلى هيئة اجتماعية impulsive charity to social reconstruction. وبينما كان ديوي يمثل الاتجاه البروتاجوراسي المتميز في الديموقراطية الأمريكية، كان نقده لملامح كثيرة في المجتمع الأمريكي الحالي قاسياً إلى أبعد الحدود.

وعلى الرغم من النقد التفصيلي اعتبرت الفلسفة البرجماتية تعبيراً إيجابياً أكيداً لبعض الممارسات التي وقعت في التاريخ الأمريكي، بوجه عام في الديموقراطية عندما يتم النظر إليها وتفسيرها تفسيراً أخلاقياً.

إن الأمريكيين الأوائل الذين اعتبرناهم رواداً دخلوا أرضاً غنية غير نامية

---

(٩) انظر: مقال «رولون ويلز» Rulon Wells «بيرس كمواطن أمريكي» Peirce as an American، في كتاب: «وجهات نظر عن بيرس Perspectives on Peirce الذي أصدره «بيرنشتين» R. J. Bernstein.

كانوا يتمتعون بالثقة في قدراتهم وفي نشاطهم البارع لمجابهة المشكلات التي يواجهونها، ولبناء مجتمع يتناسب مع تطلعاتهم وأنشطتهم، وإنه لحق أنهم دعموا ثقتهم في أنفسهم وتطلعاتهم ببعض النظريات السياسية والدينية المحددة التي جلبوها معهم من أوروبا. ولكن كان اعتمادهم الرئيس على أنفسهم كأفراد، وتدرجوا في حل مشكلاتهم الخاصة. وكمن تفردهم على التركيز على الموقف Situation وهذا التفرد لم يستمدوه من ثقافتهم أو تراثهم التي ورثوها.

وعلى الرغم من ذلك فإن ميراثهم السياسي والديني منحهم الثقة، إلا أنه لم يوضح لنا أو يبرر سبب ممارستهم الفعلية التي مارسوها بالفعل.

وبينما كان چيمس يبارك ينابيع النزعة الفردية بصفة أساسية للممارسات الأمريكية، كان بيرس وميد وديوي يركزون على الحاجة إلى تشريع اجتماعي للاتجاه البارع والأخلاقي لتلك النزعة الفردية. وبهذه الطريقة أعطت الحركة البرجماتية التعبير الفلسفي لهذه الممارسات كما أوضحت المُثل التي لم تصاغ في الثقافة المستوردة من أوروبا. وبهذا المعنى تعتبر البرجماتية الأمريكية التعبير الفلسفي الإيجابي عن الديموقراطية الأمريكية.

وتناول ميد هذا الموضوع في بحثه الثاقب عن «فلسفات رويس وچيمس، وديوي في مكانتها الأمريكية»، والكلمات الآتية من الفقرة الأخيرة لهذا البحث ترسم حدود هذا الموقف بطريقة واضحة للعيان:-

«لقد أشرت إلى ما يبدو لي أنه من الصفات المهمة للحياة الأمريكية، الحرية هي الصفة التي تحتوي بداخلها على بعض القيود الصارمة للغاية، منها العمل بعيداً عن السياسة والأعمال التجارية المباشرة التي تتم آلياً عن طريق توقير النظام الاجتماعي السابق في وجوده على النظام الحالي والذي يجب أن يحتل مكانه بداخلهم وتلك القيم التي يجب أن يحفظوها ونشير هنا إلى تلك النزعة الفردية التي ظهرت ربما بطريقة غريبة ولكن دون خوف وقد

تجسدت في أفضل أشكالها لدى وليم چيمس، حيث صبغها بثقافة وطنية حقيقية. وتوجد الآن طريقة واحدة فقط يمكن أن تأتي بها مثل هذه النزعة الفردية لكي ننقدها نقداً بناءً، وذلك عن طريق وجود الفرد الذي يحدد غاياته وأهدافه في عبارات ذات معان اجتماعية يمكن استخدامها. إنك لا تستطيع أن تأتي إليه بعلم الأخلاق من أعلى ولكنك تستطيع أن تصل إليه عن طريق أخلاق هي ببساطة ما يطرأ على فعله من تطوير واضح. إنني اعتبر مثل تلك البراعة الواضحة هي المسؤولة عن تطوره الثابت وعن التكامل الاجتماعي الذي يحدث في المجتمع الأمريكي، وبقليل من القيادة الواعية وتقريباً دون أفكار البتة. وليس من الضروري هنا أن نشير إلى أن فلسفة چون ديوي التي تصر على صياغة الهدف في عبارات ذات معان، هي المنهج المتطور لتلك البراعة الواضحة في العقل للمجتمع الأمريكي».

هذه هي الكلمات الواضحة، وعلى الرغم من ذلك فإنني على ثقة من أن هذا الكتاب ككل بيَّن الفلسفة البرجماتية الأمريكية أكثر ما بيَّن الضرورة التاريخيه لها.

ملاحـــــق

الجزء الأول

١ - جون ديوي معلماً(*)

عرَف ديوي في كتابه الكلاسيكي «الديموقراطية والتربية» (الذي صدر لأول مرة عام ١٩١٦) الفلسفة بأنها «النظرية العامة في التربية» (ص٣٨٣). فقد تصور ديوي التربية بطريقة فضفاضة، أعني باعتبارها «إعادة بناء أو تنظيم أو تجديد الخبرة التي تضاف إلى معنى الخبرة، والتي تزيد من القدرة على توجيه سبل الخبرة اللاحقة» (ص ص٨٩، ٩٠). وبناءً على هذا المعنى الواسع يمكن تصور ديوي الفيلسوف في النهاية على أنه معلم. كتب ديوي يقول: «إن عمل فلسفة المستقبل هو توضيح أفكار الناس لمواجهة صراعاتهم الأخلاقية والاجتماعية فيما يواجهون من أيام. فإن هدفها سيصبح إلى حد ما تمكين الإنسان من التعامل مع هذه الصراعات (التجديد في الفلسفة ص٢٦). فمن المؤكد أن ديوي تصور عمله في حياته الخاصة فوضعه في هذه العبارات، ومعظم كتاباته الكبيرة تبدو معقولة إذا اعتبرناها محاولة أكيدة لتربية الإنسان المعاصر.

واعتاد چيمس تافتس James H. Tufts أن يقول عن كتاب «الديموقراطية والتربية» إنه أحسن كتب ديوي. ولقد كانت بالطبع مثل تلك الأعمال الضخمة المتأخرة التي كتبها ديوي مثل «الخبرة والطبيعة» و«الفن كخبرة» و«المنطق نظرية البحث» من أكثر اهتمامات الفيلسوف المحترف. إلا أن لب

(*) هذه الصحف مقتطفة من محاضرة عامة بعنوان «جون ديوي معلماً» ألقيتها في جامعة شيكاغو في الثامن من أغسطس عام ١٩٥١.

هذه النظرية التي جاءت في كل هذه الكتب توجد في صورة أسهل في كتابه «الديموقراطية والتربية». ويبدو لي أن هذا الكتاب يعرض بطريقة أفضل من أي عمل آخر وحدة فكر ديوي والدافع الأساسي لحياته.

ويعطينا عنوان كتاب «الديموقراطية والتربية» مصطلحين لثالوث ديوي التصوري، وقد أوضحت في المقدمة أن العلم هو الطرف الثالث (للثالوث). وتوجد هنا فقرة دالة على هذا الثالوث جاءت في مقدمة كتابه جاء فيها:-

«تتضمن الصحف الآتية محاولة لكشف وطرح الأفكار الموجودة في المجتمع الديموقراطي، وتطبيق هذه الأفكار على النسق التربوي ككل وتشتمل المناقشة على إشارة إلى الأهداف والمناهج البناءة للتربية العامة كما نراها من وجهة نظرنا هذه، فضلاً عن تقويم نقدي لتطوير نظريات المعرفة والأخلاق التي صيغت في حالات أوضاع اجتماعية مبكرة، إلا أنها لازالت سارية في مجتمعات ديموقراطية اسمياً، فهي تعيق الإدراك المناسب للمثال الديموقراطي. وكما سيبدو من الكتاب نفسه، فإن الفلسفة المذكورة في هذا الكتاب تتصل بنمو الديموقراطية مع تطور المنهج التجريبي للعلوم والأفكار التطورية في العلوم البيولوجية، وإعادة التنظيم الصناعي، كما أنها تعني بالإشارة إلى التغيرات التي وقعت في موضوع ومنهج التربية الذي يشير إلى هذه التطورات».

ومن هذه الكلمات تتضح لنا مصداقيات ديوي الآتية: أنه يقبل فكرة «المثل الأعلى للمجتمع الديموقراطي» The democratic ideal؛ ويقبل اتصال الإنسان بالطبيعة وهو اتصال واضح في البيولوجيا التطورية (علم الأحياء التطوري)؛ ويربط بين قبوله المنهج التجريبي للعلم وبين نمو الديموقراطية؛ كما أنه يقبل مجتمعاً صناعياً ولكنه يعتقد أنه في حاجة إلى إعادة تنظيم، فضلاً عن نظرته إلى التربية؛ باعتبارها القوة الرئيسة لإعادة بناء المجتمع الصناعي في اتجاه المثال الديموقراطي. دعونا الآن نترسم خطا هذا النسق في أصغر وحداته System - in miniature وذلك عن طريق توسيع تصوراته الرئيسة.

إن التركيز على الديموقراطية باعتبارها مثال ideal له دلالته؛ فيعني أن الديموقراطية في فكر ديوي هي أولاً تصور أخلاقي، ففي بحث نشره عام ١٨٨٨ بعنوان «أخلاق الديموقراطية The Ethics of Democracy نقرأ هذه الكلمات: إن الديموقراطية اجتماعية أو مفهوم اجتماعي بمعنى أنها تصور أخلاقي، وقد بني على دلالتها الأخلاقية دلالة إدارية Governmental؛ إن الديموقراطية هي ذلك الشكل من المجتمع الذي يُعطي فيه لكل إنسان فرصة ... لكي يصبح شخصاً». إن ديوي لا ينأى أبداً عن هذا التصور الأخلاقي للديموقراطية باعتبارها المجتمع الذي يُعد فيه الشخص ليكون المركز فيه A person centered society.

وظهر نفس التركيز في كتابه «الديموقراطية والتربية حيث يقول فيه:-

«إذا كانت الديموقراطية لها معنى أخلاقي ومثالي، فإنه ينتج عن هذا المعنى أن يكون لها عائد اجتماعي على الجميع، وأن تقدم الفرص للجميع لتنمية القدرات المتميزة (ص١٤٢)، ويقع إدراك أهمية الفروق الفردية في الكتاب في الصحف ٤٥، ٨٧، ١٣٧، ١٥٣). كما أن تقديره لأفلاطون «Plato» وإشارته إليه باحترام، واضح في العبارة الآتية:- أرسى أفلاطون المبدأ الأساسي لفلسفة التربية عندما أكد على أنه من عمل التربية أن تكشف ما يناسب كل شخص، لكي نقوم بتدريبه عليه كي يتمكن من السيطرة على الجانب الممتاز فيه لأن مثل هذه العملية التنموية تتضمن أيضاً الوفاء بالحاجات الاجتماعية بطريقة متناسقة تماماً ولا يمكن أن يقع خطأ ما في مبدأه الكيفي Qualitative، ولكنه يقع في تصوره المحدود لمجال الاستجابة الداخلية التي يحتاج إليها المرء من الناحية الاجتماعية، كما أدت النظرة المحددة إلى وجود رد فعل، إلا أنه يبدو غامضاً في إدراكه لتنوع القدرات غير المحدودة الموجودة لدى مختلف الأفراد (ص٣٦١). ونلاحظ هنا أنه ركز على الفرد كأساس ومصدر القيمة داخل النطاق الضيق لتقاليد الثقافة الرئيسة للغرب.

وتظهر قيمة الابتكارات من خلال تركيز ديوي على العلم، بينما يعتبر ديوي العلم أحد الأسباب الأساسية لاضطراب المجتمع المعاصر، كما اعتبره أيضاً الأداة الذهنية الرئيسة التي تمكن من التغلب على هذه الاضطراب، ولكي نكون على يقين فإن هذا يعني أيضاً استمرار الأخذ بالتقاليد. وقد أشار فرنسيس بيكون Francis Bacon إلى هذا الاتجاه من قبل، كما كان لدى ديفيد هيوم David Hume الرغبة في أن يمتد المنهج التجريبي إلى الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية إلا أن ديوي - لكونه يعيش في حقبة أصبحت فيها الدراسات السيكولوجية (النفسية) والاجتماعية مذاهب كبرى - أكد أكثر من أي مفكر معاصر آخر على دور العلم في تزويدنا بالمعرفة التي نحتاج إليها عن الإنسان، وفي تزويدنا بمنهج يساعدنا على تناول إشكاليات المعرفة الكبرى. ويوصولنا إلى هذه النقطة نجد أنفسنا في خضم الجدل القائم حالياً لأن مصطلح «العلم» Science ليس فقط اصطلاحاً غير محدد وغامض ومضطرب ولكنه، أيضاً أصبح محتوياً على اتجاهات كثيرة من الاستحسان أو الاستهجان. وكتب ديوي في عام ١٩٣٨ في كتابه «الخبرة والتربية» ما يأتي:

«إنني على وعي بأن التأكيد الذي أكدته على المنهج العلمي قد يكون تأكيداً مضللاً، لأنه قد تكون له نتائج محددة عند الأخذ بالوسائل الفنية الخاصة للبحث المعملي فقط كما يسلكه المتخصصون. ولكن معنى التأكيد على المنهج العلمي لا يعني إلا قليلاً بالنسبة للوسائل الفنية المتخصصة (ص١١١).

وفي كتابه «نظرية التقويم» الذي صدر أيضاً عام ١٩٣٨ كان لدى ديوي ما يقوله عن «الاتجاه العلمي» The Scientific attitude حيث قال:-

«وفي جانبه السلبي (يقصد المنهج العلمي)، فإنه يعني التحرر من ربقة الروتين والتعصب والاعتقاد Dogma، والتقاليد غير الممحصة والاهتمام الذاتي المجرد Sheer self- interest ومن الناحية الإيجابية فهو الرغبة في

البحث وفي الفحص والتمييز لكي نصل إلى نتائج على الأدلة التجريبية والتي نقوم بجمعها بمشقة لكي تكون جميع الأدلة متاحة لنا»(٣١).

وعلى ضوء مثل هذه العبارات نرى أن تركيز ديوي المبكر على العلم كمنهج أو اتجاه، والعلم كمعرفة منظمة تتكون من تلك الأفكار التي ساعدت على إقامة مبدأ التحقيق كمنهج (الديموقراطية والتربية ص ص ٢٢-٢٤) إذاً فموقف ديوي هو «الثورة الكبرى» The Great Revolution في العلم باعتبار أن العلم يمكنه من حل مشكلات أفراد المجتمع.

ولا يعني هذا أن «العلم» يحل المشكلات الإنسانية ولكن يمكن استخدام المناهج العلمية والمعرفة عن طريق أفراد المجتمع عند حل مشكلاتهم. وكان ديوي محدداً تماماً في هذه النقطة التي تتفق حقاً مع اعتناقه الروحي للمثال الديموقراطي. ويوضح الفصل الذي ورد في كتاب «المنطق» بعنوان «البحث الاجتماعي» Social Inquiry هذا النزاع:-

«إن الفرق بين البحث الفيزيقي والبحث الاجتماعي لا يكمن في وجود أو انتفاء الغاية المصاغة في عبارات عن النتائج الممكنة. إنها تتألف من الموضوعات القيّمة التي تعمل على تحقيق هذه الأغراض ... وفي حالة البحث الاجتماعي فإن الأنشطة المترابطة تتضمنها العمليات التي تؤديها بطريق مباشر. هذه الأنشطة تدخل في مضامين أي حل مقترح. إلا أن الصعوبات العملية التي تعترض طريق تأمين طرق التوافق في الترابط الفعلي وهي صعوبات كبيرة إلا أنها ضرورية للنشاط المطلوب (ص٥٠٢).

لقد اعتبرت أن هذا الحديث إنما يأتي وفقاً للمثال الديموقراطي، لذلك فإن البحث الاجتماعي الذي يجري على أشخاص يواجهون شيئاً ما ويعد هذا الشيء مشكلة بالنسبة إليهم - يجب أن يشتركوا هم أنفسهم في البحث عن حل لها، ويجب أن يصلوا إلى اتفاق بشأن الأهداف والوسائل، ويجب أن يختبروا بأنفسهم الحل المقترح في عبارات لها تأثيرات تمس حياتهم وإذا كان

ذلك كذلك، إذاً فإنه عند قبول المنهج العلمي الذي يتحد مع المثال الأخلاقي للديموقراطية، فإن العلم عندئذ لا يكون وسيلة فقط لمعالجة مشكلات الناس ببراعة كما نرى في المجتمع الديكتاتوري Totalitarian Society ولكنه سيكون أيضاً وسيلة يمكن للناس بها أن يحلوا بطريقة أكثر رضا مشكلاتهم الخاصة سواء الفردية أم الجماعية.

بهذا الفهم لتصورات ديوي للديموقراطية والعلم نعود، الآن لنفترض باختصار تصوره الأساسي الثالث: التربية. أدرك ديوي أن المدارس تختلف باختلاف المجتمعات؛ لهذا فإن المسألة هي أن تجد نوع النظام التربوي المناسب للمجتمع الديموقراطي، وتتبع اتجاهات ردوده من افتراضاته السابقة الأساسية. فإذا كان المجتمع الديموقراطي واحداً يشترك فيه جميع الأشخاص - طبقاً لمدى قدراتهم - في إصدار قرارات تساعد على تنمية المجتمع، وإذا كان منهج البحث العلمي هو الصيغة (الشكل) المؤثرة والتي تناسب أكثر الذكاء الذي أوجده الإنسان لحل مشكلاته، إذاً فإن عمل المدرسة الديموقراطية هو إيجاد أشخاص يتمتعون بعقل تجريبي وبالخاصية الأخلاقية التي يمكن لها أن تتعاون مع الأشخاص الآخرين في عمل جماعي مشترك يتناسب مع المثال الديموقراطي. ولإيجاد مثل هؤلاء الأشخاص فإن المدرسة تصبح هي الوسيلة الرئيسة لتحويل حالة الإثارة للديموقراطية في اتجاه مثال الديموقراطية باستمرار. فالتربية التي يتصورها هي «تحرير قدرة الفرد عن طريق تطويرها على نحو مطرد تجاه الأهداف الاجتماعية (ص١١٥) وعمل التربية هو الحفاظ على الاتجاه الخلّاق والبناء حيّاً (ص٢٣١) لإطلاق الذكاء الإنساني والعاطفة الإنسانية (ص٢٦٩).

دعونا الآن نأخذ في اعتبارنا بعض ردود الأفعال النقدية التي أثارتها فلسفة ديوي في التربية. لقد كانت ولازالت مؤثرة ولكنها ليست بالطبع موضعاً للشك. لقد شكلت مدارس الحضانة والمرحلة الأساسية، وكانت تمثل قوة أساسية في تنمية تعليم تربية البالغين، كما أثرت على المدارس المهنية والتعليم الفني، ولكن كان لها بالمثل خصومها منذ البداية وحتى اليوم.

وتركز معظم النقد على بعض الممارسات التربوية في مدارس كثيرة رفعت فوقها لواء «التربية التقدمية» Progressive education وكانت كثير من هذه الانتقادات صحيحة، ولكن لم يكن هناك من ناقد أكثر قسوة في نقده لكثير من المدارس التي استخدمت اسمه من ديوي ذاته. حيث حذر من طرق تطبيق الديموقراطية والتربية والخبرة والتعليم بل وتنصل من مثل هذه الممارسات، ونستطيع أن نستغني هنا عن التحليلات التفصيلية التي ثار حولها الجدل.

وكثير ما يقال إن ديوي كان كثير التساؤل عن مكانة الطالب ودوره في إرساء دعائم الأصالة ويجيب ديوي عن هذا التساؤل بما يأتي:

«لقد أقمنا نظرية العقل الحر ونظرية المنهج العقلي لتطبيقهما علي الجميع بنفس القدرة ونحن نأخذ في اعتبارنا اختلاف الأفراد في مقدار العقل الذي لديهم... ولكن نظرية العقل بوجه عام نظرية خيالية ... إن ما نحتاج إليه هو أن يكون لكل فرد منا الفرص لكي يوظف قواه في أنشطة ذات معنى ويعني العقل، والمنهج الفردي والأصالة (وهذه العبارات قابلة للتبديل) الكيفية الغرضية The quality of purposive أو الفعل الموحد وإذا عملنا طبقاً لهذا الاقتناع فإننا سنضمن أصالته ولو على المستوى الاتفاقي أكثر مما يوجد الآن. ونحن نفرض منهجاً عاماً واحداً مزعوماً لكل فرد تربى تربية متوسطة من حيث الجودة بوجه عام ولكن باستثناء خاص إلى حد بعيد. وهكذا فإننا نحمد الصفة المميزة على الكثيرين ونتحفظ على حالات نادرة (مثل حالة دارون كما يقال) والتي تصيب بالعدوى العبقريات النادرة بالفساد (الديموقراطية والتربية، ص ص ٢٠٠-٢٠٣).

وهناك شكوى أخرى متكررة هي أن ديوي ركز تركيزاً شديداً على النشاط Activity في ممارساته التربوية المقترحة، أما إنه ركز على النشاط فإن هذا صادق بالتأكيد، ولكنه هو نفسه قام بنقد بعض المدارس التقدمية على

أساس أن التأكيد كان متزايداً بدرجة كافية على النشاط بدلاً من التركيز على النشاط البارع أو الخلاق Intelligent activity مما يؤدي إلى مطابقة الحرية على موضوع الإشباع أي الأداء المباشر للدوافع والرغبات التي يعترض عليها ديوي (الخبرة والتربية ص٨١). إن النشاط البارع أو الخلاق الذي يدعو إليه ديوي «يختلف عن النشاط الذي لا هدف له باعتبار أنه يتضمن في الحقيقة اختيار الوسائل - التحليل - Analysis بعيداً عن تنوع الظروف الموجودة - وترتيبها - التركيب Synthesis لكي نصل إلى هدف أو غرض مقصود (المصدر السابق ص١٠٥-١٠٦). إن النشاط البارع يتطلب نوع من الخيال، والخيال كما يصر عليه ديوي هو «جزء عادي ومكمل للنشاط الإنساني». (الديموقراطية والتربية، ص٢٧٧).

وهناك شكل آخر من أشكال النقد له علاقة بنفس الموضوع وهو أن تركيز ديوي على العلم أدى إلى اهمال أهمية إدخال العلوم الإنسانية في التربية، مهما كانت الحالة في الواقع، فإنه لا يبدو فكر ديوي يدعو إلى مثل هذا الاهمال. وتتضمن فلسفة ديوي بحق معنى أصيلاً - مثلما الحال في فلسفة بيرس وفلسفة هوايتهد - تبلغ ذروتها في مجال علم الجمال. ويعتبر كتاب «الفن كخبرة» لديوي هو أحد هذه الكتب التي لها اسهامات دالة بالتأكيد على علم الجمال والتي صدرت خلال هذا القرن. ويعبر الموضوع الرئيس لهذا الكتاب عن المكانة العالية التي منحها لعلم الجمال كأنموذج كامل للخبرة «ومثال الخبرة في تكاملها» (الفن كخبرة ص٢٧٤). ولا يعد التركيز على علم الجمال تركيزاً متأخراً، ويتضح هذا الأمر إذا أمعنا التفكير وعدنا إلى عبارته المقتبسة آنفاً عن المعيار التربوي باعتبار أنه المعيار الذي يضيف شيئاً إلى معنى الخبرة، والذي يزيد من القدرة على توجيه مجرى الخبرة اللاحقة. فإذا ركزنا على الجزء الأخير فقط من هذا المعيار فإنه سيكون إجحافاً لديوي، لأن التركيز على زيادة ثراء الخبرة، لكي تصل إلى شكل جمالي أو شكل متكامل، يعتبر شيئاً أساسياً بالنسبة لنظرية ديوي الفلسفية والتربوية ككل. «نحن نعيش دائماً في

الزمن الذي نعيشه وليس في أي زمن آخر، وعن طريق استجلاء المعنى التام في كل لحظة حاضرة فقط لكل خبرة واقعة، نكون على إثرها مستعدون لأن نفعل نفس الشيء في المستقبل» (الخبرة والتربية، ص٥١). وأشار ديوي إلى نفس النقطة في كتابه الديموقراطية والتربية ص٦٥ فيقول «يجب الاستفادة من طاقة الخبرة الحالية على أن تكون غنية وذات دلالة بقدر الإمكان، وعندئذ فإن الحاضر سيدمج في المستقبل دون أن نشعر، فنحن نعتني بالمستقبل». وسنقتبس النص الآتي من كتاب «الديموقراطية والتربية» وسنورده على طوله لبيان الدور الكبير للفن في مجال التربية:

«إن هذا التعزيز للصفات هو الذي يجعل من أي خبرة عادية، خبرة مغرية ومناسبة وقادرة على الاستيعاب الكامل وممتعة ولبنة أولى للأدب والموسيقى والرسم والتصوير ... إلخ في التربية. إنها ليست العناصر الشاملة للتقدير بالمعنى الأكثر عمومية لتلك الكلمة، ولكنها العناصر الرئيسة لتقدير مكثف تم تعزيزه، وبالمثل فإنها ليست ممتعة بصفة جوهرية وبطريقة مباشرة فقط، ولكنها تخدم غرضاً أبعد منها هي ذاتها إنه ذلك الحكم ولكن بدرجة متزايدة لكل أنواع التقدير للذوق الثابت. حيث تتكون المعايير من أجل تقدير الخبرات اللاحقة. إنها تثير عدم الرضا في الحالات التي تقع داخل نطاق قدرتها على القياس، إنها توجد الحاجة للأشياء المحيطة والتي ترتفع إلى مستواها. إنها تكشف عن عمق واتساع المعنى في مجال الخبرات التي قد تكون متوسطة أو عادية. إنها تمدنا بأعضاء للرؤية. وأكثر من ذلك فإنها تمثل في تمامها التركيز على العناصر التي تستحق المتعة والتي تجعل أية خبرة ممتعة بطريقة مباشرة، فهي ليست رفاهية التربية ولكنها تعبيرات مؤكدة تجعل من أية تربية شيئاً ذو قيمة (ص ص٢٧٨-٢٧٩).

وعندما نأخذ فلسفة ديوي ككل، فإننا نراها فلسفة ذات توجه قيمي، مكرسة لإبراز وتوجيه الخبرة الإنسانية، إن تأكيده على المنهج العلمي، وقبوله للحضارة الصناعية التي أفرزها هذا المنهج ليس استسلاماً للعمل،

والتكنولوجيا. لقد كان ديوي أولاً وأخيراً وعلاوة على كل ذلك فيلسوفاً إنسانياً Humanist، وكانت حياته كلها عبارة عن محاولة مدعمة لكي يجعل العلم والصناعة إنسانيين Humaning، قابلين لتحويلها نحو غايات إنسانية. وكان أساس تفكيره الثابت هو الإخلاص للنزعة الخلاقة في الشخص، وكذلك للمجتمع الديموقراطي والمدارس الديموقراطية وهو نوع من الامتداد نحو الاتجاه الأخلاقي الذي يتفاعل من خلاله الأشخاص.

لقد صقلت الأحداث التاريخية منذ صدور كتاب «الديموقراطية والتربية» كتابات ديوي الأخرى غير أنها لم تغير من قناعاته الأساسية. وقال ديوي في كتابه الذي أصدر الجزء الأول منه عام ١٩٤٦ بعنوان «مشكلات الناس» Problems of Men وكذلك في كتابه «الديموقراطية والتربية»، معترفاً بأن «الآمال التي فكر فيها الناس بنظرتهم الكريمة أوائل القرن الحالي تقريباً» قد أمكن ملاحظتها بصفة رئيسة من خلال مجريات الأحداث الفعلية التي حدثت في الواقع، وبقوة في الاتجاه المضاد» (ص٢٣) ومما جعل الطريق الذي اقترحه الإنسان الحديث صعباً إذا أراد السير فيه بوضوح، تزايد استخدام الإنسان للعلم والتكنولوجيا التي تستعبد الناس ولا تحررهم، وأن الإيمان بقدرة الإنسان على التحكم في الذكاء الخلاق قد ضعف بدرجة كبيرة وخطيرة. إلا أن اعتقاد ديوي الشخصي بشأن الدلالة التي تخللت الديموقراطية والعلم، والتربية لم يتبدل.

فهو يقول:

«وليست هناك حاجة لأن نذكر الصعوبات الضخمة التي تقف في طريق الانتشار من المجال المحدود إلى المجال الأوسع للعلاقات الإنسانية وهو التحكم في الذكاء المنظم، والعمل من خلال تحرير القوى والقدرات الفردية الذي يوجه عبء التاريخ الماضي إلى جانب هؤلاء المتشائمين بشأن إمكانية تحقيق هذه الرغبة الإنسانية والعمل الإنساني الضروري. إنني لا أتنبأ بأن الانتشار سيكون مؤثراً إلى الأبد في الواقع الفعلي ولكنني أعلن أن مشكلة

علاقة السلطة والحرية، والثبات والتغير، إذا أمكن حلها ستحل بهذه الطريقة، إن فشل المناهج الأخرى واليأس من الموقف الحالي سيكونا حجر عثرة أمام البعض لكي يبذلوا ما في وسعهم للقيام بعملية الانتشار الفعلي إنهم يعرفون قبل هذه المحاولة أن النجاح مستحيل وأنه يؤدي إلى اتهام الإنسانية بالتأرجح التافه والمدمر بين القوة السلطوية وبين الحرية الفردية غير المنظمة والتي نعزو إليها اسهامها في معظم الآلام وهزائم الماضي إن الموقف اليائس جداً كما في هذه المحاولة يعد حجر عثرة في طريق مساندة المجهود الشجاع (ص ص١٠٩-١٠١).

لقد كتب ديوي هذا عندما كان في السابعة والسبعين من عمره، ونلاحظ أن إيمانه بقدرة الذكاء، والعاطفة، والنزعة الخلاقة في الإنسان لم تتغير.

٢- علاقة البرجماتية بالعلوم السلوكية(*)

تخيل چون ديوي عام ١٩٢٠ في كتابه «التجديد في الفلسفة» Reconstruction in Philosophy أن «العمل الذهني في القرن العشرين، فيما يتعلق بالعلم الحديث هو كما يأتي:

«لقد أكد القرن السابع عشر باختصار على تطبيقه في مجال الفلك والكوزمولوجيا العامة، والقرن الثامن عشر في مجال الفيزياء والكيمياء، والقرن التاسع عشر أخذ على عاتقة التطبيق في مجال الجيولوجيا والعلوم البيولوجية».

ولكنه في الوقت الراهن استمر على النحو الآتي:

«يجب أن تتكون الأفكار الجديدة والمناهج العلمية في مجال الحياة الأخلاقية والاجتماعية فهل سيؤخذ على عاتق العمل الذهني خلال القرن

(*) هذه المادة العلمية جزء من بحث طويل كتب عام ١٩٦٤.

العشرين القيام بهذه الخطوة الأخيرة؟ عندما تؤخذ هذه الخطوة فإنه ستكتمل حلقة التطوير العلمي، ويتم التجديد في الفلسفة»[1]

وكرر وجهة نظره هذه في مقدمة طبعة كتابه «التجديد في الفلسفة» عام ١٩٤٨ حيث أكد على دور الفلاسفة في القرن السابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر في توفير «المناخ الفكري» Climate of Opinion الملائم لتأييد البحث العلمي في العلوم الفيزيائية. وعبَّر عن اقتناعه بأن الفلاسفة لديهم الآن «الفرصة والتحدي لأن يعملوا عملاً متشابهاً في مجال البحث الأخلاقي مستقبلاً».[2]

ويتضح من هذه العبارات المقتبسة أن ديوي كان يفكر في انتشار الأفكار العلمية التقليدية والمناهج الخاصة بدراسة الإنسان، ولا جدال في أن العلوم الإنسانية تحتاج لأن تبدأ من مناهج علمية فريدة. ومن الواضح أيضاً أن ديوي لم يكن يتوقع ظهور علم وصفي للإنسان فقط، ولكنه توقع أن تتقدم العلوم الإنسانية أيضاً في مجال «البحث الأخلاقي» Moral inquiry، ومن ثم يصبح لها صلة بالجانب المعياري normative، وأخيراً إذا لم تكن العبارات المقتبسة واضحة، فإنه من المؤكد أن ديوي كان يقصد أن يركز علم الإنسان الذي يتصوره على الواقع الفعلي وعلى الفعل والسلوك.

لقد ساعدت البرجماتية في إيجاد مناخ مناسب لمثل هذه التطورات في مجال الفكر Opinion وقال ديوي في ملاحظة له «إن مناخ الفكر أكثر أهمية من موضوع الأفكار ذاته، إنه موضوع يمس العادات الثقافية التي تحدد الفكر فضلاً عن تحديدها للاتجاهات العاطفية والإرادية[3]، وتعتبر البرجماتية

---

(١) جون ديوي، «التجديد في الفلسفة»، طبعة ١٩٢٠، ص ص ٧٥-٧٦.

(٢) المصدر السابق، طبعة ١٩٤٨، صxxxv. وانظر أيضاً صxxiii.

(٣) المصدر السابق، طبعة ١٩٤٨ الموسعة، ص xix .

عن الاجاهات العاطفية والإرادية والذهنية التي هيمنت على تطور العلوم السلوكية في الولايات المتحدة.

وتأثر بعض المفكرين الأوائل، وعلى وجه الخصوص في القارة الأوروبية تأثراً كبيراً جداً بالدور الذي قامت به الرموز symbols، والقيم values في الحياة الإنسانية والتي جعلت هناك هوة سحيقة للغاية بين العلوم «الطبيعية» Natural و«الثقافة» Cultural وبين المناهج المستخدمة في هذين المجالين من الدراسة. وكانت تقف خلف وجهات نظرهم (آرائهم) ثنائية فلسفية هي في الغالب ثنائية بين العقل والجسم، والروح والطبيعة، والفهم والمعرفة. إن مثل هذه الثنائية لم تظهر في الفلسفة البرجماتية، وربما كان هذا أحد الأسباب التي لم يجعلها تبدو أنها تتناول مشكلات أساسية لدى علماء النفس والاجتماع الأمريكيين.

على الرغم من ذلك فلم يكن البرجماتيين رديون(*) Reductionists أبداً، ولا يوجد شيء في تناولهم يتطلب إنكار أن الفعل الإنساني يحتوي على تعقيد ما، بل إنهم حاولوا أن يشرحوا أن ما في متناول أيديهم هو الدور الرئيس المسموح به والذي تقوم فيه الرموز والقيم بدور في الحياة الإنسانية وذلك باستخدام مصطلحات سلوكية. والكتابات هنا بالتأكيد معقدة، غير أن العلماء السلوكيين يدرسون الآن بلا تردد الحياة الرمزية والتقويمية للإنسان باستخدام مصطلحات سلوكية في جانب منها باعتبارها أنها تعود لمناخ الفكر الذي طوّره البرجماتيون، وفي جانب آخر باعتبار أنها راجعة للتحليلات التي أسسها البرجماتيون أنفسم.

(*) النزعة الردية (الارجاعية) Reductionism نزعة ترى إمكانية رد الظواهر العليا إلى الظواهر الدنيا «الأساسية» وهي تقوم على الاعتراف بإمكان وجود مراتب معينة لمجالات الواقع بدءاً من مستوى الوقائع الأولية، مثلاً، وانتهاء بمستوى الكائنات الحيّة والمجتمع البشري) المعجم الفلسفي المختصر، دار المتقدم، موسكو، ١٩٨٦، مادة الردية، ص ٢٣٨ (المترجم).

والآن أحب أن أقدم بعض المعلومات لكي نبين أن بيرس وچيمس وميد وديوي نشروا تأثيرهم المهم في الواقع على العاملين الأمريكيين في مجال العلوم السلوكية. وقد أرسل استبيان بسيط بين الزملاء العاملين في مركز الدراسات المتقدمة للعلوم السلوكية، يغطي السنوات ١٩٥٤-٥٥ وحتى ١٩٦٢-٦٣، فضلاً عن علماء الاجتماع والنفس، وشملت عضوية المنتسبين إلى المركز بعض الفلاسفة، والرياضيين والاحصائيين، والبيولوجيين، والمحامين، والتربويين، ونقاد الأدب وقليل من العاملين في التخصصات الأخرى.

تم إرسال عدد ٣٣٥ استمارة استبيان إلا أنها لم تشتمل على الفلاسفة والزملاء الذين يعملون خارج الولايات المتحدة ومعظمهم - وليس جميعهم- ممن يطلقون على أنفسهم اسم علماء نفس سلوكيين، وشملت المعلومات الأساسية المطلوبة مجال عملهم الرئيس، وسواء كان المفحوص قد تأثر بطريقة ما، ببيرس، أو چيمس، أو ميد أو ديوي، وإذا كان قد تأثر فبأيهم تأثر بواحد أو أكثر، وإذا كان مدرسو المفحوصين قد أظهروا تأثراً مهماً بأحدهم أو بأكثر من الرجال الأربعة، وكانت الدراسة غير رسمية، حتى أن عدداً قليلاً منهم في الواقع كتب أنهم لا يرغبون في أن يشتركوا في هذا الاستبيان على الرغم من ذلك فإن النتائج الرئيسة كانت شيقة وذات صلة بأهداف البحث.

وقد سلم ٥٢٪ من المفحوصين بالتأثير المهم عليهم لواحد أو أكثر من البرجماتيين الأربعة، وكانت نسبة التأثيرات المهمة كالآتي: ديوي (٥٣)، ميد (٥٠)، چيمس (٣٦)، بيرس (٢١)، وتم تصنيف المفحوصين طبقاً للمجموعات الآتية: علم النفس (٤٨)، الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)(٢٩)، العلوم السياسية (٢٧)، الاقتصاد (٢٧)، علم الاجتماع (٢٦)، التاريخ (١٥)، اللغويات (٦)، أما بقية عدد المفحوصين الآخرين وهم ٣٢ مفحوصاً فقد وضعوا تحت مجموعة المتنوعات Miscellaneous.

وباستقراء مجالات الدراسة فقد تم وضع حجم التأثير المهم للواحد أو أكثر من البرجماتيين الأربعة كالآتي: علم الاجتماع (٨٥٪)، اللغويات (٦٧٪)، علم النفس (٦٠٪)، الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) (٥٥٪)، المتنوعات (٤٣٪)، العلوم السياسية (٤١٪)، التاريخ (٣٣٪)، الاقتصاد (٣٠٪)، وقد اعتبرت علوم المجتمع والأنثروبولوجيا والنفس لب العلوم السلوكية في الغالب وعليهم وعلى مجموعة صغيرة من اللغويين كان التأثير البرجماتي عظيماً.

وأجاب حوالي ٥٢٪ من المفحوصين بأن واحداً أو أكثر من مدرسيهم قال إن واحداً أو أكثر من البرجماتيين الأربعة كان له تأثيراً مهماً عليهم أثناء فترة الدراسة. ومما هو جدير بالملاحظة أن توجد علاقة حميمة بين تأثير المفحوص تأثيراً مهماً بواحد أو بأكثر من البرجماتيين فضلاً عن تأثر مدرسه أيضاً. وهكذا فإننا نجد في ٧٣٪ من الحالات إذا أحيط المفحوص علماً بأن هناك تأثيراً مهماً لأحد البرجماتيين عليه، فإنه يقرر أن مدرسيه قد أعلنوا أنهم تأثروا بنفس التأثير، وإذا أنكر المفحوص وجود التأثير المهم عليه فإنه يقرر أنه مدرسيه أنكروا مثل هذا التأثر.

ولم يذكر ٢٧٪ من المفحوصين ومدرسيهم وجود أية تأثيرات مهمة للمفكرين البرجماتيين عليهم.

وأشارت هذه النتائج إلى أن بيرس وجيمس وميد وديوي كان لهم تأثيرات ملحوظة على العلماء السلوكيين أنفسهم، حيث كانت عينات كثيرة من العلماء السلوكيين من طلبة العلم اليافعين، ولم يكن التساؤل عن التأثير مجرد تساؤل في فترة تاريخية محددة بل إنه استمر حتى اليوم.

ومن الضرورة البالغة أن نضيف أن هذا التنافس لا يناقض عبارة روبرت ميرتون في كتابه «العلوم السلوكية الحديثة» The Behavioral Sciences Today من أن جذور العلم الاجتماعي والسيكولوجي المعاصرة «بدأت أولاً في

أوروبا وليس في الولايات المتحدة(٤)، وذكر ميرتون في هذا المقام على سبيل المثال رواد علميّ الاجتماع والنفس فيبر Weber (*) ودوركيم Durkheim (**) وفشنر Fechner (***) وبافلوف Pavlov (****). وجالتون(*) Galton وفرويد(**) Freud وآخرين، وتحدث عن كتاب آخرين في نفس الكتاب وبنفس الأسلوب Vein، وقد أشار البرجماتيون الأمريكيون إشارة بسيطة حقاً إلى الملاحظات التاريخية العرضية التي تقع في هذا الكتاب.

---

(٤) انظر: «العلوم السلوكية الحديثة» The Behavioral Sciences Today أصدره بيريلسان Bernard Berelsan، ص ٢٥٠.

(*) ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) عالم اجتماع (سوسيولوجي) ألماني، مذهبه قريب من الكنطية الجديدة والوضعية، من مؤسسي علم الاجتماع المعاصر. من أشهر مؤلفاته «الأخلاق البروتستانتية» و«روح الرأسمالية» و«الاقتصاد والمجتمع» (المترجم).

(**) إميل دوركيم (١٨٥٨-١٩١٧) عالم اجتماع فرنسي وضعي، يعتبر زعيم المدرسة السوسيولوجية الفرنسية من أشهر مؤلفاته «في تقسيم العمل الاجتماعي»، و«الأشكال البدائية للحياة الدينية» (المترجم).

(***) جوستاف تيودور فشنر (١٨٠١-١٨٨٧) مؤسس علم النفس الفيزيائي، تأثر بفلسفة شيلنج الرومانتيكية عن الطبيعة دافع عن المثالية «الكلية» مقابل المادية. (المترجم).

(****) إيفان بافلوف (١٨٤٩-١٩٣٩) عالم النفس الروسي الشهير وإليه يرجع الفضل في اكتشاف طريقة التعلم بالاشتراط الاستجابي وذلك عن طريق تجاربه على الحيوانات خاصة الكلاب. (المترجم)

(*) فرنسيس جالتون Francis Galton (١٨٢٢-١٩١١) عالم أحياء إنجليزي، يعتبر مؤسس علم اليوجينيا الخاص بالنسل. (المترجم).

(**) سيجموند فرويد Sigmud Freud (١٨٥٦-١٩٣٩): طبيب وعالم نفس نمساوي، يعزى إليه تأسيس نظرية التحليل النفسي وتمكن بواسطتها من تفسير كثير من الأمراض النفسية، ومن أشهر مؤلفاته «تفسير الأحلام» و«التحليل النفسي» و«الطواطم والتابو» وغيرها (المترجم).

بالطبع لم ينشأ علم النفس والعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة، ولا يوجد ما يشير في هذا البحث إلى أن الدراسات الأمريكية في هذه المجالات كانت مجرد فروع بسيطة في الفلسفة البرجماتية الأمريكية. كما لا توجد حتى مجرد إشارة إلى أن التركيز السلوكي والفعلي في الدراسات الأمريكية عن الإنسان نشأت فقط من مصادر أمريكية.(٥)

أما التنافس الحالي فيكمن ببساطة في أن الفلسفة البرجماتية الأمريكية لها تأثير قوي على التوجه السلوكي في علم النفس والعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة، تارة بتهيئة مناخ الفكر الملائم لمثل هذا التوجه، وتارة أخرى بتزويدنا بالتحليلات الخاصة الفعلية وعمليات العلامة، والقيم، وعملية التقويم والتي ساهمت بنفسها في كل من البرنامج ومحتوى العلوم السلوكية المعاصرة.

---

(٥) وقد نظر كل من تالكوت بارسونز Talcott Parsons وفلوريان تزنانيكي Florian Za-naniecki إلى علم الاجتماع على أنه علم دراسة الأفعال الاجتماعية، وقد مهد لهم المفكرون الأوروبيون الطريق الذي قاما بتطويره ولم يرجعا في كتاباتهم إلى مصادر البرجماتيين. انظر: كتاب تزنانيكي «الأفعال الاجتماعية» Social Actions (١٩٣٦) وكتاب باسونز «بناء الفعل الاجتماعي» (١٩٣٧)، The structure of social action بينما مات ميد عام (١٩٣١)، إلا أن تأثيره ظل واضحاً على علم الاجتماع الأمريكي.

٣- مدرسة شيكاغو(٭)

سيتم مناقشة مدرسة شيكاغو البرجماتية على جزئين الجزء الأول: نظرة عامة على السمات المميزة لهذه المجموعة من الفلاسفة البرجماتيين، الجزء الثاني يتناول بعض تفاصيل السنوات الأخيرة لهذه المجموعة (والتي عشتها بنفسي) عندما كنت طالباً في جامعة شيكاغوا اعتباراً من خريف عام ١٩٢٢ وحتى صيف عام ١٩٢٥.

الجزء الأول

اطلق وليم چيمس عبارة «مدرسة شيكاغو» The Chicago School على المفكرين البرجماتيين في جامعة شيكاغو، وأشار چيمس في خطبة رئاسية له Presidential Address ألقاها في ١٧ أكتوبر عام ١٩٠٣ عن چوي ديوي قال فيها إن مدرستك (أعني مدرستك الفلسفية) في جامعة شيكاغو[١] وكانت مدرسة شيكاغو، هي عنوان مقال لچيمس عام ١٩٠٤ دار حول كتاب «دراسات في النظرية المنطقية» Studies in Logical Theory الذي شارك ديوي في كتابته وظهر عام ١٩٠٣ واستخدم تشارلز بيرس أيضاً عبارة «مدرسة شيكاغو» في مقال له عام ١٩٠٤ في نفس الكتاب «الأمة» The Nation.[٢]

(×) هذه المادة هي جزء من بحث ألقي كخطبة رئاسية أمام الجمعية الفلسفية في فلوريدا في ٤ نوفمبر عام ١٩٦٦ ثم ظهرت حديثاً مزيدة في كتاب دارنل روكر Darnell Rucker عام ١٩٦٩ بعنوان «برجماتيون شيكاغو» The Chicago Pragmatists وكتب فان ميتر آمز Van Meter Ames المقال الافتتاحي لهذا الكتاب. وهو مقال مفعم بذكريات تلك الفترة عندما كنا طلاباً في جامعة شيكاجو، وظهرت في مجلة «تاريخ الفلسفة» The Journal of the History of Philosophy في يوليو عام ١٩٧٠م.

(١) النص مقتبس من كتاب «بيري R. B. Perry» فكر وشخصية وليم جيمس. المجلد الثاني، ص٥٢٤.

(٢) أعيد نشر المقال في «مجموعة أبحاث تشارلز ساندرز بيرس»، المجلد ٨ الفقرات ١٨٨-١٩٠.

وقد نشر كتاب «دراسات في النظرية المنطقية» كجزء من المنشورات التي تصدر كل عشر سنوات The Decemial Publications لجامعة شيكاغو، وكانت الأبحاث الفلسفية المستقلة الأخرى في السلسلة هي «الوجود والمعنى والواقع في كتاب المقال للوك»(*) Existence, Meaning and Reality in Locke's Essay وبحث نظرية المعرفة الحديثة Present Epistemology كتبه أديسون مور Addison W. Moore وبحث «تعريف ما هو نفسي» The Definition of the Psychical لجورج هربرت ميد وبحث آخر بعنوان «في أصل مقولات علم الجمال» On the Genesis of the Aesthetic Categories لجيمس تافتس، وبحث تافتس بعنوان «الشروط المنطقية للمعالجة العلمية للقوى النفسية» Logical Conditions of a Scientific Treatment of Morality عند جون ديوي. كانت هذه الكتابات التي أشارت إلى وجود «مدرسة شيكاغو» والتي على أساسها أطلق عليها جيمس هذا الاسم.

كون هؤلاء الرجال ديوي وميد ومور وتافتس مع إدوارد سكريبنر آمز مدرسة شيكاغو وهم من الفلاسفة البرجماتيين. ولقد كان كل من الفلسفة وعلم النفس في السنوات المبكرة الأولى غير منفصلين لذلك فقد كان عالم النفس رولاند أنجل James Rowland Angell عضواً مهماً في تلك الجماعات المتعاونة معاً وقام بنشر مقال له بعنوان علاقة علم النفس الإنشائي والوظيفي بالفلسفة» ضمن النشرات التي كانت تصدر كل عشر سنوات. وهناك عدد آخر من الأشخاص تعاونوا معاً في كتاب «الدراسات» ظهرت في كتاب النظرية المنطقية منها «الذكاء الخلاّق» Creative Intelligence ولكن على أية حال يمكن أن نقول إن ديوي وميد ومور وتافتس وآخرين كانوا خير من يمثلون «مدرسة شيكاغو» وكان ديوي هو رائدها دون منازع.

(*) الإشارة إلى كتاب جون لوك: مقالات في الفهم (العقل الفعّال) الإنساني Essays in Human Understanding صدر عام ١٦٩٠. (المترجم)

كان تافتس موجوداً في جامعة شيكاغو عند افتتاحها عام ١٨٩٢، وكان من قبل في جامعة ميتشيجان Michigan، وكان زميلاً لديوي في قسم الفلسفة، واقترح تافتس على رئيس الجامعة (في ذلك الوقت) وليم ريني هاربر William Rainy Harper أن يعين ديوي رئيساً للقسم، وتم ذلك في عام ١٨٩٤، وعين ديوي زميليه في ميتشيجان ميد وأنجل الذي كان تلميذاً لديوي وميد في ميتشيجان، وحصل كل من مور وآمز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو، وظل ديوي في جامعة شيكاغو حتى عام ١٩٠٤ عندما انتقل منها إلى جامعة كولومبيا Columbia.[٣]

ولكن ما السمات الفكرية المشتركة لهؤلاء الرجال حتى أنهم قاموا بتكوين مدرسة متميزة؟ لقد تم إلقاء الضوء على هذه السمات في هذا الكتاب خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا مثل هذه العلاقات المبكرة لديوي وچيمس وبيرس[*].

وتحمس چيمس في مقاله الذي نشره في كتاب «دراسات في النظرية المنطقية» وقال فيه: «إن هذه المدرسة تستحق حقاً وصفها بأنها نسق جديد في الفلسفة»؛ فإذا كانت صادقة فضلاً عن أصالتها، فإن ظهورها يجب أن يعد حدثاً مهماً. إن الناقد الحالي لها يظن بقوة أنها صادقة بالفعل (وهو يقصد هنا مدرسة شيكاغو بالطبع).

---

(٣) أخذت المادة العلمية لهذه الفقرة من المقال الثمين الذي كتبه جورج ديخويزن George dyKhyuizen بعنوان «جون ديوي: سنوات شيكاغو John Dewey: The Chicago Years. كما أنني مدين أيضاً لهذا لامقال بعدد من الأفكار: هناك مقال آخر صاحب ظهور المقال الأول بعنوان: «جون ديوي في شيكاغو: بعض الملاحظات الذاتية John Dewey in Chicago: Some Biographical Notes: هو مقال له صلة بالظروف التي أدت إلى استقالة ديوي من جامعة شيكاغو.

(*) حذفت الصحف الخاصة ببيرس، حيث تمت مناقشة العلاقة بين بيرس وديوي في متن الكتاب (١٩٦٩).

واتفق جميع مؤلفي هذا الكتاب في مقدمته على وجود «روابط بين النظرية المنطقية وعلم النفس الوظيفي» وأعلنوا أنهم ملتزمون التزاماً واضحاً مسبقاً... بآراء وليم چيمس وكتب ديوي لچيمس رداً على مقاله قال فيه: «وعلى قدر اهتمامي فليس هناك إلا أن أشير إلى المصطلحات المنطقية والتي استخدمتها أنت من قبل».

وعلى الرغم من أن چيمس قام بالتأكيد بدور فعال في الحركة تجاه علم النفس الوظيفي، فإن معظم ما قام به في علم النفس يكاد أن يوصف بأنه علم نفس وظيفي على سبيل المثال فإن علماء النفس الظواهريين Phenomenological Psychologists اليوم يجدون الكثير عند ميلهم نحو «مباديء علم النفس «لچيمس ويعتبرونه عملاً ظواهرياً بصفة أساسية يفوق فكر چيمس الوظيفي والبرجماتي[٤] وقد ظهر مقال چيمس الوظيفي المتميز «هل الشعور موجود؟» Does Conscious exists? عام ١٩٠٤ بعد كتاب «دراسات في النظرية المنطقية» ومقال ميد الثاقب «تعريف ماهو نفسي».

ويجب ألا ننسى من ناحية أخرى أن ديوي كان هيجلياً صريحاً، وكان تأثير هيجل وتابعيه واضحاً على المساحة الكلية للظاهرة الثقافية، وكان التوجه نحو العملية الاجتماعية على الرغم من أن السمة المؤقتة للتطور الاجتماعي كانت قد قوضت تماماً عندما قالت بنظرية المطلق The absolute. واستمر ديوي في هذه العملية التي طورها مما يمكن وصفه بالمثالية الثقافية الهيجلية إلى النزعة الطبيعية الثقافية. وكان اهتمام ديوي الرئيس اهتماماً أخلاقياً وساعده ظهور علم النفس الوظيفي ثم السلوكي بعد ذلك بصفة رئيسة على

---

(٤) انظر على سبيل المثال مقال آرون جورفتش Aron Gurvitch «مجال الوعي» The Field of Consciousness المترجم عن مقال بنفس العنوان بالفرنسية وهو ما ترجم عنه: The Òrie du champs de la Conscience.

إيجاد مصطلح يعبر به عن الاتجاه الذي اتجه إليه بالفعل عندما قام بتحليله الأخلاقي. وذكر ميد أن كتاب چيمس مباديء علم النفس لم يكن هو نقطة البدء عند ديوي وقال: «انتقل ديوي من موقعه المثالي عن طريق التحليل النفسي إلى الفعل الأخلاقي» Outlines of a critical theory of eth-ics الذي صدر عام ١٨٩١ وأشار فيه إشارة بسيطة لچيمس «لقد وجدنا أن الإرادة والفكرة والنتائج جميعاً قد وضعت في الفعل، والفعل نفسه قد وضع فقط داخل النشاط الأكبر للفرد والمجتمع». وهكذا اتصل فكر ديوي بفكر چيمس بأيسر اتجاه وهما مازالا في بداية الطريق.

لقد كان اهتمام ديوي الأساسي بالأخلاق وكان اهتمامه المبكر هو محاولة تطبيق المنهج العلمي على المسائل الأخلاقية، مما أدى به إلى تحليل الفعل الأخلاقي وإلى دراسة نوع البحث المناسب لمواجهة المشكلات الموجودة في مثل هذا الفعل. ولائمت حركة چيمس نحو علم النفس الوظيفي ونظرية بيرس في البحث هذا الاتجاه المستقل في فكر ديوي، وخدم هذا الفكر واعتبر عناصر أساسية لتقدمه بعد أن استطاع تخطي التأثير الهيجلي المبكر الذي بدأ ديوي دراساته الأخلاقية وهو واقع تحته وأعطى تطور ديوي بدوره لمدرسة شيكاغو البرجماتية تأكيداً اجتماعياً وأخلاقياً متميزاً يختلف عن التوجه الفردي لبرجماتية چيمس وتوجه التحليل المنطقي في برجماتية بيرس.

الجزء الثاني

نعود الآن إلى بعض خصائص مدرسة شيكاغو البرجماتية كما كانت موجودة في السنوات من ١٩٢٢ وحتى ١٩٢٥.

استقال ديوي احتجاجاً على موقف قسم التربية، وبدأ فترة أخرى من عمله في جامعة كولومبيا، ومع ذلك، كان تأثيره العقلي مازال عظيماً في محيط جامعة شيكاغو، وكان قد أصدر في ذلك الوقت - بالإضافة إلى كتاباته التي ذكرت من قبل - «مقالات في المنطق التجريبي» (١٩١٦) و«الديموقراطية والتربية» (١٩١٦) و«الذكاء الخلاّق» (١٩١٧) حيث كان هو المؤلف والناشر معاً، و«التجديد في الفلسفة» (١٩٢٠).

وقد كان موجوداً هناك أثناء فترة الدراسة كل من أديسون مور وچيمس تافتس وإدوارد سكريبنر آمز وجورج ميد، وكانوا جميعاً متعاطفون مع اتجاه فكر ديوي. وكان ديوي نفسه يصول ويجول في جميع مجالات الفلسفة، وركز مور على النظرية المنطقية بمعنى ديوي الإصطلاحي، وركز تافتس على علم الأخلاق والنظرية السياسية وعلم الجمال في عمله، بينما ركز آمز على الفلسفة في مجال علم النفس الاجتماعي مع إشارة خاصة إلى موضوعات العقل والنفس.

كوّن هؤلاء الرجال مدرسة بالمعنى الضيق جداً لهذه الكلمة، وكانوا جميعاً يمثلون اتجاهات مدروسة لموقف فلسفي معين اتخذوه إطاراً للعمل بوجه عام. وشجعهم على ذلك مجهودهم الفردي مما ترك تأثيره على المحاولات الشاملة والنسقية لديوي ذاته، فهم ليسوا مجموعة من الحواريين Disciples تماماً ولكنهم كانوا مجموعة من المفكرين البنائين ارتبطوا متعاونين لبناء صرح

فلسفي. وأنا لا اعتقد في وجود مدرسة مقارنة في الفلسفة في الولايات المتحدة بهذا المعنى، وقليلة ماهي، إذا كانت موجودة حقاً في تاريخ الفلسفة.

ولم يعتمد برجماتيو شيكاغو فيما بين ١٩٢٢-١٩٢٥ على أعمال ديوي كنواة لموضوعات محاضراتهم وتعليقاتهم. حقاً لقد كان قليل من الدروس المقررة على الطلبة من كتابات ديوي ومناقشات قليلة عن ديوي في قاعات محاضراتهم فيما عدا دروس الأخلاق الإلزامية حيث استخدمت فيها «أخلاق» ديوي وتافتس كنصوص، وفي ندوة مور التي سنشير إليها.

وقد كان طلاب قسم الفلسفة في تلك السنوات على وعيّ تام بمدرسة شيكاغو كمدرسة بالمعنى الفضفاض حتي لهذه الكلمة وقد يشعر القاريء المتأمل لكتابات مور وتافتس وآمز وميد أنهم كانوا عمالاً يشيدون صرحاً واحداً، ولكن لم يكن ذلك سهلاً في قاعات المحاضرات لقد كانوا جميعاً مدرسين ممتازين وكانوا يعدلون في الموضوعات المختلفة المعقدة وينوعون في الفكر الوليد. وعلى الرغم من عدم وجود دعاية كافية لهم إلا أنهم كأساتذة مرموقين كانت لهم قناعاتهم الخاصة التي اعتمدوا عليها في إعلانهم عن أنفسهم. وكان هناك تعريف محدود بهم في حالة ما إذا كنا نتحدث عن «حركية برجماتية» عامة. ولم يكن اسم ديوي فقط هو الذي استخدم بقلة نوعاً ما في محاضرات عديدة، ولكن لم تكن هناك غير إشارات نادرة إلى چيمس، وورد ذكر بيرس مرة أو مرتين بالكاد. كما أنني لم أحصل على أية مقررات مكتوبة ومحددة لكل من چيمس أو بيرس. وأذكر أنه كان هناك مقرر واحد فقد محدد لديوي، وعلى الرغم من ذلك فقد كلفنا بكتابة العديد من الأبحاث عن ديوي في الندوات، ولم يكن هناك من أثر في أي مكان آخر عن المذهب البرجماتي.

وعلاوة على ذلك، فإن أعضاء هيئة التدريس في ذلك الوقت كانوا يضمون إدوين بورت Edwin A Burtt وسميث T.V. Smith، وتعرف الطلبة

على الأفكار الفلسفية المختلفة من خلال الزوار الذين كانوا يحضرون خلال فصل الصيف، وغالباً ما كانت أفكاراً عن آراء نقدية تماماً عن البرجماتية وخلال سنوات دراستي كطالب عملت بهذه الطريقة النقدية مع رايت W.K. Wright وموريس كوهين Morris Cohen وواتس كاننكهام G. Watts Cun-ningham وسي. آي. لويس C.I. Lewis.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر توجه ديوي الوظيفي النشط نفسه بعدة وسائل، ومع وجود استثناءات قليلة، فقد كانت مقررات القسم مقررات تاريخية في توجهها، وغالباً ما كان فكر الفيلسوف المعنى ذا علاقة بإشكالياته التي يثيرها في فلسفته يتم الإشارة إليها في موضعها التاريخي أكثر مما تكون محاضرات مستقلة في العادة يتم تدريسها في محاضرات دروس الفلسفة.

وفي الفترة المعاصرة والقريبة من المعاصرة كان التركيز الأكبر في تلك السنوات على الفلاسفة المثاليين أمثال فرنسيس برادلي Francis Brad-ley وبرنارد بوزانكيت Bernard Bosanquet، ولم يلق الفلاسفة الواقعيين إلا عناية قليلة - ففي سبيل المثال أهمل برتراند رسل تماماً فيما عدا بعض الحلقات الدراسية (الندوات) العارضة - وبقدر ما كان هذا التركيز على الفلاسفة المثاليين كان هناك غياب للمقررات الدراسية المقارنة ذات الصلة بموضوعات التخرج مثل الميتافيزيقا وفلسفة العلم والمنطق الرمزي.

والآن أعود إلى بعض الملاحظات عن مور وتافتس وآمز وميد وقد اعتمدت بصفة رئيسة على ملاحظاتي المستمدة من قاعات المحاضرات، وعلى حواراتي معهم، وعلى الكلمات التي كانت تلقي في المناسبات التذكارية التي عقدت لتكريمهم.

١ - أديسون وبستر مور

Addison Webster Moore

التحق مور بجامعة شيكاغو لكي يكون «حوارياً» لديوي، فمن الواضح أنه جاء من كورنيل Cornell عام ١٨٩٤ ليدرس على ديوي، وكان موجوداً في أول حلقة دراسية (سمينار) لديوي. كما كان العضو الوحيد في جامعة شيكاغو الذي نشر بحثاً في كتاب «دراسات في النظرية المنطقية» وكتب جيمس خطاباً لديوي أبدى فيه تحمساً لبحث مور عن «الوجود، والمعنى، والواقع» ورد عليه ديوي بكثير من الكرم الزائد قائلاً له إن مور أعطى أكثر مما أخذ. ومع ذلك فإن مور بالتأكيد لم يؤثر أبداً على ديوي كما فعل ميد بصورة أساسية، وكان دوناً عن الجماعة أقرب إلي أن يكون شارحاً ومدافعاً عن موقف ديوي. وقد كتب هذا في كتابه «البرجماتية ونقادها» Pragmatism and Its critics، كما فعل هذا في بعض (وليس كل) محاضراته.

وكان مور يتمتع بعقل متقد ذكي، جدلي Polemical وحتي في بعض الأحيان عقلاً ساخراً Satrical. وكان أكثر ضعفاً من حيث البنية عن زملائه الأقوياء، وأكثرهم اجتهاداً. وعانى معاناة خطيرة من القلق Insomnia، ودفعه ضعف صحته إلى التقاعد المبكر عدة سنوات مما كان يرغب فيه. وقد أخبرني ذات مرة أن اعتلال صحته جعله ينجز على الأقل نصف ما كان يأمل في إنجازه. وكان مور في أحسن حالاته في ندوتين متتاليتين دارتا حول «أسس المنطق الحديث» Foundations of Modern Logic و«المنطق الحديث» Modern Logic، وقد غطت الندوة الأولى معظم الفلاسفة من ديكارت Descartes وحتى هيجل Hegel وركزت الثانية على مل Mill وبرادلي Bradley وبوزانكيت Bosanquet ورويس Royce، وديوي Dewey، مع

بعض الإشارات إلى الفلاسفة الواقعيين أمثال مونتاجيو Montague وهولت Holt ورسل Russell وسبولدنج Spaulding. أما مركز مور ذاته في المدرسة فقد كان مركزاً جوهرياً مثلما تألق ديوي في كتابه «مقالات في المنطق التجريبي» Essays in Experimental Logic، الكتاب الذي حدده في الندوة الخاصة بالمنطق الحديث عندما تناوله مع ديوي. واعتبر مور بحث ديوي الذي نشره عام ١٨٩٦ بعنوان «التصور المنحني في علم النفس»(٥) Reflex Arc Concept in Pyschology إنه «المقال الرئيس في الحركة البرجماتية». وفي مكان آخر سماه «البحث الرائد في الحركة البرجماتية» وقد فهمت من هذا أنه يعني أن البحث كان يعتبر بحثاً رائداً من الناحية التاريخية وبحثاً رئيسا بمعنى أنه كان يحتوي على أفكار جوهرية أساسية Basic ideas.

ولم يأخذ مور في اعتباره مطلقاً التأثير العظيم لچيمس على فكر ديوي، وإنما اعتبر أن هذا الفكر (فكر ديوي) تطوراً مستقلاً عنه، وإن كان قد نشأ فجأة بتأثير الصعوبات التي واجهت برادلي في علم الأخلاق «صعوبات برادلي أوجدت الحركة البرجماتية» إنها عبارة وجدتها في ملاحظاتي. لقد رأى مور أن برجماتية ديوي إنما هي ثورة أساسية على المثالية المطلقة Absolute idealism وبدلاً من أن يوجه فكر ديوي وأن يكون إنعكاساً للوضع السائد ككل، فإن الواقع The Real لدى ديوي - وفي رأي مور- بحث لنفسه عن سبب الفوضى التي نشأت وسادت في المجال العضوي Organic curcuit الذي يحيط بالكائن الحيّ وبيئته، واعتبر أن من واجب الفكر أن يعيد ترتيب هذه الفوضى البادية أمامه، وبهذه الطريقة يقال إن ديوي أرسى الدعائم التي ترد على هذه الصعوبات الأخلاقية الصورية التي أوجدها موقف برادلي.

---

(٥) المجلة النفسية Psychological Review العدد ٣، ١٨٩٦، الصحف، ٣٥٧-٣٧٠ وأعيد نشرها في كتاب ديوي «الفلسفة والحضارة» Philosophy and civilization عام ١٩٣١ تحت عنوان «وحدة السلوك» The Unit of Behavior.

ولا أريد أن أترك انطباعاً على أن مور كان مجرد مدافعاً عن الإيمان De-Fender of the Faith، فبينما يعود فكر ديوي إلى التحليلات النقدية التي قدمها مور للمفكرين الآخرين، فإن هذا الانطباع لن يظهر أبداً على السطح، لقد أعطانا دائماً انطباعاً يتسم بالقلق والشك لكل فيلسوف قام بدراسة أفكاره. أما أنه كان مدرساً فلقد كان مدرساً رائعاً.

٢ - جيمس هايدن تافتس

James Hayden Tufts

إذا كنا نعتبر مور هو إمام المنطق (فيلسوف المنهج، وفيلسوف نظرية المعرفة) لجماعة شيكاغو بعد ديوي، فإن تافتس هو فيلسوف الأخلاق. بل وأكثر من ذلك بكثير، فهو فيلسوف القيم The axiologist حيث كان معنياً أيضاً بعلم الجمال والنظرية الاجتماعية السياسية Sociopolitical theory وبسبب نشاطه الفعَّال خلال فصلى الدراسة في حلقات السمينار، فقد قام بتدريس الأخلاق وتدريب خريجي قسم الفلسفة مثلما كان مور يقوم بتدريس المنطق للطلبة في ذات الفصلين الدراسيين.

وكان تافتس منذ أن شاباً مهتماً بدراسة المجتمعات البدائية فقد درس عاماً على يد سامنر Sumner في جامعة يل Yale، كما درس هناك أيضاً اللاهوت Theology على يد Harper، وعندما أصبح هاربر رئيساً لجامعة شيكاغو عين تافتس في منصب أستاذ الفلسفة، وهكذا أصبح تافتس في جامعة شيكاغو قبل ديوي بسنوات، وظهرت اهتمامات تافتس الأخلاقية قبل اتصاله بديوي، غير أنه وجد أن ديوي مكملاً له في اهتماماته الأخلاقية، وقد قال لي ذات مرة أنه بعد كل نصف ساعة من حواره مع ديوي كان يشعر وكأنه استوعب كتاباً كاملاً. واقترح تافتس على ديوي خطة كتابه الشهير «الأخلاق» Ethics،

وكتب مع ديوي الجزء التحليلي الثاني، واهتم تافتس بكتابة الأجزاء التاريخية في الكتاب أكثر من أي جزء آخر.

واستمر تأكيد تافتس في كتبه الأخرى على المشكلات الأخلاقية المعاصرة مثل «أخلاق التعاون» The Ethics of Cooperation و«التكلفة الحقيقية للمعيشة» The Real Business of Living و«الأخلاق الاجتماعية في أمريكا» America's social Morality وأكد من خلال بحثه الذي كتبه بعنوان «في أصل المقولات الجمالية» On the genesis of The Aesthetic Categories على المنزلة الرفيعة التي يتمتع بها وقدرته الفائقة النظرية والعملية، وأكد كذلك تأثير «الذكاء الخلاق» Creative Intelligence في كتابه الذي أصدره بعنوان «الحياة الأخلاقية وبناء القيم والمعايير The Moral Life and The Construction of Values and Standards على الفرق بين تصورات «الخير» Good و«ما ينبغي أن يكون» Ought بقوة أكبر مما فعل أي برجماتي آخر حتى سي. آي. لويس.

وتلقيت مع تافتس مقررات Courses علم الجمال، والفلسفة الاجتماعية والسياسة، والأخلاق التطورية، وحلقة دراسية حول علم الأخلاق، وكانت جميعها موجهة توجيهاً تاريخياً، غير أن المقررات الثلاثة الأولى كانت مليئة بمادة دسمة مأخوذة من طواف تافتس الكبير في الأدب، والأنثروبولوجيا والحياة المعاصرة، وأذكر على وجه الخصوص معالجته المطولة للمذهب الرومانسي Romanticism والتطور الأخلاقي عند اليهود. وتناولت الحلقة الدراسية الطويلة في الأخلاق أعمال هوبز Hobbes، وشافتسبري Shaftesbury، وهوتشنسون Hutchinson، وبطلر Butler، وكلارك Clarke وهيوم Hume،، وآدم سميث Adam Smith، وبنثام Bentham وبالي Paley وسيدجويك Sidgwick، وت. هـ. جرين T.H. Green وبعض الدراسات عن بوزانكيت Bosanquet

وهوبهاوس Hobhouse وديوي. وقد ركز تافتس متجنباً نظرة ديوي التطورية فيما يتعلق بالمثالية المطلقة-، ركز على أهمية رد الفعل النقدي لديوي تجاه ت. هـ. جرين[٦]، تماماً كما ركز مور على رد الفعل النقدي لديوي تجاه برادلي.

وربما كان تافتس - بسبب تأثير علم الأنثروبولوجيا على تكوين اهتمامه الأخلاقي- أكثر حذراً من ديوي فيما يتعلق بالمدى الذي يستطيع الإنسان أن يصل إليه أو بما يجب عليه من ركونه إلى أهمية العلم في الحياة الأخلاقية، وعلى الرغم من ذلك فقد اتفق مع ديوي على أهمية تقديم الذكاء النقدي للإنسان على سلوكه الإنساني.

وقد ركز تافتس على أهمية الخبرة الجمالية قبل أن يوجه ديوي اهتمامه بفترة نحو الفن، وربما كان لهذا علاقة بتأكيده الثابت على تكامل الفرد والمجتمع. وكتب في أحد كتبه أنه يجب على الإنسان أن يعّبر عن المثال إما باعتباره كائناً فردياً اجتماعياً Social Individual أو باعتباره «المجتمع الذي يدرك النزعة الفردية»(*) لقد اعتقد أن ذلك كان مثال الديموقراطية الأمريكية، فكان يهتم اهتماماً ملموساً بالرأي القائل بأن هذا المجتمع يجسد هذا المثال الديموقراطي وهو آخذ في تقدمه.

ووجدت في كراسة الملاحظات هاتين العبارتين الأولى: «إن أمريكا تتحرك بثبات نحو الرقابة الاجتماعية» والثانية «إن القيمة المطلقة إنما تكمن في الشخص الكامل».

وكتب تافتس في كتابه «التكلفة الحقيقية للمعيشة» يقول«إن أجمل وأوسع معنى للديموقراطية هو أن جميع الناس يجب أن يشتركوا بأوسع مدى ممكن في

---

(٦) انظر: مقال ديوي «نظرية جرين عن الدافع الأخلاقي» Green's Theory of the Moral Motive، الصحف، ٥٩٣-٦١٢.

(*) The Society which recoginzes individuality.

أفضل معيشة». ورأى تافتس أن هذا كمثال يمكن تطبيقه على البشرية لذلك ركز على أن الإنسان يجب أن يتخطى حدود النزعة القومية Nationalism إلى النزعة العالمية Internationalism ثم ينتقل منها إلى تكوين هيئة سياسية أكبر تكون هي القاسم المشترك Mutual Destiny أو هي القدر النهائي للبشرية، «إن الولاء للبشرية يجب أن يكون هو الهدف الأسمى في نهاية الأمر.(*)

٣- إدوارد سكريبنر آمز
Edward Scribner Ames

حصل آمز على درجة الدكتوراه الأولى عام ١٨٩٥ من قسم الفلسفة بجامعة شيكاغو وانضم إلى أعضاء هيئة التدريس عام ١٩٠٠ بعد أن قام بتدريس الفلسفة والتربية في كلية بطلر Butler College لمدة ثلاث سنوات كان آخر من مات من أعضاء مدرسة شيكاغو (عام ١٩٥٨ عن عمر يناهز ٨٨ سنة). وكان أول اتصال لي بالقسم عن طريقه عندما سجلت بالقسم عام ١٩٢٢، وعرفته أكثر ممن عرفت من أعضاء القسم، فقد رأيته كثيراً أثناء سنواته الأخيرة من حياته المديدة.

جاء آمز من مدرسة يل للاهوت إلى شكاغو في السنة الأخيرة من دراسته قبل التخرج، وتأثر تأثيراً عميقاً بكل من چيمس وشوبنهور Schopenhauer وبكونت إلى حد ما. وعمل بوجه عام في شيكاغو مع تافتس، وجاء تأثره بالعلم من خلال دراسته لعلم النفس والأنثروبولوجيا، وتزايد إحساسه بأهمية العلم الاجتماعي من خلال العمل الدائر في شيكاغو وعلى وجه الخصوص أعمال توماس W.I. Thomas.

(*) Loyalty to mankind must finally be supreme.

وكان آمز قسيساً بكنيسة الجامعة لجماعة حواريّ المسيح لمدة أربعين عاماً مع بداية عام ١٩٠٠، فضلاً عن كونه عضواً بقسم الفلسفة والذي درّس به لمدة ٣٥ عاماً. وعلى الرغم من أنه أعطى بعض المحاضرات في علم النفس والأخلاق والمنطق وتاريخ الفلسفة، فإن مجال عمله الأساسيّ كان علم النفس وفلسفة الدين، ويعتبر كتابيه «علم نفس الخبرة الدينية The Psychology of Religious Experience» و«الدين» Religion أكمل ما أنتج وقد نبعا من فكره وخبرته في مجال الدين.

وألقي عليّ آمز مقرراً واحداً هو علم نفس الدين، وعندما انظر في ملاحظاتي فإنه يبدو لي أن آمز كان يعمل وفق أنموذج معين في كيفية تناول الإشكاليات في ذلك الوقت أخذه من البرجماتيين في شيكاغو واستخدم فيه مصطلحات علم النفس الوظيفي.

وكان التركيز على الدين باعتباره شكلاً من أشكال النشاط الاجتماعي، وعلى الأفكار الدينية باعتبارها الأدوات التي تتعامل مع الصعوبات التي يواجهها الناس في ذلك النشاط. وكانت دراسة النشاط الديني تتم باعتبارها أساس النشاط الذي نصل عن طريقه إلى القيم العليا التي تتعلق بالحياة الاجتماعية لأن الصعوبات تواجه مثل هذه الكفاح من أجل القيم، وأما الشعائر الدينية فهي مجرد وسائل للتغلب على هذه الصعوبات والوصول بها إلى الأهداف المرجوة. فالشعيرة بهذه الطريقة هي نشاط عمل أساسي، تسبق الأسباب التي تقررها وتبررها. وتعد الأسطورة والصلاة جزءاً أساسياً من الشعيرة، كما تم تفسير فكرة الله على أساس أن الكون تدعمه مثل هذه القيم، منظوراً إليه من وجهة نظر الحياة الاجتماعية التي جعلته مثالياً Idealized وشخصاً مجسداً Personified.

وحاول آمز عن طريق نشاطه في كنيسة جماعة حواريّ المسيح في الجامعة أن يجند الدين لخدمة القيم الاجتماعية العليا للإنسان المعاصر، وكان تأثيره

عظيماً على مجتمع جامعة شيكاغو وبالتالي على جماعة حواريّ المسيح كحركة دينية فعلية. أما الروح التي كانت تسري في حياته فإنها تبدو ماثلة حية في سيرته الذاتية Autobiography التي أصدرها فان ميتر آمز Van Meter Ames ونشرت تحت عنوان «فيما وراء اللاهوت» Beyond Theology.

ولست أدري إن كان ديوي قد وضع أمامه شرح آمز عندما كتب كتابه عن الإيمان المشترك أو الفطري (العام / الشائع) A Common Faith، ولكن الموقف الذي أخذه هو نفس الموقف الجوهري الذي فصّله في كتابه منذ سنوات كثيرة مبكرة والذي تمثله خلال الأربعين سنة كقس Pastor لكنيسته.

٤ - چورج هربرت ميد

George Herbert Mead

قال ديوي عن ميد في بحث أعده بمناسبة حفل تأبينه عام ١٩٣١: «إن عقله كان أصيلاً عميقاً وقد عرفت ذلك من خلال اتصالاتي به وحكمي عليه، فهو أكثر العقول الفلسفية أصالة في أمريكا في الجيل الأخير ... وأكره أن أفكر كيف كان يمكن أن تكون أفكاري إذا لم أتمثل أفكاره التي أخذتها عنه».

وقد درس ميد لفترة مع چيمس، ولكنه لم يكن تلميذاً لديوي. وأنهى دراسته وتخرج في برلين Berlin ثم عين في جامعة ميتشيجان. إذاً فقد قابل ديوي ميد وبدأ معه صداقة اعتبرها ديوي «شيئاً كإحدى أغلى الأشياء التي أمتلكتها في حياتي»(*)، وأحضر ديوي ميد إلى شيكاغو، حيث ظل بها الثاني حتى وفاته عام ١٩٣١.

(*) One of the most precious possessions of my life.

درّس ميد في جامعة شيكاجو مقررات في علم النفس بالإضافة إلى الفلسفة، وكان مقرره في «علم النفس الاجتماعي» هو محور تدريسه. وكان للمجهود الذي بذله سنة بعد أخرى تأثيره القوي على علماء النفس والاجتماع فضلاً عن طلاب الفلسفة. وجمع من مذكراته التي اختزلها لمحاضراته ومن ملاحظات طلاب آخرين كتابه «العقل والذات والمجتمع» وهو كتاب كلاسيكي (تقليدي) تماماً، كما يشير عنوان الكتاب فقد كانت طبيعتيّ العقل والذات هما الإشكالية الرئيسة لميد، وأحال نشؤهما إلى العملية الاجتماعية. وهناك مقرر آخر أساسيّ هو «إشكالية الوعي» The problem of consciousness شاهد صدق على عمق اهتمامه بفلسفة العقل.

وكان ميد أكثر من مجرد عالم نفس اجتماعي. فقد أصبح مهتماً اهتماماً متزايداً بمكانة العقل الإنساني في الكون، وقد حرّك اهتمامه بهذا الموضوع اتصاله بدرجة عظيمة بالأعمال المبكرة لهوايتهد، و كانت بداية اتصاله به عندما كنت طالباً، وكانت بداية تلقائية ظهرت من خلال دراستي لعلمه: «النسبية من وجهة نظر برجماتي Relativity from the standpoint of a pragmatist. ولم يمتد العمر بميد حتي يتمكن من إتمام دراسته المفصلة عن الكوزمولوجيا تفصيلاً كاملاً وقد بدأ يتجه لدراستها، غير أن محور عمله الذي كرّس نفسه له ظهر في كتاب وضعه لكي يكون لب محاضراته في كاروس Carus Lectures هو «فلسفة الفعل» The philosophy of the Act. وعلى ضوء مشروع فكره ككل أعتقد أنه من الصحة أن نقول إن ميد كان آخر الكوزمولوجيين في جماعة شيكاجو، كما كان مور آخر المناطقة، وكان توفتس آخر علماء الأخلاق وكان آمز آخر علماء الدين.

وكان ميد يفضل إلقاء المحاضرات عن حضور الحلقات الدراسية (سمينار) باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير. ويذهب الواحد منا إلى محاضرات ميد

ليستمع، إليه، ويعيش خبرة عقل فلسفي رائع هو يعمل، وكان ميد يبدو كما له كان يتحدث بصوت عال إلى «شخص آخر غير محدد المعالم» The generalized other أكثر مما كان يتحدث إلى طلابه المحتشدين، وكانت محاضراته رائعة، حتى أنه يمكن نشر أي من محاضراته التي كان يلقيها دون أية إضافات، ولقد استمعت إليه يلقي ثلاث محاضرات الواحدة تلو الأخرى في ثلاثة موضوعات مختلفة، وتعتبر كل محاضرة منها «جوهرة»، وقد فعل هذا دون تدوين ملاحظات من أي نوع، فقد أعدت المحاضرات بعناية تبدو كأنها تأتي عرضاً. وذات مرة بينما كان على وشك إلقاء المحاضرة النهائية إبّان نهاية الفصل الدراسي وبداية الاختبارات (ولم يكن ميد يختبر طلابه)، بدأ في إلقاء المحاضرة ولكن في موضوع آخر فقاطعه أحد طلابه منبهاً إياه أنه خلط بين الموضوعات، وعندئذ وقف ميد قائلاً: إذاً فليس لديّ شيئاً أقوله» وترك القاعة وخرج.

وكانت أفكار ميد تشبه المياه المترقرقة الصافية التي تنبثق من مصادر خفية حتى في محاضراته القديمة التي كتبها في شكل ملاحظات كانت تبدو غضة ومتلئلئة. وذهبت إلى شيكاجو لأول مرة للعمل مع ميد، وكانت المكافأة مجزية حقاً.

وأختتم حديثي عن مدرسة شيكاجو البرجماتية بإضافة نقطتين:

النقطة الأولى: خاصة بالدور المهم الذي قام به أعضاء جماعة مدرسة شيكاغو ومدى تأثيرهم في القوى الليبرالية والتقدمية لأمريكا في عصرهم، فقد انتشرت مشاركة ديوي الاجتماعية على اتساع الأمة، انتشاراً قوياً خرافياً Fabulous، وتدخل كل من مور وتافتس وآمز وميد بعمق في معالجة مشكلات وشؤون مجتمع شيكاغو، وفي إدارة تعسفات العمل In management labor arbitration وفي المدارس العامة، وفي الموضوعات المتعلقة بالمدينة، وفي تنظيم العمل، لقد كانوا

رجالاً مترابطين يتصفون بدرجة عالية من تكامل القوى النفسية (الأخلاقية) وكان توجههم الفلسفي ومشاركتهم الاجتماعية تبدو كنسيج واحد، فقد كانت الفلسفة التي أنشأؤها وعلموها هي نفسها حياتهم التي عايشوها.

النقطة الثانية، تتعلق بنهاية مدرسة شيكاغو، وجاءت هذه النهاية بناءً على قرار اختياري (إرادي) وعلى الرغم من ذلك فلم يتم هذا في لحظة بعينها، لقد ساد شعور عام بأن الجماعة قد أُنهت عملها. وآن للقسم(*) من الآن فصاعداً أن يعلن عن وجهات نظر متباينة.

لقد كنت محظوظاً أن أكون طالباً في جامعة شيكاغو عندما كان بها مور وتافتس وآمز وميد، وكانوا جميعاً في أوج قوتهم. وسرعان ما بدأت مكانة الجماعة تتضاءل. فقد مات مور أولاً، ثم ميد، ثم تافتس، ثم آمز، وأعلن ديوي عن فكرة رائعة هي أن شيكاغو قد عاشت مرحلة تطورية (أوركسترالية جماعية) an orchestral development وأن كتاباته الأخيرة تضمنت هذا التطوير كنهاية متكاملة.

(*) يقصد قسم الفلسفة بجامعة شيكاغو (المترجم).

بعض المصطلحات المهمة
التي وردت بالكتاب(*)

المصطلح العربي	المصطلح الإنجليزي
القضية البرجماتية	Pragmatic Maxim
التجريبية الأصيلة	The Radical Empiricism
العمومية	Generality
الحقائق الذهنية/ العقلية	Mental Facts
التصور الذهني	Intellectual Concept
الدلالة المجردة الحيوية	Vital Significance
أحكام الإلزام	Judgments of Obligation
نظرية العلامات	Semiotic
نظرية المعرفة	The Theory of Knowledge
نظرية البحث البرجماتية	Pragmatic Theory of Inquiry
المنطق الخالص	Proper Logic
المنطق النقدي	Critical Logic
التحقيق	Verification
الإقرار المبرهن عليه	Warranted Assertion
القابلية للخطأ	Fallibilism
علم الكوزمولوجيا الطبيعية	Naturalistic Cosmology
تحديد القيمة لـ ...	Appraising
أحكام الواقع	Judgment of Fact
أحكام العادة	Judgment of Practice
أحكام الخير	Judgment of Good
الخبرة الجمالية	Aesthetic Experience
التقدير الجمالي	Aesthetic Appreciation
المجتمع الديكتاتوري	Totalitarian Society
التربية التقدمية	Progressive Education
النظرية الاجتماعية السياسية	Sociopolitical Theory
أخلاق التعاون	The Ethics of Cooperation

(*) هذه المصطلحات من إعداد المترجم.



محتويات الكتاب

